١ - ١٠ التاريخ والمسؤولية الفكرية:

أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري*

* محمد بن عمر ابن عبدالرحمن العقيل.
- ماجستير من المعهد العالي للقضاء في التفسير، وله مشاركات كثيرة في التأليف والمقالة والإذاعة.
- عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- رئيس الشؤون الثقافية بجمعية الثقافة والفنون، ورئيس تحرير مجلة التوباد، وأول رئيس للنادي الأدبي بالرياض.
- رئيس تحرير مجلة الدرعية وصاحب امتيازها.

هذه ضميمة من كتابي الكبير (العقل التاريخي) ، وهو أحد الكتب التي كنت أعمل بها منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاماً، ثم بعد كل مدة أعاوده بالتشذيب والتهذيب والإضافة.. وهو قائم على الرواية والدراية ، متحصِّنٌ بركائز رصينة من نظرية المعرفة ؛ فأطْرح كلَّ الاحتمالات متحرياً وجودَ المقتضي أو تخلُّفَه، ووجودَ المانع أو تخلُّفَه ، وما يترتب على ذلك: من متعيِّن، أو مُحال، أو ممكن (وهو ما لا يستبعد تعيُّنه أو امتناعه)، أو ممكن أمكن (يجري تعيُّنه في العادة)، وأفرق بين ما يقتضي العلم والعمل من اليقين أو الرجحان ، وما يقتضي التوقُّف .. ومادته أحداثٌ ماضية يُراد معرفتُها كما وقعتْ ، وأحداثٌ في المستقبل يُراد توقُّعها على ما يبدو من المقتضيات والموانع بحدس غير فارغ ، بل صادر عن معرفة تاريخية عميقة ورؤية فكرية وَفْقاً للبواعث والأسباب والموانع المنظورة .. ومن الأحداث الماضية ما له خصوصُ عنايةٍ مثلُ الأوهام الميتافيزيقية عن بداية الخلق .. وثَمَّة أمور مستقبلة تشوَّفَتْ النفوس لاستكناهها برؤية تاريخية ، وما عدا ذلك عن العقل التاريخي فهو أحداث وقعتْ

أدرسها تطبيقياً إن شاء الله .. والعمل في مجموعه توثيق نقلٍ وفق مقاييس نقدية ، وتفسير ، وتعليل .. وهي مقاييس قارَّة بالنسبة للعقل الإنساني المشترك الذي يملك البرهان العلمي على صحة تسييس البلاد والعباد بالدين الصحيح، كما أنها مقاييس نسبية لدى كل أمة يخضع جمهورها لإرث تقليدي، أو فلسفة من وضع البشر كتسويغ الظلم ، وسلب الفرد نوازعه الفطرية في المجتمع الماركسي ، والميوعة والوهن في المجتمع الديموقراطي الإباحي .

والتاريخ في وقائعه وأحداثه علم غيبي ؛ لأنه غير مشهود للخالف إلا بآثاره ودلائله .. وهو أمَسُّ العلومِ بالمحاكمة عن علمٍ وصدقٍ وعدلٍ، ولا سيما إن تعلق بالمعاصر بنسب أو سبب .. ولقد أُهين هذا الفن بثلم هذه المحاكمة؛ فتناوله المزيِّف الكذوب لمنفعةٍ أو تكثُّر ، وتناوله أشباه العوام من ذوي الأُمِّيَّة الفكرية والثقافية العلمية ، وتناوله ذوو المفاخرات والمنافرات والمكاثرات ؛ فتكلموا بالهوى والجور .. ومن الظواهر السيئة في هذا العصر أن شعراءَ عوامَّ أميين شَدَوْا أطرافاً من الثقافة العادية ، واقتنوا كتباً وهم لا يميزون بين الهيثم ابن عدي[١] والبلاذري[٢] ، ولا بين

(١) هو أبوعبدالرحمن الهيثم بن عدي بن عبدالرحمن الطائي الكوفي [١١٤-٢٠٧هـ] عفا الله عنه.. كذَّاب مشهور قال عنه علي بن المديني رحمه الله : «الهيثم أوثق عندي من الواقدي ، ولا أرضاه في الحديث ، ولا في الأنساب ، ولا في شيء» ، ومن كذبه زعمُه أنَّ لرسول الله ﷺ ابنين هما عبدالعزى وعبد مناف ؟! .. ومحالٌ أن يُعبِّد رسولُ الله ؟ لغير الله وهو الذي يُغيِّر أسماء الناس الشركية .. انظر عنه سير أعلام النبلاء ١٠/١٠٣-١٠٤ ، ولسان الميزان ٨/٣٦١-٣٦٣ ، وكان يُغمز في نسبه ؛ ولهذا قيل فيه :

إذا نسبتَ عدياً في بني ثُعَلٍ فقدِّم الدَّالَ قبل العينِ في النسب

يعني يكون دَعِيّاً.

(٢) هو أحمد بن يحيى بن جابر [- بعد ٢٧٠هـ] رحمه الله تعالى نسابة متقن ، والبَلاذُري (بفتح التحتية الواحدة ، وضم الذال المعجمة ، وكسر الراء) نسبةٌ إلى شجر البلاذر ؛ فكان يشرب==

وصايا الملوك[1] وكتب الانساب لأبي عبيد القاسم، وابن حزم، وابن عبدالبر رحمهم الله .. وليس عندهم مبادئ فكرية وأصولية وتاريخية يميِّزون بها بين الدعوى والبرهان والشبهة ، ويُرجِّحون بها عند التعارض .. ثم تطوَّر أمر هؤلاء القوم العوام : فكتبوا عن التاريخ والأنساب بغير علم ؛ فكان مضموناً لهم الوقوع في الكذب والجور مع ارتكاب المنهي عنه وهو القفو بلا علم .

ولقد تطرَّق المحقق عبدالرحمن بن محمد بن خلدون رحمه الله تعالى لبعض آفات التاريخ فقال: «ولما كان الكذب متطرِّقاً للخبر بطبيعته، وله أسباب تقتضيه (فمنها[2] التشيُّعات للآراء والمذاهب)[3]؛ فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبيَّن صِدْقَه من كذبه، وإذا خامرها تشيُّعٌ لرأيٍ أو نِحْلةٍ قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة ، وكان ذلك الميل والتشيُّع غطاءً على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص ؛ فتقع في قبول الكذب ونقله[4]..

== من مائه ؛ لتقوى ذاكرته ؛ فلم يحسن استعماله ؛ فجُنَّ ، وربط في البِيْمارستان .. وشكَّك الجهشياري هل هو شارب البلاذر أو جده جابر ، وهو من النقلة عن الفارسية إلى العربية .. انظر عنه معجم الأدباء ٢/٥٣٠-٥٣٥ ، وسير أعلام النبلاء ٣١/١٦٢-١٦٣ ، وفوات الوفيات ١/١٥٥-١٥٧ ، ولسان الميزان ١/٣٩٦-٤٩٦ ولم يذكر فيه جرحاً سوى إقذاعه في الهجر ، أو أنه جُنَّ ؛ لعله ذكره لذينك ، ولم ينكر على ياقوت قوله : «كان عالماً فاضلاً نسابةً متقناً».

(١) المنسوب إلى دعبل الخزاعي ، وهو من طراز كتاب التيجان ، ويأتي الحديث عنها إن شاء الله ، وهناك كتاب وصايا الملوك منسوب إلى الرشاء .. طبع في بغداد قديماً ، ولم أطلع عليه .

(٢) قال أبوعبدالرحمن : لم يرد خبر «ولما كان الكذب» ؛ وعلى هذا فالأصوب (ومنها) بالواو لا الفاء .

(٣) قال أبوعبدالرحمن : ليس هذا خبراً لقوله : «ولما كان الكذب» ؛ وإنما هو تعليل لحال النفس المعتدلة بتمحيص الخبر .

(٤) قال أبوعبدالرحمن : الهوى يُعمي ويُصِمُّ ، وهذه حال أهل التقليد في كل العلوم، والحَمِيَّة للاعتقاد المُسبَق .

ومن الأسباب المقتضية للكذب في الأخبار أيضاً الثقة بالناقلين[١]، وتمحيص ذلك يرجع إلى التعديل والتجريح.. ومنها الذهول عن المقاصد؛ فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع، وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه؛ فيقع في الكذب[٢].. ومنها توهُّم الصدق وهو كثير ، وإنما يجيء الأكثر من جهة الثقة بالناقلين[٣] .. ومنها الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع[٤]؛ لأجل ما يداخلها من التلبيس والتصنُّع؛ فينقلها المخبرُ كما رآها وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه[٥].. ومنها تقرُّب الناس في الأكثر لأصحاب التَّجِلَّة والمراتب بالثناء والمدح، وتحسين الأحوال، وإشاعة الذكر بذلك؛ فيستفيض الإخبار بها على غير حقيقة[٦]؛ فالنفوس مولعة بحبِّ الثناء، والناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها من جاهٍ أو ثروةٍ، وليسوا في الأكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها.. ومن الأسباب المقتضية له[٧] أيضاً (وهي سابقة على جميع ما تقدم) الجهل بطبائع الأحوال في العمران؛ فإن كل حادثٍ من الحوادث ذاتاً كان أو فعلاً[٨] لابد له من طبيعة تخصه

(١) قال أبوعبدالرحمن : يعني من غير تعديل ولا تجريح .

(٢) قال أبوعبدالرحمن : أما النقل ظناً وتخميناً فليس رواية صحيحة ، وأما روايته ما سمع على ما سمع فرواية صحيحة وإن غفل عن المقاصد ؛ فهو ناقل لا معلِّل ، ورُبَّ سامعٍ أفقه من حامل الخبر ، والتعليل بالمقاصد مسؤولية المتلقي ؛ فإن كان التعليل بالمقصد مسموعاً فقد قصَّر في الرواية إن كان سمع ذلك ، فيؤخذ ما رواه إن كان عدلاً ، ويُبْحثْ عن الباقي .

(٣) قال أبوعبدالرحمن : مر هذا الكلام ؛ فهو تكرار .

(٤) قال أبوعبدالرحمن : يريد الوقائع التي طُبِّق عليها منطوق الخبر عن أحوالها.

(٥) قال أبوعبدالرحمن: المخبِر أدَّى التاريخ كما رأى مع غفلته عن التدليس؛ فتبقى مسؤولية المتلقِّي.

(٦) قال أبوعبدالرحمن : هذا يحصل كثيراً ، ولكن ليس ما رُوي على هذه الأحوال يكون كذباً ، فالمرجع لتحرير الرواية والدراية .

(٧) قال أبوعبدالرحمن : أي للكذب .

(٨) قال أبوعبدالرحمن : حدوث الذات أيضاً فِعْلٌ ، ولكن نلتمس له التفريق بحدوث وَلَدٍ له ثلاث أيدٍ ؛ فهذا ذات .. وبملحمة حربية أكلت الرطب واليابس ؛ فهذا فعل .

في ذاته، وفيما يعرض له من أحواله؛ فإذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومُقتضياتها[1] أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب، وهذا أبلغ في التمحيص من كل وجه يعرض»[2].

قال أبو عبدالرحمن: يريد بطبيعة العمران التوافق مع الطبيعة، وله عن ذلك فصل مفرد في مقدمته، ومن نموذجه ما سيرد إن شاء الله من كلامه رداً على المسعودي، وقد أخذه ملخصاً عن ابن حزم ، ثم قال عن طبيعة العمران: «وأمثال ذلك كثيرة، وتمحيصه إنما هو بمعرفة طبائع العمران ، وهو أحسن الوجوه وأوثقها في تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها؛ وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة، ولا يُرجع إلى تعديل الرواة حتى يُعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع، وأما إذا كان مستحيلاً فلا فائدة للنظر في التعديل[3] .. ولقد عدَّ أهلُ النظر في المطاعن

(١) قال أبوعبدالرحمن : مثل إنكاره لعدد بني إسرائيل وخيولهم مع ضيق الرقعة ؛ فطبيعة الوجود لا تُعين إلا بما لديها ، ولا تُعطيك إلا ما فيها .

(٢) مقدمة ابن خلدون بتحقيق أبي عبدالله السعيد المندوه ١/٣٧-٣٨ - بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ومقدمة ابن خلدون بتحقيق عبدالسلام الشدادي/ خزانة ابن خلدون طبعتهم الأولى عام ٢٠٠٥م بالدار البيضاء ١/٥٢-٥٣ ، ومقدمة ابن خلدون / دار الكتب العلمية ببيروت ص٧٢ ، وتاريخ ابن خلدون ١/٣٧ / دار الكتب العلمية ، ولم يُخْدم تاريخ ابن خلدون بعد ، ولم يُحقَّق على نسخٍ كثيرة ؛ لكثرة الأخطاء والسقط والتصحيف والتحريف في النسخ الموجودة.

(٣) قال أبوعبدالرحمن: ما يتعلّق بالخبر الشرعي؛ فقد وعد الله بحفظ الشرع، ثم ضمن وعده الشرعي بقضائه الكوني؛ وذلك بالله ثم بجهود أئمة المسلمين في القرون الممدوحة؛ فلا يُصحِّحون خبراً يعارض الحقائق، والعبرة بتصحيح النُّقَّاد.. ثم الإحالة قد لا تكون من إجماع العقل البشري المشترك، بل من وَهْمِ المتلَقِّي.. وأما خبر الشرع الصحيح دلالة وثبوتاً فلا إحالة فيه؛ لأن الغيب علْمُ وجودٍ بالوصف من معصوم، أو بالآثار المشهودة، أو بهما معاً.. وليس علمنا بالمغيَّب علم كمٍّ وتكييف .. والنَّقْل الشرعي خاصة ارتبط بمعايير علماء المسلمين في نقد المتن ، وتوجيه النصوص ، والجمع بينها .

في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله بما لا يقبله العقل[١]، وإنما كان التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الأخبار الشرعية؛ لأن معظمها تكاليف إنشائية أوجب الشارع[٢] العمل بها حتى حصل الظن[٣] بصدقها .. وسبيلُ صحةِ الظن الثقةُ بالرواة بالعدالة والضبط[٤].. وأما الأخبار عن الواقعات فلابد في صدقها وصحتها من

(١) انظر : التعليقة رقم (٦) ص٦ .. وشرط صحة التأويل - بمعنى صرف الخبر عن ظاهره، لا مجرد التفسير - وجود برهان التصحيح في الأمر المُؤَّل إليه النص ، ورُجحان إرادته بدليل ، فإن كان الظاهر غير معقول ولا دليل للرجحان على تأويل معيَّن ؛ فيكفي احتمالُ كل تأويل صحيحٍ بلا جزمٍ بتأويلٍ متعيِّن .

(٢) قال أبوعبدالرحمن : الأفضل : الله ، أو منزِّل الشرع .

(٣) قال أبوعبدالرحمن : يرد الظن بمعنى اليقين تجوُّزاً، والمراد هنا الاصطلاح على الحقيقة لا المجاز؛ فيكون الظنُّ حينئذٍ الاعتقاد بمرجِّح غير راجح ؛ لغياب الرجحان عن الظانِّ .. أما الشرع فَيُفَرِّق بين الخطاب الشرعي وسلوكنا، فلا نأخذ بالخطاب منسوباً إلى الشرع إلا بيقين و رُجحان يوجبان العمل والعلم .. إلا أن اليقين موجب العلم اعتقاداً دون احتمالٍ لمعارضٍ مُعتَبَرٍ، ونردُّ المرجوح ، ونتوقَّف عند المحتمل مستوى الطرفين .. وأما السلوك فمنه ما تَعَبَّدنا الله به على اليقين كالشهادة ، ومنه ما تعبَّدنا الله به على الرجحان كمعرفة الرجل العَدْل ، ومنه ما تعبدنا الله به على الظن بعد العلم بما نقدر على علمه من علامات كجهة القِبْلة .. وسلوكنا في حكم الشرع حقٌّ صحيحٌ، والأجرُ فيه كاملٌ.. وأما الاجتهاد الذي يكون فيه للمخطئ أجر ومعذرة فهو فهم مراد الخطاب بعد بذل الوسع وتحرِّي مراد الله بنزاهة وتجرُّد؛ فلا صحة إذن لكلام ابن خلدون المطلق بأن الله أوجب علينا قبول ما نُسب إلى الشرع ظناً .

(٤) قال أبوعبدالرحمن : هذه هي المقتَضيات ، ولابد من تخلُّف الموانع ؛ فإذا تمَّ ذلك حصل اليقين أو الرجحان لا الظن .. والرجحان عندما يكون المعارِض مرجوحاً .. ولا معنى لِقَصْرِ ابن خلدون لتكاليف الشريعة على الإنشائيات ، فالشرع خبر وإنشاء .. ويعتذر له ويُناقش بالتعليقتين (٤) و(٥) ص٩ .. وابن خلدون رحمه الله تطرَّق لمعارف الدنيا في مقدمته ، ومن المحال أن يكون عالماً محقِّقاً ذا اختصاص بكل فنٍّ أدلى عنه بكلمات .

اعتبار وقوعه[1]، وصار فيها ذلك[2] أهمَّ من التعديل ومقدماً عليه: إذ فائدة الإنشاء[3] مقتبسة منه[4] فقط . وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة[5]: وإذا كان ذلك [كذلك] فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة: أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ، ونميِّز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه ، وما يكون عارضاً لا يُعتدُّ به ، وما لا يمكن أن يعرض له[6] .. وإذا

(١) قال أبوعبدالرحمن : التفتَ ابنُ خلدون إلى المفرد : فمعنى كلامه : وقوع الخبر .. ومراده ما أسلفه من كون الواقع لا يحيلها ، وهذا عام لكل خبر شرعي أو غير شرعي ، وقد أسلفتُ ضمانة الله بأن لا يخالف الخبرُ الشرعي الصحيحُ حقيقةً ما ، وبيَّنتُ كيفية العلم بالغيب .

(٢) قال أبوعبدالرحمن : يعني ابن خلدون الاعتداد بالوقوع الذي هو عدم إحالة الواقع للخبر .

(٣) قال أبوعبدالرحمن : يعني بالإنشاء قضاء الله بخطابه الشرعي الذي يؤخذ منه الخبر والأمر والنهي .

(٤) قال أبوعبدالرحمن : يعني الخبر الشرعي ، وليس هذا بصحيح على إطلاقه ، بل المراد الخبر الشرعي الصحيح ثبوتاً ودلالة بيقين أو رجحان .

(٥) قال أبوعبدالرحمن : ليس كل خبر شرعي يُستفاد من الخارج ؛ لأنه خبر علاَّم الغيوب .. ثم إن الخطاب الشرعي خبر ، وهذا هو المهم ، وأما كون مدلوله خبراً إنشاء من جهة المقصود به فذلك تحرير لدلالة الخطاب ، وليس تحقيقاً لثبوته .. ومعنى كلام ابن خلدون أن فائدة الخبر من صيغته ومن مطابقته للواقع ، ولم يأتِ بفارقٍ معتَبَر ؛ لأن الخطاب الشرعي خبر سواء أكان مدلوله إنشاء أم خبراً ؛ فقول الله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ [سورة البقرة /٤٣] خطاب منه سبحانه إنشائي يخبرنا سبحانه وتعالى بالأمر بإقامة الصلاة ، وذلك الخطاب مطلوب تحقيق ثبوته ، وهو ثابت بتواتر القرآن ، فالخطاب وارد عن الشرع؛ فهذه معنى كونه إنشاء بغير المعنى النحوي الاصطلاحي ؛ وإنما هو بمعنى الإيجاد - وهو معنى لغوي - ، والمراد منه الإنشاء أيضاً بالمعنى النحوي. وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة النساء/١٧٦] إنشاء خطاب المراد منه الخبر .

(٦) قال أبوعبدالرحمن : يعني ما كان محالاً كما في التعليقة (٣) ص٧ ، وما كان عادياً لا يهمُّ المؤرخ كنقص شهر أو تمامه إلا إن ترتَّب على ذلك تحقيق حادثة أخرى ، كما سيأتي تحقيقه بعد قليل إن شاء الله .

فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الأخبار ، والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه ؛ وحينئذٍ فإذا سمعنا عن شيئ من الأحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه ، وكان ذلك لنا معياراً صحيحاً يتحرَّى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه»[1].

قال أبوعبدالرحمن : توثيق النَّقَلة شرط في الشرعيات وغيرها ، والمحال أيضاً مردود في الشرعيات وغيرها ؛ فلا معنى لهذا التفريق عند ابن خلدون رحمه الله .. وكم من صدوق عدل يُحمل قوله على أسباب من العذر كالنسيان والخلط والغلط والوهم وإدخال بعض الكذَبَة في كتبه ما ليس فيها ؛ وذلك إذا كان المتن منتقداً بمحال أو مرجوحية .. وأخبار الشريعة الصحيحة عن العدول في الغيبيات كان الاعتماد فيها على العدالة ، واتصال السند بالعدول عن معصوم ، وامتناع المعارِض المباين .. ولا إحالة في غيبٍ لا يُعرف كُنْهه ومقداره، وإنما يُعلم بالوصف الشرعي على مراد الله .

والإمام محمد بن جرير الطبري رحمه الله ذو معارف متعدِّدة ، وإمامته في الدين لا تُنكر ، وتاريخه أوسع ما وصل إلينا مادةً ، ولكنه رحمه الله على الرغم من هذه الإمامة تخلَّى عن مسؤولية المؤرِّخ بمقولة (العُهْدة على الناقل).. قال رحمه الله: «وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه - مما شرطت أني راسمه فيه - إنما هو على ما رَويتُ من الأخبار التي أنا ذاكرها فيها ، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه دون ما أُدرك بحجج العقول ، واستنبط بفكر النفوس .. إلا اليسير القليل منه ؛ إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين ، وما هو

(١) مقدمة ابن خلدون ١/٣٩-٤٠ بتحقيق المندوه ، و١/٥٥-٥٦ بتحقيق الشدادي، وص٢٨-٢٩ دار الكتب العلمية ، وتاريخ ابن خلدون ١/٣٨-٣٩ دار الكتب العلمية.

كائن من أنباء الحادثين غير واصل إلى من لم يشهدهم ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين ، ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول ، والاستنباط بفكر النفوس[1] ؛ فما يكن[2] في كتابنا[3] هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين (مما يستنكره قارئه ، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ، ولا معنى في الحقيقة) : فليعلم أنه لم يُؤتَ في ذلك من قِبلنا ، وإنما أُتِيَ من قِبَل بعض ناقليه إلينا ، وأنَّا إنما أدَّينا ذلك على نحو ما أُدِّيَ إلينا»[4].

قال أبوعبدالرحمن : المسؤولية التاريخية هي ما تخلَّى عنه ابن جرير رحمه الله من حُجج العقول ، والاستنباط بفكر النفوس .. ولا ريب أن إخبار الناقلين هو سبيل العلم بالتاريخ غير المشاهدة آثاره، ولكن لذلك الإخبار مسؤوليتُه روايةً ودراية.. وكان عليه رحمه الله أن يُبيِّن أحوال الرواة ، ومصادره ، ويقوِّمها دون أن يُعْنت القارئ ، ويَخرجَ هو من المسؤولية بعهدة الناقل ، وذلك كأخباره غير المرفوعة ، وأسانيده المتنوعة عن ابن عباس رضي الله عنهما حول تاريخ إبليس لعنه الله وقصة ملكه ـ وذلك على سبيل المثال فقط ـ ؛ فإنه لما أطال نقل ما لا يُعقل اعتذر في النهاية بقوله : «وجائز أن يكون كان لغير ذلك من الأمور ، ولا يدرك علم ذلك إلا بخبر تقوم به الحجة ، ولا خبر في ذلك عندنا كذلك ، والاختلاف في أمره على ما حكينا وروينا»[5].

(١) قال أبوعبدالرحمن : هذا غير صحيح بإطلاقه .

(٢) هكذا في الأصل المطبوع ، والصواب (يكون) ؛ لأن (ما) للوصل ، وليست الجملة شرطية ؛ لأنه لم يأتِ الجزاء .

(٣) في تحقيق أبوالفضل : كتابي .

(٤) تاريخ الأمم والملوك ١١/١ تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ٧/١-٨ .

(٥) تاريخ الأمم والملوك ٨٤/١ تحقيق أبو الفضل ٨٨/١ .

وأعني بالعقل التاريخي الأفكار التاريخية التي هي موضوع للنقد والتقويم .. وهي أفكار تتعلق بوقوع الحدث ، ودلالته وتعليله ، وتكوين رؤية تاريخية مستقبلة ستقع ، أو رؤية تاريخية واقعية عن عصر أو مصر أو أمة أو دولة .

والمتعاملون مع المادة التاريخية : إما مؤرخ ، وإما قارئ فحسب ، وإما قارئ يريد أن يكون كاتباً للتاريخ برؤيته التي كوَّنها من قراءته .. ورسالة الثلاثي المتعامِل مع المادة التاريخية هي الكشف عن الواقعة كما وقعت ، والاحتفاظ بدلالتها بلا إسقاط أو تعطيل أو تضليل أو إضافة ، وتعليلها بما ينطبق عليها .. وهذا لا يكون إلا بالتجرُّد والحياد إلا من البرهان العلمي ؛ فالتحرر من البرهان العلمي سلوك غير مسؤول ؛ فإذا ثبت لديَّ بالبرهان العلمي أن جيل رسول الله ﷺ، وجيل أتباعهم رضي الله عنهم هم خير هذه الأمة ، وهم المؤسِّسون لتركتنا العربية والإسلامية رقعةً وعلماً ، وهم نقلة ديننا وحفظته ، وأن القرآن الكريم مدحهم وزكاهم .. وثبت بالبرهان العلمي أن ذلك الفرد المنتمي إليهم لم يكن مرتداً ، ولا متستِّراً بالإسلام ووراءه دخول ملِّيَّة أو نحلِيَّة أو طائفية : فلا يحق لي بالبرهان العلمي نفسه أن أتعامل مع سيرتهم كما أتعامل مع سيرة من لا يسمق إلى ذروتهم في الأجيال اللاحقة، وأن لا أسقط قدسيتهم - وإن ثبت بالبرهان العلمي خطأ اجتهاد بعضهم ، أو أن سلوكه صدر عن ضعف بشري - وأنا أملك الموازنة بين خيرهم المشهور وخطإ اجتهاد أحدهم أو ضعفه البشري ، وذانك مغموران بخيريَّتهم العميمة .. ولا أنسى الموازنة الشرعية ؛ فالله الذي رضي عنهم واختارهم في قرآنه الكريم : عاتبهم في بعض المواقف ، وغفر لهم ؛ وحينئذ لا يكون ذو البرهان ضحيةً لعدوِّنا في الملة أو النحلة وهو لا يملك غير التضليل ولدينا البرهان العلمي أوثق مُستمسَك ، ورضوان الله سبحانه وتعالى في القرآن خَبَرٌ ، و الأخبار لا نَسْخَ فيها .

وكاتب التاريخ الذي لقي ربه انتهت رسالته : فتبقى مسؤولية قارئ التاريخ في تكوين أهليَّة المؤرِّخ : ليكون أهلاً لقراءة التاريخ .. ومن عناصر تلك الأهلية الاستيعاب حسب الوسع للنقل التاريخي من كل ذوي المشارب والمذاهب .. وتزيد رسالة كاتب التاريخ - عن رؤيته التي كوَّنها من قراءته للتاريخ - بأن يبتعد عن التراكم التاريخي ، بل يكون ذا إضافة صحيحة .. تكون الإضافة علمية بإحضار حصيلة علمية مفيدة تاريخياً لم تكن في السياق التاريخي الموجود في أمهات كتب التاريخ ، وقد تكون إضافةً فكرية صدرت عن فطنة جديدة وخلَّصتنا من غفلة قديمة ، وقد تكون الإضافة الفكرية بأن يكون المؤرِّخ مكتشفاً كفعل الدكتور العشِّ (وهو عمل مشكور) ؛ إذْ تَتَبَّع الخيوط الدفينة وهو يتكلم عما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم ، ثم ما جرى على عثمان رضي الله عنه[1] ؛ فظهر له من عناء المثابرة على البحث والرَّصْد عمل ظلاميٌّ سيَّر الأحداث على خلاف الإرادة الخيِّرة لأطراف النزاع .. وكأنه يقول لذوي التضليل : أنكروا ما شئتم مما هو مكابرة تاريخية كابن سبإٍ الذي جعلتموه أسطورة ؛ فهاهي أحداث تجري بتحريك عمل سري ؛ فبينوا لنا هُوِيَّة أصحاب هذا العمل السِّري ما دمتم تكابرون وقائع تاريخية من أمثال عمل ابن سبإٍ اليهودي الذي اجتزأ من أمتنا شيعاً وفرقاً !! .

وبالبرهان العلمي ، وبالحياد نرى أن لنا إرثاً من تاريخ المسلمين وسلوكهم وفكرهم وآدابهم يتَّصف بالبشرية لا بالشرعيَّة ؛ فليس هو من الثوابت المعصومة ، بل منه ما يُصفَّى ويُهذَّب ، ومنه ما يُصْطفى ، ومنه ما يُرَدُّ ؛ وذلك وفق ما أنعم الله به على البشرية من عقل إنساني مشترك ، وعلم يستجدُّ ؛ فالعلم الحديث ببراهينه قد ينفي بعض أقوال الجاحظ في كتاب الحيوان ، والدين وبراهينه العلمية قد ينفي

(١) انظر : كتاب الدولة الأموية للدكتور يوسف العش ص٦٤-٨٠.

ما ينتسب إلى العلم الحديث كبدائية البشر أو نشأتهم والنظرية القِرديَّة ، وما يُدَّعى من بلايين السنين لنشأة البشر ، ولعمر بعض المتحجِّرات .

وَجِماعُ مادة التاريخ هو التسلسل الزمني للأحداث على الأرض ، وما يؤثِّر فيها .. ويشمل ذلك الأحداث الكونية التي لا يد للإنسان فيها ، والأحداث التي جعلها الله بواسطة الإنسان .. والتاريخ إنما هو تسجيلها كما وقعت ، وتفسيرها ، والتعليل لها ، وتصنيف المواقف والوقائع ، واستنباط الحقائق والقيم منها .. ونحن ندرس التاريخ بعامل الشوق وحب الاستطلاع ، وبدافع الضرورة ؛ لأنه رافد لكل ذي علم من حقول المعارف البشرية ، ولأنه مرجعٌ لتقويم الحاضر والناظر .. وندرسه محايدين في تمحيص وقائعه توثيقاً للثبوت أو النفي ، وندرسه غير محايدين في تعليله واستنباط قيمه ، بل نكون مشدودين بديننا الذي يعني الإيمان بصدق وعد الله وخبره ، وأن ما يجري في التاريخ خَلْقُ الله وملكه ، وأن صلاح التاريخ مرهون باستقامة سلوكنا ؛ لأننا مستخلفون في الأرض ، وأن الفساد يظهر في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، وأن الساعة وفساد الكون جملة لا يكون إلا بعد نزع الخير كله من جنس الإنسان ، وغَلَبةِ المسخ عقيدة وقولاً وسلوكاً ، وذلك نموذج للتمسُّك بالبرهان العلمي .. وندرسه بروح المحايَدة حقيقة إذا أخذنا كل وجهات النظر ، وأقوال وأحداث أطراف النزاع ، وفسرناها وحكمنا فيها بالعدل .

وفكرة إعادة تدوين التاريخ تعني فكرة إعادة قراءته من كل المراجع المتضاربة ؛ لنبحث عن حقيقة غائبة لا يتم التصور بدونها ، ولنمحِّص نقلاً مستفيضاً قد يُمرِّضه دقة النظر ، ويُنْحِله كثرة الحكِّ .. هذا هو المعنى لكيفية دراسة التاريخ وإعادة تدوينه ، ودور التاريخ قائم أبداً في كل لحظة ، وإنما نطلب دوره إذا احتجنا لشاهد حقائقه في ثلاثة ميادين:

أولها : إذا أردنا أن نسلك في حاضرنا سلوكاً تاريخياً في مواقف يكون فيها التاريخ حجةً وأسوة كاستحياء سير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين والمُرَبِّين .

وثانيها : إذا أردنا أخذ حكم الحاضر من الغابر عند اتحاد ظروف وأحوال الوقائع.

وثالثها : إذا أردنا أحكام السنة الكونية : لنسْبِرَ بها توقُّعنا للناظر .

وقبل التاريخ المدوَّن منذ خمسة آلاف سنة فاتنا كثير إلا ما صح به خبر شرعي معصوم، أو شاهد حسي منظور يعطي دلالةً على شيءٍ ما يقينيَّة أو رُجحانية، (ودعك من الميتافيزيقيات التاريخية التي فاتت التجربة)، وفاتنا كثير من وقائع الأمم البدائية البدوية التي كان التدوين فيها نزْراً.. وأما الأمم الحضارية ذات التاريخ المدوَّن كعصور التاريخ الإسلامي الجهورية فيفوت منها وقائع جزئية ، ولكن الاهتمام الجماعي بما يقبل الحصر يدلُّ على أن جمهرة التاريخ محفوظة وإن كانت مفرَّقة في كتب مختلفة التخصُّص، متدافعة بين أهل المذاهب والأهواء ، غير مستعصية على التحقيق عند ذوي الأهلية .. وأهم شيئ يجب العلمُ بأنك لن تعرفه في التاريخ هو العلم بأن الحقائق ليست جاهزة في مرجع واحد، أو عند أهل مذهب واحد .. بل حقيقة التاريخ موجودة لكنها موزَّعة تُجمَّع بالمناقيش من بين المذاهب والأهواء[1]؛

(١) قال أبو عبد الرحمن : الشولة المنقوطُ أسفلها (؛) تدل على التعليل والتفسير والتفريع، وليس من الشرط وجود أداة تعليل ، بل يكفي أن يكون سياق الجملة للتعليل .. وكنت كتبتُ في المسودة «حيث يوجد» حسبما جرى عليه المعاصرون من التعليل بها ، ثم عدلتُ عن ذلك ؛ لأن (حيث) ليست للتعليل عندهم ، كما أن تقدير الجملة لا يُفهم منه تعليل لما قبلها .. والواقع أن (حيث) تطوَّر معناها من اسم المكان ؛ فأضافوا إلى معناها بالمجاز وقائع الأمور المفصَّلة ؛ فقالوا : (علِّمني بحيثيات الأمر).. أي مثلاً أخبرني حيث قام زيد ، وحيث قعد ، وحيث فعل .. إلخ ؛ فالحيثيات تكون بعد ذلك تعليلاً لشيء مجمل من حال زيد ؛ فتولَّدت علامة التعليل من هذا المجاز .. وتأتي العلامة (؛) أيضاً للتفريع ؛ لأنه تفسير يعني الأسباب والعلل .

لأنه يوجد مؤرخون يحلو لهم الافتيات على التاريخ وتزييف حقائقه وأحداثه بانتقائية دون وعي بعلمية الإنتاج التاريخي، والمزيِّف يملك بحريته غير الخلقية تسويد الورق ، ولا يملك عقول البشر الذين سيقرأون؛ لأن التاريخ فنٌّ له علومه وأصوله ومنطقه المأخوذة من فطرة العقل ، ومن الحسِّ ودلالة اللغة .. ولقد بالغ من جعل التاريخ أقرب إلى الفن الجمالي بإطلاق؛ فأرسطو مثلاً يربط المعرفة التاريخية بمظاهر الذاكرة ، ويرى أن التعرُّف التاريخي يُخلي مكانه للشعر ؛ فهو أقرب إليه منه إلى العلم .. وفرانسيس بيكون (الذي يخالف أرسطو) يجعل التعرُّف التاريخي خارج العلم وتفسيره؛ على أنه نوع من الفن ونظام سياسي أخلاقي مساعد لا يثير أي اعتراضات.. وقد ظل هذا التفسير سارياً مدة طويلة من الزمن.. قال راكيتوف : في القرن التاسع عشر فقط حُقِّقت مسألة إمكانية العلم التاريخي ، وظهرت حلول جديدة[١] .

قال أبوعبدالرحمن : التاريخ وقائع منها السياسي والحضاري والعلمي والأدبي ؛ فهو موضوع لكل المعارف البشرية .. وبعد ذلك فالتاريخ ذوأصول ومنطق؛ فهو حقل علمي قائم بذاته .. والزَّعمُ بأن التاريخ أقرب إلى الشعر بمقابل العلم إنما يصح عندما يكون همُّ المؤرِّخ والقارئ المسامرةَ بكل نادرة بدون اعتناء بالنقد والتحليل والتفسير والاستنباط والتأصيل .. على أن ديكارت يرى في كثرة القراءة للتاريخ غربة عن العصر .. قال : « .أحسبني أنفقت وقتاً كافياً في دراسة اللغات ، بل وفي قراءات الكتب القديمة وما فيها من تواريخ وأساطير ؛ لأن الحديث مع أبناء القرون الخوالي أشبه بالأسفار ؛ فمن الخير أن نعرف شيئاً عن أخلاق مختلف الشعوب ؛ حتى نكون أسدَّ رأياً في الحكم على الشعب الذي ننتمي إليه، ولئلا نظن أن ما يخالف أحوالنا مدعاةٌ للاستهزاء ومنافٍ للعقل كدأب أولئك الذين لم يروا شيئاً ..

(١) المعرفة التاريخية ص١١٠ لأناتولي راكيتوف ، وهو كاتب ماركسي .

لكن من ينفق وقتاً مُفرطاً في الأسفار ينتهِ بأن يصبح غريباً في وطنه ، ومن يبالغ في استقصاء أمور العصور الماضية يظل عادةً شديدَ الجهل بأمور عصره»[1].

قال أبوعبدالرحمن: المفرط في قراءة الأسفار أدَّى وظيفة المؤرِّخ لما مضى ، والمستغرق في عصره أدَّى مهمة الشهادة على عصره ، والمؤرِّخ المستولي على الأمد من جمع بين الأمرين : لأنه أَبْرَز العلاقات والفوارق بين الأعصار والأمصار ؛ ليحقق مطلب العبرة بالتاريخ .

ومن الإسقاط التاريخي ما جاء في تقسيم أوغسطين[2] ؛ فقد قسَّم التاريخ إلى ستة أدوار : من آدم حتى الطوفان ، ومن الطوفان حتى إبراهيم ، ومن إبراهيم حتى داوود ، ومن داوود حتى السبي البابلي ، ومن السبي البابلي حتى ولادة المسيح [عليهم الصلاة والسلام] ، ومن المسيح حتى يوم القيامة[3] .

قال أبوعبدالرحمن: هذه هي والله المكابرة الممجوجة التي تُسقط عصور الإسلام، وهو الدين الذي جدَّد ما اندرس من الأديان المحرَّفة المبدَّلة، وأظهر العقيدة الصحيحة ، وسنَّ الشريعة الجديدة الخالدة المهيمنة الناسخة المرفوع عنها الحرج، ومن بركته كثرة الأجر مع قصر العمر .. وأوغسطين لا يُدْرِج عصور الإسلام في دور ما بين المسيح عليه السلام إلى يوم القيامة ؛ لأنها غير داخلة في مُسَلَّماتهم لا

(١) النقد التاريخي ص٢٩٩ .

(٢) هو القديس أوراليوس أوغوسطينوس [٣٥٤-٤٣٠م] أسقف مدينة هيبو شمال إفريقيا ، ولعل مذهبه هذا من كتابه (مدينة الله) الموصوف بأنه طَوَّر المفهوم المسيحي لتاريخ العالم ، وأنه مُقَدَّرٌ مسبقاً من الله سبحانه وتعالى .. انظر عنه الموسوعة الفلسفية المختصرة ص٨٨-٩٢ ، ومعجم الفلاسفة لجورج طرابيشي ص١١٧-١٢٢ ، والموسوعة الفلسفية بإشراف م. روزنتال و ب. يودين ص٦٧ .. وهو غير معذور في ذلك وإن لم يدرك محمداً ﷺ؛ لأنه يوجد في عصره نسخ الإنجيل التي ذكرت نبي آخر الزمان باسمه ووصفه وتسمية بلاده.

(٣) المعرفة التاريخية ص١٣٦ .

تصوُّراً ولا تشريعاً ، وإنما هو إسقاط متعمَّد لوجودٍ تاريخي راهن فعَّال على الرغم منه .. وأوغسطين، والمتأخرون بعده من أمثال توما الأكويني استفادوا كثيراً من منطق ذلك التاريخ من مدرسة ابن رشد وما صاحبها من فيوض حضارية إسلامية وعربية في عصورهم الظلامية .

ويقرب من الإسقاط تحجيم التاريخ بالتجربة إذا فسَّرنا كلام أوسينوبوس الآتي[١] بأنه يريد كل وقائع التاريخ ، ولا يريد بعض وقائعه التي لا تُعرف إلا بالتجربة .. قال : «إن الوقائع لا يمكن معرفتها تجريبياً إلا بطريقتين : إما مباشرة إذا لوحظت وهي تحدث ، أو بطريقة غير مباشرة بدراسة الآثار التي تركتها ؛ فلنفرض حادثاً وليكن زلزالاً مثلاً ؛ فإني أعرفه مباشرة إذا أنا حضرت هذه الظاهرة ، وأعرفه بطريقة غير مباشرة إذا كنت لم أحضره ولكنني عاينت آثاره المادية (شقوق ، جدران متداعية) [الصواب : شقوقاً ، وجدراناً متداعية .. إلخ] ، أو إذا قرأت وصفاً مكتوباً عنه بعد أن امَّحت آثاره .. كتبه شخص شاهد بنفسه هذه الظاهرة ، أو شاهَدَ آثارها .. والخاصية المميِّزة للوقائع التاريخية هي أنها لا تُدرك مباشرة بل وَفْقاً لآثارها ؛ ولهذا فإن المعرفة التاريخية هي بطبيعتها معرفة غير مباشرة ؛ ولهذا السبب ينبغي أن يختلف منهج علم التاريخ اختلافاً أساسياً عن منهج العلوم المباشرة[٢] .

قال أبوعبدالرحمن : إنما يصدق هذا على نوع من وقائع التاريخ ، وأكثر وقائعه كان بالنقل ، وليس له آثار مشهورة ، ويُمَحَّصُ بما أسلفته وبما سيأتي من عناصر المسؤولية التاريخية .

والمسؤولية الفكرية علاقة بين المعرفة التاريخية المفتَرَض أن تكون علمية وبين

(١) قال أبوعبدالرحمن : الآتي هنا أدلُّ من (التالي)؛ لأنها وَعْدٌ بكلام لم يأتِ مباشرة .

(٢) المدخل إلى الدراسات التاريخية لأنجلو أوسينوبوس (ضمن كتاب النقد التاريخي ص٤٣) .

العقل الإنساني المشترك ببديهياته[1] الفطرية والمكتسبة ، وذلك هو العمل الفكري للمتعامِل مع التاريخ : إذن لكي نعرف عظَم المسؤولية الفكرية ، ومدى اتِّساعها : لابد من الوعي بالماهية التاريخية ، وطبيعةِ من يتعامل معها .. فأما ماهية التاريخ فهي ما حدث ، أو قيل : إنه حدث .. والحدثُ إما كونيٌّ لا يَدَ للإنسان فيه ، وإما شيئ أحدثه الإنسان مما جعل الله للإنسان القدرة على إحداثه .. ويتَّصف الحدث بأنه تاريخي بمفهومين :

أولهما : أن يتعلق به اهتمام جمهور من الناس : إما لأنه يَعْنيهم ، وإما لأنه يُثير الشوق إلى المعرفة وحبِّ الاستطلاع .. وأمثلة ذينك حَدَثٌ يتعلق بقبيلة، أو أمة ، أو وطن .. أو يكون عظيماً ، أو خطيراً ، أو مستظرفاً ، أو مستغرباً ؛ فتاريخ وفاة رجل عادي خامل في الدنيا - وقد يكون عند الله في الآخرة وجيهاً - أمر قد يهمُّ أسرته ، ولا يهتم به المؤرخ إلا أن يتوقَّف عليه معرفة أمر تاريخي كأن يكون فيما بعد أباً لقبيلة ، أو جداً لأسرة علَمٍ أو أسرة حاكمة ، أو يكون في منظومة اهتمام جماعي

(١) بديهياته جمع (بديهية) ، ويرى بعضُ المعاصرين أن الصواب بدهياته ؛ لأن النحو قرَّر أن فعيلة تُنسب على فَعلي بحذف ياء فعيلة إذا كانت عين الكلمة غير مضعَّفة ، وكانت اللام صحيحة غير معتلة .. واشترطوا لحذف الياء أمن اللبس بأن يكون العَلَم الآدمي أو المكاني - كما قال ابن قتيبة في أدب الكاتب ص٢٨٠-٢٨١/ الرسالة طبعتهم الثانية عام ١٤١٧هـ - مشهوراً ، وكان الغرض التخفيف على اللسان ؛ لأمن اللبس ؛ فإن لم يؤمن اللبس فرَّقوا ؛ فيقولون في النسبة إلى المدينة المنورة مدني ، وإلى مدينة أبي جعفر المنصور مديني .
قال أبوعبدالرحمن: الأصل نسبة فعيلة إلى فعيلي بلا تغيير، وهذا هو الثابت بالاستقراء الكثير من لغة العرب، ويجوز استحساناً النسبة إلى فعلي إذا لم يؤمن اللبس مثل مديني ومدني .. ويلاحظ أن النحاة لاحظوا اللبس الحاصل ، ولم ينظروا إلى بديهي على الأصل، فإن استجدت مثلاً قبيلة تنسب إلى (بديهة) أُجريت على الاستثناء بدهي ، ولا يقال الآن : بديهة على بدهي تحقيقاً ؛ لأمن اللبس ؛ لأن اللبس غير مأمون مستقبلاً ؛ فنجري على الأصل .

كمن يتعنَّى لتاريخ ولادات ووفيات أفراد قريته أو قبيلته (عاديِّهم ، ومشهورهم) .. ومثل ذلك حدث الطوفان الذي أثار اهتمام المؤرخين لتحقيق مكانه ، وقصة أهل الكهف في القرآن الكريم ذات غرابة وطرافة أثارت فضول كثير من مفسِّرين ومؤرِّخين ؛ لمعرفة التفاصيل زماناً ومكاناً ومن أيُ أمَّةٍ هم ؟.

وثانيهما : أن يكون غير عادي الوقوع ؛ فطلوع الشمس من مشرقها كل يوم ، واكتمال القمر ليلة النصف من الشهر ، وهطول المطر في موسمه من العام ببلدٍ ما : أمور لا يحفل بها التاريخ .. ولكن لو وَرَدَ في سياق تاريخي لقصةٍ ما أن ذلك اليوم من ذلك الشهر من ذلك العام كان صحواً، وكان قيظاً في بلد كنجد: فإن المؤرخ يفرح بهذا الحدث العادي؛ ليصحح حدثاً ذا أهمية جاء فيه أن ذلك اليوم باردٌ غزيرُ المطر، أو أن حدثاً في ذلك التاريخ وُصِف يومُه بالصحو والقيظ؛ فيكون الوصف تقوية للخبر .. أما ما كان غير عادي مما يهمُّ المؤرِّخ فمثل كسوف الشمس ، ومطر مغرقٍ مدمِّر .. وأما طبيعة من يتعامل مع الحدث التاريخي فهي موزَّعة بين كاتب التاريخ ، وقارئه ، ومن يريد إعادة كتابته ؛ فكاتب التاريخ الذي لقي ربه لا مجال لتحميله مسؤولية الفكر في الزمان المستأنَف.. وقارئ التاريخ قد يكون قارئاً للتشوُّق والمسامرة غير مهتمٍّ بالتحقيق ؛ فهذا حكمه حكم من يُنادم رفاقه بالمستظرف أو محاضرات الأدباء ؛ فتحصل منه المتعة جمالياً، ولا يُنتظر منه مسؤولية فكرية.. وقد يكون قارئ التاريخ أراد الالتقاط للفوائد، والإفادة من قراءته التاريخية لخدمة بعض تخصُّصاته العلمية؛ فهذا تلزمه كل المسؤوليات الفكرية.. وأما قارئ التاريخ ليستأنف كتابته حسب رؤيته التي كوَّنها من قراءاته فكبرى مسؤولياته المحايَدةُ إلا من البرهان العلمي، واستيعاب القراءة من كل مذهب ومشرَب، والبعد عن التراكم التاريخي؛ فلا يُكرِّر النقل ، بل لا بد أن يكون عمله إضافةً فكرية أو علمية ليست في سياق أمهات

كتب التاريخ .. وأما المسؤولية الفكرية والعلمية المشتركة فأهمها : مَحْوُ الأميّة التاريخية ، وهي أكثر ما تظهر لدى قارئٍ يريد المسامرة بقراءته : ذلك أن التاريخ قراءةً سهْلُ الاستيعاب ليس فيه عُضَلٌ فكرية ، ويجد فيه قارؤه لذَّة : فهو علم شعبي مُشْترك : لما فيه من قيمٍ جمالية كالإغراب والتنوُّع والطرافة والمفاجأة : ولهذا فهو وشيج الصلة بفنون جمالية نصِّيَّة كالرواية والقصة والمسرحية والمسامرات الأدبية : فترتَّب على سهولة هضم التاريخ ومتعته وجودُ قُرَّاءٍ شَعْبيِّيْ التفكير ليست عندهم أصولٌ فكرية ، ومعارفُ متواشجة : فانتشرت الأغلوطة التاريخية بمسامرة قُرَّاءٍ من العوامِّ وأشباههم من أنصاف أو أعشار المثقَّفين .. وكلُّ مُسْتَغْرَبٍ يَشيع تصديقه في أوساط رجال العلم وإن كان كذباً : فما بالك بالعوامِّ وأشباههم ، ولذلك نماذج كثيرة أذكر منها قصة رتن الهندي الدَّجال[1] الذي وُجد بعد القرن السادس الهجري : فادَّعى أنه من أصحاب رسول الله ﷺ ، وأنه مُعَمَّرٌ ، وروى أحاديث موضوعة كقوله: «كنت في زفاف فاطمة [بنت رسول الله ﷺ ، ورضي الله عنها] على عليٍّ رضي الله عنه في جماعة من الصحابة [رضي الله عنهم] ، وكان ثمَّ مَنْ يُغَنِّي : فطابت قلوبنا ، ورقصنا : فلما كان الغد سألَنا رسولُ الله ﷺ عن ليلتنا: فأخبرناه : فلم يُنكر علينا ، ودعا لنا ، وقال: اخشوشنوا ، وامشوا حفاةً : تروا الله جهرة !!»[2] : فكان كذَّاباً أصلاً ، ثم انبرى آخرون من الكذابين يُضيفون إليه أكاذيب أخرى .. ومع هذا وُجِد علماءُ أفاضل في القرن السابع وما بعده يروون في فهارسهم أحاديث عن رسول الله ﷺ بالإسناد عن طريق رتن ، ويفخرون بأنه ليس بينهم وبين رسول الله ﷺ سوى راويين أو ثلاثة ؟!! .. وأعجب من ذلك أن صلاح الدين خليل بن أيبك

(١) سيكون إن شاء الله للحديث عنه مجال رحب بكتابي الفنون العلمية .

(٢) انظر لسان الميزان - بتحقيق شيخي عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى - ٤٥٨/٣ .

الصفدي [- ٧٦٤هـ] رحمه الله تعالى - في تذكرته ، وهي مجموع أدبي عن أبناء عصره لا يزال مخطوطاً - كتب فصلاً في تقوية قصة رتن ، والإنكار على من ينكرها !! .. ومُعَوَّلُه في ذلك الإمكان العقلي !![١] .

قال أبوعبدالرحمن: هذه أُمِّيَّةٌ تاريخية وُجدت عند رجل علمٍ فاضل؛ فغيره من أشباه العوام أولى بالأمية .. وههنا المسؤولية الفكرية غائبة عن الصفدي وعن بعض مؤلفي البرامج والفهارس والأثبات ، وأبسط نقد أن مُعَمَّراً أدرك رسول الله ﷺ ، وروى عنه، وصحبه، وعاش بعده أكثر من ست مئة عام: حدثٌ جَلَلٌ، عظيم الأهمية عند المسلمين؛ فلابد أن يكون له حضور في كتب التاريخ والتراجم والحديث طيلة ستة قرون؛ لأن ما ذُكر من أكبر الحوافز على الاهتمام به.. ولا بدَّ أن يروي عنه الأئمة الأثبات من التابعين وتابعيهم إلى أن نصل إلى أئمة القرن السادس الهجري، ولا سيما أن عُلُوَّ الإسناد من أجلِّ مطالبهم .. ومن براهين كذب هذا الدَّجَلِ ما رواه الشيخان (البخاري في كتاب مواقيت الصلاة/ باب السمر في الفقه والخير بعد العشاء، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة/ باب قوله ؟: لا تأتي مئة سنة.. وذلك في صحيحهما) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد[٢]؛ إذن قصة تعمير رتن أكثر من ست مئة سنة على أنه صحابي تكذيب لما

(١) انظر لسان الميزان ٣/ ٤٦٢ .

(٢) قال مسلم في صحيحه / متن شرح النووي ١٦/ ٣٠٦ - ٣٠٨ : «باب قوله ﷺ : (لا تأتي مئة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم) .. حدثنا محمد بن رافع، وعبد بن حميد - قال محمد بن رافع : حدثنا .. وقال عبد : أخبرنا عبد الرزاق - : أخبرنا معمر : عن الزهري : أخبرني سالم بن عبد الله ، وأبو بكر بن سليمان : أن عبدالله بن عمر [رضي الله عنهما] قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته ؛ فلما سلم قام ، فقال : أرأيتكم ليلتكم هذه ؛ فإن على رأس مئة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد ؟.. ==

تنفيه دعواه من خبر صحيح قطعي عن رسول الله ﷺ .. ثم بعد ذلك فمتن الحديث - وهكذا بقية أحاديثه - تُحيلها السيرة العملية، وأحكام الشريعة القطعية عن غناءٍ ورقصٍ في زواج بنت رسول الله ﷺ ورضي الله عنها، وعن ربط رؤية الله جهرة

== قال ابن عمر : فوَهَلَ الناس في مقالة رسول الله ﷺ تلك فيما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مئة سنة ، وإنما قال رسول الله ﷺ : لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد .. يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن .. حدثني عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي : أخبرنا أبو اليمان : أخبرنا شعيب : (ورواه الليث : عن عبدالرحمن بن خالد بن مسافر .. كلاهما) : عن الزهري بإسناد معمر كمثل حديثه .. حدثني هارون بن عبد الله ، وحجاج بن الشاعر قالا : حدثنا حجاج بن محمد قال : قال ابن جريج : أخبرني أبو الزبير :أنه سمع جابر بن عبد الله [رضي الله عنه] يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر : يسألوني عن الساعة ، وإنما علمها عند الله ، وأقسم بالله ما على الأرض من نفس مَنْفُوسةٍ يأتي عليها مئة سنة .. حدثنيه محمد ابن حاتم : حدثنا محمد بن بكر : أخبرنا ابن جريج بهذا الإسناد ، ولم يذكر (قبل موته بشهر) .. حدثني يحيى بن حبيب ، ومحمد بن عبد الأعلى كلاهما : عن المعتمر (قال ابن حبيب : حدثنا معتمر بن سليمان) قال : سمعت أبي : حدثنا أبونضرة : عن جابر بن عبدالله [رضي الله عنه] : عن النبي ﷺ : أنه قال ذلك قبل موته بشهر ، أو نحو ذلك : ما من نفس منفوسة اليوم تأتي عليها مئة سنة ، وهي حية يومئذ .. وعن عبد الرحمن صاحب السقاية : عن جابر بن عبد الله [رضي الله عنه] : عن النبي ﷺ بمثل ذلك .. وفسرها عبد الرحمن قال : نقصان العمر .. حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا يزيد بن هارون : حدثنا سليمان التيمي بالإسنادين جميعاً مثله .. حدثنا ابن نمير : حدثنا أبوخالد : عن داود (واللفظ له) .. وحدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة : حدثنا سليمان بن حيان : عن داوود : عن أبي نضرة : عن أبي سعيد قال : لما رجع النبي ﷺ من تبوك سألوه عن الساعة : فقال رسول الله ﷺ : لا يأتي مئة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم .. حدثني إسحاق بن منصور : أخبرنا أبو الوليد : أخبرنا أبو عوانة: عن حصين : عن سالم: عن جابر بن عبد الله [رضي الله عنه] قال : قال نبي الله ﷺ : ما من نفس منفوسة ، تبلغ مئة سنة .. فقال سالم : تذاكرنا ذلك عنده ، إنما هي كل نفس مخلوقة يومئذ» ..وهذا الحديث الصحيح حجة على كذب مَكْلَبة بن ملْكان الخُوارزمي الذي ادَّعى الصحبةً في حدود عام ١٤٠هـ، أو كَذِبِ من كذب عليه (وهو المظفر بن عاصم العجلي) .. انظر لسان الميزان ٨/١٤٦-١٤٧.

بالاخشيشان ومشي الإنسان حافياً.. وتوجد الأُميَّة التاريخية عند طلبة العلم بسبب الكسل عن المحاكمة الفكرية، وبسبب نسيان أوجه النقد المانعة من صحة وقوع الحدث.. وتأتي بالتسامح المتعمَّد كقول الصفدي رحمه الله عن قصة رتن المكذوبة: إنها ممكنة عقلاً!!.

قال أبوعبدالرحمن : حقيقة الممكن عقلاً وتصوُّراً : أنه لو وجد لم يكن في وجوده إحالة ، وأن الإمكان احتمال مُرْسَلٌ غيرُ متعيِّن ؛ لتخلُّف المقتضي والمانع معاً ؛ وعلى هذا لا يكون الإمكان العقلي برهاناً على تعيين وقوع حادثةٍ ما ؛ لما أسلفته من تخلُّف المقتضي والمانع معاً .. ثم إن هذا الإمكان العقلي محال واقعاً ؛ لما أسلفته من موانع واقعية تمنع من صحة وقوع خبر رتن على الوجه المزعوم من كونه صحابياً ، وأنه عاش بعد رسول الله ﷺ أكثر من ست مئة سنة ، وكون أحاديثه منفيَّة بالسيرة العملية ، والقطعي من النصوص الشرعية .

وأما الأمية التاريخية لدى العوام وأشباههم فسببها الجهل المطبِق بالقوانين الفكرية، والأصول العلمية.. أعني أهليَّة المؤرخ من الفكر المنظَّم الذي لا يقيس مع الفارق، ولا يُفَرِّق بين المتماثلين، ولا يغفل عن الفروق المؤثِّرة وغير المؤثرة، ولا يغفل عن العلاقات المجرَّدة من هُوِيَّات الأشياء التي تتكوَّن منها أحكام علمية وفكرية .. وتكون لديه حصيلة علمية استقرائية يعرف بها خصائص الأعصار والأمصار والأمم .. والجهلُ بمصدر التاريخ من جهة التوثيق وتحرير الدلالة، ومن جهة معرفة أصولها لغة وفكراً وعلماً مُؤسَّساً في الاصطلاح؛ فلا يُفَرِّق بين تاريخ ابن جرير وعرائس المجالس للثعلبي[1] ،

(١) كتاب في قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مشحون بالإسرائيليات والخرافات لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي [- ٤٢٧هـ] رحمه الله تعالى صاحب الكشف والبيان المعروف بتفسير الثعلبي ، وهو في نفسه صدوق ، ولكنه لا يُحرِّر الرواية ، فيروي ما هبَّ ودبَّ .. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في مجموع الفتاوى ٣٥٤/١٣ : «وفي التفسير من هذه الموضوعات قطعة كبيرة مثل الحديث الذي يرويه الثعلبي والواحدي

وبين ابن الكلبي[1] والإمام ابن عبد البر .. ولا يُفَرِّق بين النقل عن مصادر مُتَّصلة بمصادر تسبقها مباشرة كنقل القلقشندي: عن مصادر كابن خلدون: عن مصادر كابن فضل الله العمري : عن مصادر كابن زمَّاخ الحمداني [٦٠٢-٦٧٠هـ] أبو المحاسن[2]

والزمخشري في فضائل سور القرآن سورةً سورة ؛ فإنه موضوع باتفاق أهل العلم .. والثعلبي هو في نفسه كان فيه خير ودين ، وكان حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع ، والواحدي صاحبه كان أبصر منه بالعربية لكن هو أبعد عن السلامة واتباع السلف ، والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي لكنه صان تفسيره من الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة .. والموضوعات في كتب التفسير كثيرة مثل الأحاديث الكثيرة الصريحة في الجهر بالبسملة ، وحديث علي [رضي الله عنه] الطويل في تصدُّقه بخاتمه في الصلاة ، فإنه موضوع باتفاق أهل العلم ، ومثل ما روى في قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [سورة الرعد/٧] إنه علي ، ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [سورة الحاقة /١٢] أذنك يا علي » .

(١) هو أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي [-٢٠٤هـ] عفا الله عنه رافضي كذاب هو وأبوه .. انظر عنه لسان الميزان ٣٣٨/٨-٣٣٩ .. وجعلوه عمدة في الأنساب ، وهذا ليس دليلاً على صدقه ، بل تفريعة للأنساب تفريع لعلمٍ معروف لدى معاصريه ؛ إذ العرب أعرف الأمم بأنسابها ؛ فلا يستطيع أن يكذب فيكذِّبه أبناء جيله ، بل يحرص على التدقيق في علم متداول مشهور ؛ لينال ثقة معاصريه ؛ وإنما كذبه فيما زاد على معرفة أبناء جيله من التفريع كأخبار القبائل ، وتفرُّقها ، والنسب من جهة الأمهات ، وأخبار بعض آباء القبائل ، وأنساب المدن .. وهو على هذا شعوبي ، وقد نقل أبوالفرج الأصفهاني في أخبار دريد بن الصمة ٣٩/١٠-٤٧ عن كتاب «مترجم بأنه نُسخ من نسخة عمرو بن أبي عمرو الشيباني يأثره عن أبيه ؛ فذكر فيها أخباراً من رواية ابن الكلبي ، وختم الأصفهاني النقل بقوله : «هذه الأخبار التي ذكرتها عن ابن الكلبي موضوعة كلُّها ، والتوليد بيِّنٌ فيها وفي أشعارها ، وما رأيتُ شيئاً منها في ديوان دُريد بن الصمة على سائر النسخ ... وهذا من أكاذيب ابن الكلبي» .

قال أبوعبدالرحمن : كيف يروي الإمام أبوعمرو إسحاق بن مرار الشيباني [-٢٠٥هـ] عن معاصره ابن الكلبي وهو أصغر سناً ؛ إذ عُمْر الشيباني ١١٨سنة ، وعلى فرض صحة ذلك يكون أبو عمرو - إن صحت نسبة النسخة إليه - خارجاً عن العهدة بالرواية عن ابن الكلبي .

(٢) قال أبوعبدالرحمن : الرفع على الحكاية أجود .

بدر الدين المؤرخ النسَّابة[١].. وبين مصادر غير متصلة كالنقل عن أبناء القرن الحادي عشر وما بعده في أنساب قبائل حديثة الاسم، ولم يحيلوا إلى مصادر قديمة .

ومن عناصر المسؤولية الفكرية أن رجل العلم إذا رجع إلى مصدر تاريخي بادر إلى معرفة مؤلِّفه عدالةً وضبطاً ، ومعرفة منهجه ، وصحة نسبة الكتاب إليه جميعه أو بعضه؛ وهذا يعني الكشف عن هُوِيَّة المراجع ومؤلفيها قبل أن نتخذها مرجعاً[٢].

(١) قال الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة ٤/ ٤٥٥ - ٤٥٦ : «يوسف بن سيف الدولة بن زماخ - بفتح الزاي ، وتشديد الميم ، وآخره معجمة - بن بركة بن ثمامة التغلبي من ذرية سيف الدولة ابن حمدان فيما يقال بدر الدين ابن مهمندار العرب .. كان متجنِّداً ، وله يد في النظم والتاريخ ، وله تصانيف في الأنساب والبديع» .. **قال أبوعبدالرحمن** : كان مصدراً لأنساب القبائل التي لم تحتفظ بأسمائها القديمة واستجدَّت لها أسماء حديثة ، وأهَّله لذلك أنه (مهماندار) ، ومعناها - كما في المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية للدكتور عبد الرزاق محمد حسن بركات ص ٢١٧ - الموظف المسؤول عن استقبال السفراء حين قدومهم إلى إستانبول ، وتقديم الضيافة والإكرام لهم .. وقلت : (أبوالمحاسن) ، ولم أقل : (أبي) ؛ لأنني جريت على الحكاية، وهي أرجح ، وهذا منهجي في مثل هذا .

(٢) قال أبو عبدالرحمن: المحقَّق عندي في تسمية الكتب التي ينقل عنها المؤلف أن تسمَّى مصادر؛ لأنه اطلع عليها ، وصدر عنها بإثبات شيئ أو نفيه .. وأما المرجع فهو ما طالعه ولم يجد فيه بُغْيته ، ولا يكون مصدراً إلا إذا ادَّعى المؤلف الاستقصاء ، وأن الحدث مُنْتفٍ في أي مرجع ؛ فحينئذ يسرد هذه المراجع التي لم يجد بها بُغْيَتَه في مصادره ؛ لِيُكْمِل مَنْ بعده ريادته في التتبع .. وأما معرفة نسبة الكتاب إلى مؤلفه وتوثيق النسبة فأمر عظيم الأهمية فرَّط فيه بعض المعاصرين مثل (مسائل الإمام الطستي) حققه الدكتور عبدالرحمن عميرة ، ولم يُتعب نفسه في تحقيق صحة نسبة الكتاب إلى المؤلف ، وأن في إسناده إليه جملةً من الكذَّابين والوضَّاعين، وقد حقَّقتُ في كتابي (الإيمان العلمي) مدى صحة موضوعه، وهو الأسئلة التي وجهها نافع ابن الأزرق إلى ابن عباس رضي الله عنهما ؛ فأجابه بآيات من القرآن الكريم .. ومن ذلك شرح ديوان أبي الطيب المتنبي الذي حققه عبدالمجيد دياب ونسبه إلى أبي العلاء المعري على أنه شرح أبي العلاء المعروف بمعجز أحمد ، وهذان نموذجان كافيان لإهمال بعض الدكاترة توثيق نسبة الكتاب إلى مؤلفه، وقد تكون هذه النسبة مقصودة للترويج أو الجهل؛ ==

= فمقدمة أبي عبدالله ابن النقيب [-٦٩٨هـ] لتفسيره الكبير (التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير) في نيِّف وخمسين مجلداً ، وتوجد قطع خطية متناثرة طبعت باسم (الفوائد المشوقة إلى علم القرآن وعلم البيان) منسوبة إلى ابن قيم الجوزية [-٧٥١هـ] رحمهما الله تعالى مع العلم أن نسبته إلى ابن القيم جاءت بخط مغاير على النسخة التي طُبع عنها المشوق .. وانظر تحقيق ذلك للدكتور زكريا سعيد علي في تحقيقه لمقدمة تفسير ابن النقيب ص٥-٣١.. ومما هو من باب الترويج نسبة كتاب الواضح للدينوري إلى الفيروز آبادي المطبوع بعنوان تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ، وقد حققت ذلك في كتابي (الفنون العلمية) .. ومما هو من الجهل والتخمين نسبة كتاب الكنز المدفون إلى السيوطي وهو ليونس المالكي - انظر معجم المؤلفين لكحالة ١٩٣/٤- ، ووجه التخمين أن ذلك يليق بما عُرف عن السيوطي من الجمع وأنه حاطب ليل .. ولا يكاد يصح عن جعفر الصادق رحمه الله أي كتاب من الكتب التي نُسبت إليه .. ومن جملة الكتب المكذوبة على مؤلفيها تعبير الرؤيا لابن سيرين، وفتوح الشام للواقدي، والفقه الأكبر لأبي حنيفة، ومسند الربيع بن حبيب، ودرة التنزيل للإسكافي، والكبائر للذهبي المطبوع، والإمامة والسياسة المكذوب على ابن قتيبة ، وأخبار النساء لابن الجوزي ونسب إلى ابن قيم الجوزية .. ومنها ما هو صحيح النسبة إلى المؤلف مثل نهج البلاغة ، ولكن مادته موضوعة على عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه .. ومنها ما هو إضافة إلى كتاب صحيح النسبة إلى مؤلفه ولكن الكذب في الإضافة مثل كتاب (ما يمتحن به السني من البدعي) لأبي الفرج المقدسي .. وانظر عن بعض الكتب المنحولة كتاب (كتب حذَّر منها العلماء) للشيخ أبي عبيدة مشهور .. وأما نصيحة الذهبي لابن تيمية رحمه الله تعالى فكان لديَّ صحتها ، وليس عند من نفاها برهان ، ولا نكارة فيها متناً ، ولكنه استجدَّ مصدر حاول تعيين من ألَّف الرسالة ؛ ولهذا سأعود إلى تحقيق المسألة إن شاء الله .

ويدخل في هذا الباب أن بعض المعاصرين يكون دافعه للكتابة عن عَلَمٍ ، أو تحقيق أحد مؤلفاته: الحب، أو الشنآن ؛ فيظهر ذلك في عمله، فمن النموذج الأول الدكتور أحمد بن سعد ابن حمدان الغامدي ؛ فقد حقق حفظه الله كتاب اللالكائي ، وخرَّج النصوص تخريجاً جيداً ؛ فكان عليه أن يُنوِّه في المقدمة بثمرة هذا الجهد المنتج تسامح اللالكائي في الرواية ، ورواياته للموضوعات والمنامات ، ولا يُخلص له الثناء في الحديث ، ويضرب المثال بكل حديث ==

وهذا يصدق على التاريخ اليمني كما سيأتي الحديث عنه ، وعلى تاريخنا المحلي في المنطقة الوسطى ؛ فنظلُّ على الشك وعلى البحث الدؤوب معاً حول تواريخ محدَّدة ، وأحداث يذكرها المؤرخ والنسَّابة المتأخِّر (وهو لم يذكر مصدراً متَّصِلاً بكتب مدونة تتصل بما قبلها) .. وهذا يصدق أيضاً على نسابين متأخرين كابن بشر إلى ابن عيسى إلى ابن زيد المغيري عندما يُلحقون قبيلة حديثة الاسم بقبيلة قديمة الاسم ؛ فهذا يكون مادة نقلية محلاً للنظر وليس يقيناً تاريخاً حتى نجد الاتصال بمصدر معتمد .. ومثل ذلك تحفة المشتاق لابن بسام ؛ فمناخات البادية فيه من منتصف القرن التاسع الهجري ذات سياق واحد ، وهو لا يذكر مصادره ، ولم نجد بَعْدُ لما ذكره مصادر نعتمدها .. وهكذا ما يذكره الفاخري ، وابن ربيعة وابن عبَّاد ، وابن لعبون ، وابن ضويان مما كان زمنه زمن سوابق ابن بشر ؛ لأن ابن بشر وهُمْ لم يعتمدوا على مصادر معاصرة أو قريبة من أحداث السوابق ، وإنما اعتمدوا على مصادر متأخرة كابن سلوم .. والعوام وأشباههم يتمسكون بهذا التاريخ غير المتصل في مصادره ، بل يعتمدون على تواريخ وتعريفات لابن حاتم في خيار ما يلتقط من

= أو أثر ذكره عن الاختلاف في خلق القرآن قبل الإمام أحمد والمعتزلة، فإنه لا يصح في ذلك شيئ ، بل كل ما ذكره : إمَّا موضوع ، وإما خارج محل النزاع .. وهكذا أحد رواة كتاب الطريثيثي أخلص له الثناء ١١١/١ من المقدمة وص٥ من المتن ، وأسقط النصوص عن ضعفه الشديد .. ومن النموذج الثاني - وهو أسوأ نموذج - محمد زاهد الكوثري ؛ فمقدماته لكتب السلف ، وتحشياته عليها محل نظرٍ وتحرٍّ ؛ لشدة تعصُّبه ، وقلَّة تورُّعه عن الثلب بغير حق ، بل يجب مقارنة تحقيقه بالأصول الخطية ؛ فإنه غير مؤتمن .. وقد ينسب الكتاب إلى غير مؤلفه جهلاً ؛ لاتحاد اللقب والبلد ، وكون مادة الكتاب من تخصُّصِ المنسوب إليه الكتاب مثل الناسخ والمنسوخ نسب إلى ابن حزم الظاهري الأندلسي وهو لابن حزم آخر أندلسي رحمهما الله تعالى كما بيَّنتُ ذلك في كتابي عن ابن حزم رحمه الله ، وفيه ما يُنافي مذاهب لابن حزم، وذُكر بغير اسم ابن حزم الظاهري ولقبه ، ومع هذا صدَّق به بعض المعاصرين !! .

شعر النبط وأمثاله : فتجد عندهم أن منيع بن سالم من آل عريعر ، وأن بركات الشريف من أشراف مكة .. إلخ .. إلخ ؟!.

والشيخ عبدالله بن عبدالرحمن آل بسام رحمه الله تعالى ترجم لعلماء نجد خلال ثمانية قرون ، وحُكْمُ ما ذكره مما لم يُوثِّقه حكم ما أسلفته عن التاريخ غير المتصل ، وقد قال الشيخ نفسه عن تراجم العلماء في كتابه : «ومنذ القرن السابع أخذنا نقرأ لبعض العلماء ممن قاموا بكتابات الوثائق التي وصلت إلينا ، ومن القرن الثامن صرنا نتبيَّن بعض أخبارهم من الوثائق والفتاوى والنبذ التاريخية النجدية وإجازات بعضهم بعضاً ؛ فهذه جرَّأتْنَا على تلمُّسِ أخبارهم وضمِّ بعضها إلى بعض ؛ ليكون منها ترجمة للعالم قد تطول وقد تقصر بقدر ما وجدنا من معلومات»[1].

وقال : «أما علماء نجد فقد يسَّر الله لي ولله الحمد والمنة مراجع خطية من مجاميع ودفاتر وإجازات ووثائق وفتاوى وأحكام ، وغالبها بأقلام هؤلاء العلماء أو منقولة عنهم نقلاً أميناً عن أقلامهم ؛ فشجعني ذلك على تدوين هذه التراجم ؛ لئلا تضيع كما ضاعت أخبار من قبلهم.. والفضل الأول لله تعالى على تيسيره ، ثم لعمي الشيخ سليمان بن صالح البسام رحمه الله الذي أطلعني على مجاميع وأوراق تَعِبَ في جمعها وكتابتها المؤرخ الشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى رحمه الله تعالى الذي وقف عمره على جمع هذه الفوائد في التاريخ والأنساب ، كما يعود الفضل لأسلافي وأهلي الأقدمين الذين حرصوا على تدوين هذه المعلومات حتى وصلت إلينا»[2].

قال أبوعبدالرحمن: كل هذه المصادر تقتضي التوثيق، ولكنه اعتذر عن عدم توثيق بعضها بقوله: «إنني لم أوثق التراجم وأخبارها إلا قليلاً، وأعترف أن هذا نقص، ولكني أُطمئن القارئ أنني لم أنقل نسباً أو خبراً أو غيرهما إلا بعد التأكد من

(١) علماء نجد خلال ثمانية قرون ١٤/١ .

(٢) علماء نجد خلال ثمانية قرون ٢٢/١-٢٣ .

صحته وقوة سنده ، وأهم عائق لي عن التوثيق هو أني أنقل من [مصادر] قديمة - إما أحكام قضاة، أو[١] وثائق أوقاف ووصايا، أو من أفواه الرواة ونحو ذلك -»[٢].

قال أبوعبدالرحمن : الوِجادة لا تكون وثيقة إلا بعد تمحيص ، وربما كان الذي لدى الشيخ البسام وجادة لم تكن وثيقة بعد ؛ فما لم يُوثِّقه الشيخ فليس مصدراً في ذاته ، بل هو على التوقُّف حتى نجد برهانه .

وذكر في موضع آخر مصادر شفهية مثل الشيخ محمد سرور الصبان ، والشيخ محمد نصيف ، والراوية محمد بن علي آل عبيِّد ، والراوية محمد ابن إبراهيم بن معتق ، وغيرهم[٣].

قال أبوعبدالرحمن: وهؤلا حجة فيما شاهدوه وعايشوه إذا تخلَّف المانع، وأما ما لم يعايشوه فلابد فيه من الرواية أو الإحالة إلى مصدر مدوَّن، ثم يكون التمحيص.

وأما ابن لعبون رحمه الله فقد أرَّخ لأحداث قديمة لم يدركها؛ فلا تُقبل إلا بنقل متصل، وهكذا تاريخ ابن عيسى رحمه الله تعالى[٤]، والشيخ المنقور رحمه الله مولده عام ١٠٦٧هـ، وقد أرَّخ لأحداث منذ عام ٩٤٨هـ، ولم يذكر مصادره، وهكذا ابن ربيعة

(١) قال أبوعبدالرحمن : (وإما) هنا أجود من (أو) .

(٢) المصدر السابق ٢٨/١ .

(٣) خزانة التواريخ النجدية ٦/١ .

(٤) هو التاريخ الذي نشره الشيخ حمد الجاسر رحمه الله بعنوان تاريخ بعض الحوادث ، ثم نشره الشيخ البسام في الجزء الثاني من الخزانة ، ولديَّ صورة خطية من تاريخه وبخطه ، وقد علمت من الشيخ حمد الجاسر رحمه الله وغيره أن تاريخ ابن عيسى الكبير - وفيه ترجمة مطولة لمحمد بن عبدالله الرشيد ، وفيه عدد من القصائد - انتهى إلى الشيخ ابن فارس (حمد ، أو محمد رحمهما الله .. نسيتُ) ، ثم لا يُعلم له خبر بعد ذلك .. وانظر أيضاً المجلد التاسع من الخزانة النجدية فهو خاص بمجموع في التاريخ النجدي لإبراهيم ابن عيسى ، وعبد الله بن محمد البسام .

العوسجي ومولده سنة ٧٠٠ هـ .. وابتدأ تاريخ الفاخري رحمهما الله تعالى بسنة ٨٥٠هـ ومولده سنة ١١٨٦هـ، ولم يذكر مصادره، وهكذا ابن ضويان رحمه الله تعالى ومولده سنة ١٢٧٥هـ .. وهكذا تاريخ الماضي؛ فمؤلفه رحمه الله توفي عام ١٣٢٢هـ: فما جاء فيه عن الأنساب فهو على التوقُّف في اتصال النسب حتى يوجد البرهان، ومثله تاريخ نجد للشيخ عبدالوهاب بن محمد بن حميدان ابن تركي، ومؤلفه من أبناء القرن الثالث عشر، وقد جعل بني خالد من بني عامر، ولعله اغترَّ بقول ابن مشرَّف:

ولا تَنْسَ جمع الخالديِّ فإنهمْ

قبائل شتى من عُقيل بن عامر[1]

وشبهته أن آل عريعر الخالديين أصهار آل أجود العُقيليين ، وأن العقيليين منتشرون في تلك الآفاق .

ومثله كتاب عنوان السعد والمجد للشيخ ابن ناصر المتوفى عام ١٣٩٠هـ ، وتاريخ صالح بن عثمان القاضي [١٢٨٢-١٣٥١هـ] ؛ فكل هؤلاء يؤرِّخون لأحداث قديمة ولا يذكرون مصادرهم .. ومثل ذلك كتاب الدرر المفاخر لمحمد بن حمد البسام [-١٢٤٦هـ] في الكلام عن القبائل وعدد فرسانهم ، وكتاب الموسوعة في تاريخ نجد لمحمد بن عثمان ابن صالح القاضي ، والتمهيد النثري لعبدالعزيز بن محمد القاضي لقصيدته الهمزية في تاريخ عنيزة .. وهناك تاريخ أشباه عوام يُستأنس بتاريخهم ترجيحاً لا استقلالاً ، ويُفاد من الشعر العامي الذي أوردوه مثل النجم اللامع للنوادر جامع لابن عبيد .. وتزداد الثقة بالكتاب إذا أرَّخ لأحداث عاصرها ولم يكن ذا هوى مثل كتاب الخبر والعيان لخالد الفرج .

ومن التاريخ غير المحايد ما خالف الحقائق وهو صادر عن هوى إقليمي أو

(١) ديوان ابن مشرَّف ص٦٣ .

قبلي أو سياسي أو ديني كبعض الثغرات في كتابين لمي الخليفة يتعلقان بتاريخ المملكة وبعض الأقطار الشرقية[١]، وكتاب السياسة في واحة عربية لمضاوي الرشيد، ومثير الوجد لابن جرجيس .. وقد بيَّنتُ وجه ذلك في تحقيقي له ، وهكذا إمتاع السامر وما جاء على نسَقِه مما زُوِّر على شعيب بن عبدالحميد[٢]، وكتاب (وسط الجزيرة العربية وشرقها) لبالجريف[٣]، ومطالع السعود في أخبار الوالي داوود .. وفي هذا المَسْلَك كل ما كُتب ضد الدعوة السلفية[٤] ، بل ضد تاريخ أمتنا الجهوري منذ صدر الإسلام كالكتب الهدامة عن تاريخ الصحابة رضوان الله عليهم[٥] ، والتجني على تاريخ بني أميَّة ، وأساطير الشعوبيين عن هارون الرشيد .. ولا تزال المطابع العلمانية والشعوبية تقذف بكل نتَنٍ عن تاريخنا السعودي الذي هو امتداد لتاريخ صدر الإسلام ؛ تلبيةً لكراهية الأعداء من العالم الأقوى .

وهناك كتبٌ لهجتها لهجة غيرالمحايد يؤرخ عن طرفين، وهو قائد أحد الطرفين ضد الآخر، ولكنه شاهد عيان ، فلا نلتفت لعباراته النابية، بل يهمنا الوقائع التي كتب عنها نَرُدُها إلى ما كتبه ونبحث عن مرجعه؛ فالرجحان فيها ما لم يرد المعارض الأقوى مثل كتاب ألَّفه قائد تركي حضر وقعة البكيرية .. وأما أمثال كتاب الأوضاع العامة في منطقة نجد في العهد العثماني لحسين حسني فهو من باب الوِجادات.

ومن الغفلات الصُّلَع ؛ بسبب التفريط في المسؤولية التاريخية درايةً وروايةً

(١) قال أبوعبدالرحمن : ناقشتُ شيئاً من ذلك في كتابي عن الإمام سعود بن فيصل بن تركي رحمهم الله .

(٢) انظر الملاحق الثلاثة آخر هذا الكتاب الصادر عن دارة الملك عبدالعزيز.

(٣) ناقشتُ أكاذيبه في كتيِّب مستقل ، وفي كتابي عن الإمام سعود بن فيصل.

(٤) انظر جميع كتاب دعاوى المناوئين لدعوة ابن عبدالوهاب لابن عبداللطيف .

(٥) أقبح وأنتن ما صدر في هذا المجال شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة لخليل عبدالكريم.

الفرح بنصٍّ معاصر لا إسناد له ، أو مؤرِّخ متأخرٍ لا إسناد له ، ولا يتَّصل بكتب معروفة عن الأثبات ذوي الأسانيد أو الاتصال بكتبٍ أقدم .. من أمثال ذلك استماتة الدكتور عبدالله بن يوسف الشبل على أن الشاعر المشهور راشد الخلاوي كان على قيد الحياة عام ١١٣٩هـ[١] : لأن المؤرخ محمد بن يوسف الوهبي رحمه الله تعالى الذي بدأ تاريخه بعام ١١٧٣هـ ذكر شعراً للخلاوي في أحداث عام ١١٤٩هـ و١١٣٩هـ؛ ولهذا قطعت جهيزة كل قول حول عصر الخلاوي!![٢] .

قال أبو عبدالرحمن : هذا تكاسل عن النظر في آثار الخلاوي الدالة على أن الخلاوي من أبناء أول القرن الحادي عشر ، وبرهان ذلك أنه قال في قصيدته الأخيرة الملحقة بالروضة[٣] :

وخَطْب جرى لِمْكِينة القلب قد فرى

وقت الكرى لمَّا دهتنا مصايبه[٤]

(١) مقدمته لتاريخ ابن عباد ص٢٧ .

(٢) المصدر السابق ، وقد ناقشني حفظه الله منذ سنوات بهذا الاكتشاف العظيم من تاريخ ابن يوسف على الاستغراب وتعظيم الإنكار لمخالفتي لنص ابن يوسف!!.

(٣) قال أبوعبدالرحمن : جمعها شيخنا عبدالله ابن خميس في ديوان الخلاوي على أنها ١٥٠٠ بيتٍ - وهي أقل من ذلك بمئات - ، وجعلها قصيدة واحدة وهما قصيدتان .. الأولى الروضة في مدح منيع بن سالم والتوجُّع له .. والأخرى أقل منها يتوجع فيها لمنيع لإيشاك ملكه على الزوال ، وبعد ذهاب ملكه .. ولو كانت قصيدة واحدة لكانت متناقضة .

(٤) قال الشيخ ابن خميس : يظهر أن كلمة (مكينة) صوابها (حبسة) ؛ لأن استعمال كلمة مكينة متأخر عن عصر الخلاوي ولا يستقيم بها الوزن أيضاً .. انظر راشد الخلاوي ص١٤٨ .. قال أبوعبدالرحمن : ههنا ناحيتان :

أولاهما: أن الوزن يختل غناء برواية الشيخ عبدالله؛ إذ حذف الواو قبل (خطب) وأثبتها قبل (لمكينة) وهي تنطق بكسر الميم، والقصيدة من بحر الطويل، ويدخله نطقاً لا غناء الثلم، وهو حذف أول حرف من الشطر .. والمكينة المراد بها سويداء القلب من التمكن ، ولا يراد بها الآلة الحادثة.

وقال في القصيدة الأخيرة :

وعلم شنيعٍ شـــاعٍ طاريهِ في الورى
عليَ وْعلى خِلِّيْ توافـد جـلايبـه
وقلبي قـــديم واجلٍ ذا وحـــاذرٍ
وأوصيـه حـتى ملَّني من وِصـاةٍ به
إلى قلتِ لهْ قـــولٍ يدلِّي يلومني
إلى أن دهتني فيهِ اكبرْ مصايبه[١]
على ذا فـلالي حظٌ نفسٍ من الوليِّ
ولا لي مـرام كـودِ ذلَّ الزلايبـة[٢]
وقد قلتُ لهْ : يا صاحبي حيٌ حيِّهم
وبالسيف لا تخشى لضدٍّ تحاربه[٣]
وعزَّهْ حْماهمْ يا حمانا فذلَّها
براسَ العلا أو مطرقَ الحدٌ خاطبه[٤]
ولا تعْفُ عمن لا يرى العفْوِ منَّةٍ
وعفوك عن العادي يقوِّي رغايبه
وقد قلتُ لكْ قولٍ قديمٍ به الدوا
ويكفي منيعٍ لو تبعني وحاط به[٥]

(١) دلَّى : صار .. من الإدلاء بالقول .
(٢) الولي الله سبحانه ، وإنما أراد الوليَّ المقيَّد وهو ممدوحه منيع بن سالم .. الزلايبة : الذين هم ثِقل في الوجود بلا منفعة ، وأصلها في الفصحى الملازمة وعدم المفارقة .
(٣) أي حيِّ منازلهم بإغارة عيهم .. جعل الإغارة تحية على سبيل التهكم .
(٤) ليكن حدُّ السيف خطابك لهم .
(٥) أي أحاط بقولي بفعلهِ إياه .

فسق آللدن واخضب ظبا البيضِ منهمُ

ومن جاك منهم صاحبٍ لا تصاحبه[١]

فلا طاعك إلا من فرى الزانِ جنبهُ

ولا هابكْ إلا من وطا السيف غاربه[٢]

وحربيٍّ جدّك لو صفا ما يودكم

وعيناهُ لو تبكي لك الدم كاذبة[٣]

إلى أن قال :

فقمْ يا رفيعَ الجاهِ فيهمْ بغارةٍ

كما اسْدِ غابٍ يرهبُ اللي يتاعبه[٤]

وكنْ بازِ في ذات الجناحين يا فتى

وضرغامِ غابٍ منه الاشبال هايبه ..[٥]

ومن لا يعِّدي عن مراعي جدودهُ

فبالسيف عدِّيْ عن مراعي ركايبه[٦]

(١) عند ابن خميس : اسق اللدان وخضب البيض منهم .

(٢) الزان الرمح الذي يركز فيه السنان .

(٣) راشد الخلاوي ص١٥١-١٥٢.

(٤) فيخاف من يتعبك يا منيع بشغبه ، وصيغة (يفاعله) تصلح لمتابعة الفعل من طرف واحد مثل تابع الإتعاب له ، وتصلح لمتابعة الفعل من طرفين ؛ بمعنى كل واحد تابع الإتعاب .. وبدون هاء (يفاعل) تكون للمتابعة من واحد مثل (يسافر) أي يتابع السفر ، وتصلح لمتابعة الفعل من طرفين فأكثر مثل (يقاتل) .

(٥) الاشبال تنطق هكذا: الشبال بفتح الألف واللام وسكون الشين.. وذات الجناحين الطير الفريسة.

(٦) يوحي هذا الشطر بذلٍّ منيع آخر الأمر ، وأن الخلاوي قانع بأن منيعاً قد يعجز عن حماية مراعي إبله ؛ إذْ عجز عن حماية جميع ملكه الموروث .

ومن لا يردُّ الضدَّ بالسيف والقنا
ويحمي الحمَى تطمع عليهَ الثعالبةْ
ومن لا يباشرْ شرَّ الاشرارِ والعدا
فيوطا وكف عْداهِ لحْماه خاربة[١]

ومنها قوله مما يوحي بأنه قالها بعد رحيله إلى العراق :

فيا ماجدِ هامَ الثريا مقامهُ
يرى زهرةِ الدنيا من أدنى مطالبه[٢]
فتى لا يرى في دار الاكدارِ منصبِ
فإمَّا سنامَ العزِّ ولا نصايبه[٣]
مقامَ الفتى في منصبِ العزِّ ساعةِ
ولا ألفِ عامِ يصحب الذلِّ جانبه
ترى العزِّ لو بالنار زينِ على الفتى
وذلٌ ولو بالخلْدِ ما زان صاحبه
فتى العِزِّ لا يرضى بذلٌ ولو ولو
ولو فوقِ جمرِ هانِ في العزِّ لاهبه[٤]
ومن بات رَهْنِ للولا والمذلَّةِ
قد أضحى عديمَ العزِّ مأوى نهايبه[٥]

(١) راشد الخلاوي ص١٥٣-١٥٤.. وخاربه بمعنى مخرِّبة على صيغة اسم المفعول.
(٢) أي طلبه النصر أو القبر .
(٣) نصايب القبر .
(٤) تكرار (ولو) ثلاث مرات ضرورة ؛ إذ ليس هناك قيمة بلاغيَّة للتكرار .
(٥) يريد مأوى لناهبيه.. والدال من قاف (قد) مكسورة، والألف المهموزة محذوفة، والضاد ساكنة.

إذا كـــان حكم فـــيـــه ذلّ لحـــاكمِ

فـــفي كلّ حـــالٍ يملك الضـــدّ غـــاريه

ومن تملْكَ الاعـــدا زمـــامـــهْ تقـــودهُ

فان طاعٍ والا فالظبا البيض غالبة[1]

وقوله :

فـــصـــبـــرٍ قليلٍ يا منعٍ ولو ولو

ولو فلْذةٍ من قطعـــةِ القلبِ ذايبـــة[2]

ترى الصبـرِ مـفـتـاحٍ للافـراج كلّهـا

ولو هو بريقكْ مـــرٍّ حلوٍ عـــواقـــبـــه

فـمـا بين غـمـضـةْ مـقلة وانتـبـاهةٍ

فـــلا يْنَدَرى من اين تَذْرَى هبـــايبـــه

كثيرٍ من الاشيـا على العبدِ تنقضي

وهيْ عندِ أهْلِ العلمِ والحلمِ واجـبـة[3]

وعند الذي لله في اللهِ حِـــبَّـــهمْ

رجـالٍ على التـــقـــوى دوامٍ تراقـــبـــه

يحـــبُّـــون في باري الورى كلّ خـــيِّـــر

وللهِ يرضى بالقـضـا من مـصـايبـه[4]

(١) راشد الخلاوي ص١٦١ .. والظُّبَى حدود السيوف .. قال الإمام ابن فارس رحمه الله تعالى ١٠٢/٢/ دار الكتب العلمية : «فالظُّبَة حدُّ السيف» ؛ فلعلها مأخوذة من الظَّبية - وهي الجراب - ، أو لأنها تُلبس بشيئ من جلد الظبي .

(٢) انظر التعليقة رقم (٤) ص ٣٦ .

(٣) واجبة : مقدَّرة حتميَّة .

(٤) محبتهم لبارئ الورى سبحانه .

وتسليمِ أمـــرِ العـــبـــدِ للهِ واجبِ

وحقٌ يقينٍ كلَّ شـــيءٍ من وهايبـــه

أسلِّيك والتَّسْلات يا سِيْدَ الحِمى

تسلَّ الحشا منِّيْ وللحالِ سالبة[١]

اسلِّيك بلســـاني وقلبي يلومني

ويبغي مقامَ العزِّ لو فوق ثاقبة[٢]

صبرنا على البلوى وما جا من السما

وشلنا حـمـولٍ فـوقِ مـا لا يطاق به

ترى الصبر محمودٍ على كلِّ ما جرى

ومذمومْ إلى أدَّى إلى ذلِّ صاحبه[٣]

وصبري حباني غاية الذلِّ والبلا

وصبرَ الفتى فَ الذلِّ أدهى مصايبه

فإمَّا تَقمَّصْ ثوبِ أيوبِ في البَلا

وصبرٍ وانا ما أرضاه والذلِّ جانبه[٤]

ومن القصيدة الأخيرة بلا ريب قوله :

وسنِّي قديمٍ قبلْ أواخيك يا فتى

وما ادري لِبَعْدْ الفاءِ والصادِ صايبة»[٥]

(١) قال أبوعبدالرحمن : هذا يعني أن منيعاً ليس على مُلْكه .

(٢) القافية قلقة ، ولعله يريد بالثاقبة الأمر المنغِّص .

(٣) كل هذا تسلية لمنيع فيما ذهب من ملك له ، وحث له على الصبر والتسبُّب .

(٤) راشد الخلاوي ص١٦٣-١٦٥ .

(٥) راشد الخلاوي ص١٨٢ ، وللوزن تنطق (ومدري) .. والفاء في حساب الأبجدي ثمانون، والصاد تسعون ، فهو جازم بأنه متجاوز ثمانين داخل في تسعين .

قال أبو عبدالرحمن : هذه اللمحة كافية في بيان أن للخلاوي قصيدة قصيرة على وزن وروي وقافية القصيدة الطويلة المسماة الروضة التي قالها أيام عزّ منيع وسعة ملكه[1] ، وأن الأخيرة قالها متحسراً على منيع بعد ذهاب ملكه ، وبعد انحداره إلى العراق بدليل قول الخلاوي :

تـطـاوحْ لَـهُ الأيـامُ لـينْ أودعـنَّـهُ

يَشَـدُّ على ثِلْبٍ قـصـيفَ البـدايدِ[2]

ولو كانتا قصيدةً واحدةً لكانتا متناقضتين بين فخرٍ وتوجُّع .

ومنيع رحل إلى العراق في تمام عام ١٠٠٠ من الهجرة، وعُمْرُ الخلاوي قبل أن يصاحب منيعاً تسعون عاماً ، ومع هذا فشعر الخلاوي هو ديوان تاريخ منيع ؛ فلابد أنه تجاوز عام ١٠٠٠هـ بسنوات مضيفين تسعين عاماً إلى سنيٍّ مؤاخاته لمنيع؛ فكيف يكون الخلاوي من أبناء عام ١١٣٩هـ وما بعدها ، وكيف كان ابن يوسف جهيزةَ التي قطعتْ قول كل خطيب ؟!!.. وحول منيع أوهام[3] يأتي تحقيقها إن شاء الله ، والقصيدة من أوائل الشعر العامي، وغلبة العامية في الألفاظ مع أنهم يقيمون الوزن بالفصحى إذا لم يستقم على عاميتهم، وعلى هذا جريتُ في تشكيل القصيدة.. وأما

(١) لأنه ورث ملك أجود للبحرين - بالمفهوم التاريخي القديم - ونجد .

(٢) لين : إلى أن .. أودعنه : أوصلنه إلى نهاية يكون وديعتها .. ثلب : إبل هزيلات .. وفي الفصحى من معاني المادة الهرم وما يعتري صاحبه من تعرية .. قصيف : ضيق ، ومن معاني المادة في الفصحى الهشيم والضعيف والتضايق في الزحام .. والبدايد أدواة الراحلة وحملها ، وفي الفصحى حشو السَّرْج والقَتب .

(٣) قال أبوعبدالرحمن : بيَّنتُ كثيراً منها آخر الجزء الأول من كتابي (أنساب الأسر الحاكمة) ، وبيَّنتُ أوهاماً حول شعر الخلاوي وزمنه ، ثم صدرت الطبعة الثانية لديوان الخلاوي بتجميع شيخنا عبدالله ابن خميس حفظه الله ، ولم يُعدِّل شيئاً من الأخطاء الشنيعة ؛ فعسى أن لا يكون ذلك استكباراً على الحق ! .

الشعر الذي ذكره ابن يوسف فلا علاقة له ألبتة بالأحداث التي ذكرها ابن يوسف، وليس فيها دلالة على شيئ من ذلك ، وآل مشرف كثير ؛ فهذا صديق له أول القرن الحادي عشر أو العاشر قُتل ورثاه ، ولا علاقة له بأحداثٍ بعد ذلك بمئة وتسعة وأربعين عاماً .. وقال شيخنا ابن خميس : «ومما يتصل بالكلام عن وطن الخلاوي بصداقته قصته المشهورة مع ابن مشرف صاحب القريتين[١] (أشيقر) و(الفرعة) ، وملخصها أن ابن مشرف ذو نفوذ ومنزلة في تلك المنطقة تدعمها مكانة قومه المشارفة من علّية تميم ، ويقوّيها ما يتمتع به من ثروة وجاه وسمعة .. بينه وبين الخلاوي صداقة وصلة مكينة ، وكما هي الحال بالنسبة لنفسه الكبيرة فهو لا يصادق من الرجال إلا ذوي المكانة والرفعة ؛ ولأمرٍ ما قُتل ابنُ مشرف ، وبلغ صديقه الخلاوي نبأ قتله وهو بالثنادي بين التسرير وصفراء السِّر ؛ فساءه ذلك ، وأوجعه ، وقال من قصيدة جيدة يرثيه بها لم نعثر إلا على هذه الأبيات القليلة منها :

لَفَـــــاني معَ الطَّرَّاشِ علْم وَرَاعني
وانا بالمصيقرْ مِنْ يمينْ حِقَيلْ[٢]
بْعَالي طِيرنِ بنَجْدِ مْقِيْمَةٌ
يِجِي الحَشِرْ ما دنَّى لْهن رَحِيلْ[٣]
يقولونَ ليْ : ذِبْحَ الفَتَى ابنِ مْشرَّفِ
ولا عــــادْ لكْ بالقــــريتينِ خليلْ

(١) قال أبوعبدالرحمن : لا دلالة في القصيدة على أن القريتين وطن الخلاوي ، وإنما الدلالة على أنه يرتاد صديقه فيهما.

(٢) يستقيم الشطر هكذا (من يميني) ، وهي من البحر الطويل قبل أن يتفنَّن شعراء العامية - بلهجة أهل نجد - بالأوزان والقوافي .

(٣) يستقيم هكذا : (بِعالٍ لطيرانٍ) ، و(يجي الحَشِرْ ماجا لهنَّ) .

مـحـا الله ناسـيـهـا مِنْ آل مُـشَـرَّفٍ

واللّـي تَـنـاسَى والـزَّمـــانْ طـويـلْ[1]

فخُلَّته مع ابن مشرف تقتضي إدمان البقاء هنالك ، أو طول المعاودة ؛ فهي إذن له مرتادٌ ومنتجع ، وجانب من جوانب مواطنه»[2].

وتكلم من الكويت عماد النويري مقرِّراً بكلِّ جُرأة : «أن التاريخ هو ما يحدث الآن [؟؟!!]؛ لأن الكل[3] يسمع، والكل يرى ما هو حديث بالأمس هو تاريخ ناقص ومزوَّر، وساهم في كتابته الدجَّالون والطبَّالون والحُواة ونُدماء السلطان»[4]؛ فما أرخص الحقيقة

(١) يستقيم الوزن هكذا (محا الله ناسٍ من عيال المشرَّف) أو : مِنَ آلِ - بفتح النون وجعل اللام ممدودة مكان الألف مع مدِّ نون (منْ) هكذا : منا لي .

(٢) راشد الخلاوي ص٣٧٧-٣٧٨ .. والتجوز بكلمة (من جوانب مواطنه) لا يحقق المبتغَى التاريخي من تحديد موطنه .. وتاريخ الخلاوي لا يزال شحيحاً ، وقد نص في شعره على أنه عربي صليبة ، وادَّعى اجتماعه مع منيع في نزار .. وهذه الدعوى ، وتصريحه بأنه خلاوي خلا لا خلاوي قبيلة ينفي الاجتهاد في نسبته إلى الخلاوي نسبة إلى خلاوة من بني سعد بن تُجيب.. انظر الأنساب ٢/٤٢١-٤٢٣ ، واللباب ١/٤٧٤ .. خلاوي قبيلة يعني انتفاءه من الخلوة ، وهم عتقاء يتعاطون الختانة ، ويركبون الحمير ، ويسألون الناس من غير تعفُّف ، ويمتهنون الصناعة .. وبعضهم يطلق الخلوة على الصَّلَب للمشابهة ، ولعل الأصل الإطلاق ، لأن الخلوة بالصفة التي ذكرتُ ما عرفوا في نجد إلا أخيراً .. وإذا صح كونه عربيَّاً صليبة فلا ينافي ذلك مدحه للصَّلَب ودفاعَه عنهم .. ويترجَّح عندي أنه صاحَب منيع بن سالم منذ نشأته ؛ لأنه يُستبعد غير ذلك وقد مدح سالماً أبا منيع بقوله :

إلـى ســـالـمٍ مَنْ شـــرَّفَ اللهُ قـــدرَهُ

وَمَن ساد من يمشي على الخدِّ قـاطبـةْ

(٣) قال أبوعبدالرحمن: صحَّحتُ في بحوثي اللغوية دخول (أل) على كلٍّ وبعض وغير؛ لأنها تعني شيئاً مبهماً، ويجوز ذلك إذا كان ما بعد (أل) معهوداً، والأفصح تعريفها بالإضافة ، والتعويض عن الإضافة بتنوين لام (كلٍّ)، وانظر تصحيحات لغوية لعبداللطيف أحمد الشويرف ص٨٢-٨٤.

(٤) مجلة البيان ص٦٩ .. قال أبوعبدالرحمن : وللأسف لم أحتفظ بالتاريخ ، ومقالته بعنوان (طروادة حكاية لا تقول الحقيقة) .

إن كان تحرير الدعاوى بمثل هذا الإجمال؟!.. فما هي حُجَّته إذن ؟.. قال: «عندما صنع جريفث (مولد أمة) تعامل مع الزنوج بفوقيَّة شديدة رغم[١] أنهم كانوا صنَّاع الخبز وملح الأرض في شمال وجنوب أمريكا، وهكذا فعلت مارجريت ميتشل عندما كتبت (ذهب مع الريح) .. وفي نصف الأفلام التي تمت صناعتها عن حياة هتلر الزعيم النازي الذي تسبَّب في موت ملايين البشر في أثناء الحرب العالمية الثانية تم تصوير هذا الدكتاتور الطاغية وكأنه[٢] قائد تاريخي مُلهَم ودنجوان[٣] لا تتحمل قلوب النساء سهام نظراته النارية .. وفي نصف الأفلام التي تم تحقيقها عن حرب فيتنام تم تصوير الآخر الفيتنامي وكأنه[٤] حشرة نكرة لا يحق لها النضال، بل لا يحق لها الحياة.. وهكذا فعل يوسف شاهين، وصلاح أبوسيف عندما أوحيا أن هناك صلة ما بين (صلاح الدين) وعبدالناصر ، وبين (القادسية) وصدام حسين[٥].. وفي فيلم (حكمت فهمي) تصورت نادية الجندي أنها قادرة على قراءة تاريخ مصر من خلال ذاكرة راقصة لعوب[٦] ، وفي فيلم (أيام السادات) قدَّمت لنا الأحداث كل ما يتعلق بحياة الرئيس المؤمن، وكل

(١) قال أبوعبدالرحمن : الصواب سياقاً : على الرغم من أنهم ، أو بالرغم من أنهم .

(٢) قال أبوعبدالرحمن : الصواب (كأنه) ، والواو فضول في هذا السياق .

(٣) دنجوان أو دنخوان : شخصية خيالية اخترعها المسرحي الأسباني ديمولينا في مسرحية (خدَّاع إشبيليا) ، وهي شخصية اشتهرت بالغراميات المتنوعة ، وارتبطت في علم النفس بقضية الاعتداد بالنفس في جذب اهتمام النساء . [د محمد خير البقاعي] .

(٤) انظر التعليقة السابقة رقم (٢) .

(٥) قال أبوعبدالرحمن : كل هذا ليس تأريخاً ، ولكنه رأي في التاريخ ، والتفسير للتاريخ يصدر عن أهواء وإن كان المراد معرفة الحدث .. وعلى فرض أن ذلك تاريخ ، وأنه غير صحيح فيصحَّح بالتاريخ .. وبعد ذلك فشواهده من الأفلام والمعاصرين .

(٦) قال أبوعبدالرحمن : الأفلام ليست تاريخاً إلا في موضوع الأفلام بأن هذا الفلم أقدم من ذلك الفلم ، وأن مخرج ذلك الفلم حقيقة فلان لا فلان .. وأما اعتبار مضامينه مصادر تاريخية فلا ، ولكنه موضوع للتمحيص التاريخي .

آرائه في كل شيئ.. ولم يقدم لنا الفيلم وجهة نظر هؤلاء الذين اختلفوا معه، وهؤلاء الذين صارعوه وبعد ذلك صرعوه!!![1].. ولا يقلل ذلك من تلك المحاولات التي تواصلت على مر السنوات الطويلة لتسجيل التاريخ فنياً بطريقة موضوعية[2] رغم أن[3] البعض[4] أصرَّ على (فنترة)[5] التاريخ، وأصر البعض الآخر على (ترخنة)[6] الفانتازيا .. المشكلة موجودة وقائمة عندما نسجل تاريخ الأمس في كتب التاريخ أو في أعمال الفن، وتتفاقم المشكلة كلما توغَّلنا إلى زمان ما قبل الميلاد؛ حيث كانت الخرافة تسود، وحيث كان البطل الدرامي القديم يصارع أنصاف الآلهة، وحيث كان الشعراء والحدَّاثون[7]

(١) قال أبوعبدالرحمن : إذا جُعل الفلم مصدراً تارخياً فهو موضوع للتمحيص التاريخي .. وموضوع الأفلام المتعة ؛ والتنكيت بأناس والافتراء عليهم ، وتمجيد أناس وافتراء الدعاوى لهم حسب المنفعة المالية التي يريدها منتجو الفيلم ، وحسب الحماس الجماهيري لمادة الفيلم.. ولغة الأفلام الفنية غير لغة التاريخ المباشرة .

(٢) قال أبوعبدالرحمن : هذا تناقض ينافي حكمه المجمل الذي قدَّم له أول المقالة، وهذه شواهد معاصرة لا تنطبق على التاريخ القديم الذي نفاه بكل جرأة.

(٣) انظر التعليقة رقم (١) ص ٤٢ .

(٤) انظر التعليقة رقم (٣) ص٤١ .

(٥) قال أستاذي الدكتور محمد خير البقاعي حرسه الله : «الفانتازيا في الفن عمل تخييلي ، يكون فيه مكان كبير للإبداع الفني، ولا تخضع عموماً لأي قواعد صُوَريَّة .. والمقصود بفنترة التاريخ تحويله إلى أعمال فنية لا تخضع عموماً لموضوعية التاريخ .. و(ترخنة الفانتازيا) إخضاعها لقواعد علم التاريخ» .

(٦) قال أبوعبدالرحمن : النحت والاشتقاق يجيزان أخذ الفعل من الاسم ، ولكن الاسم : التاريخ ، والتأريخ .. والفعل أرَّخ وورَّخ ؛ فعلى أي أصل جاء هذا النحت ، وما الحاجة إليه ؟ .

(٧) قال أبوعبدالرحمن: يريد بالحدَّاثين من يُسامرون مشافهة بالنوادر والأخبار، ولا أعلم لصيغة (حَدَّاث) معنى في لغة العرب؛ وإنما الصحيح حَدُثٌ وحَدَثٌ وحِدْثٌ وحِدِّيثٌ ومحدِّثٌ بمعنى كثير الحديث حسن السياق له.. إلا أنَّ الحدِّيث لكثير الحديث وإن لم يكن حسناً، وأحدوثي بمعنى صاحب أُحدوثة، وقد خصَّها الفرَّاء بالمضحكات والخرافات، ورجل حِدْث بمعنى يُسامر الملوك، وحِدْثُ نساء بمعنى يتحدَّث إليهن .. انظر تاج العروس ٢٠٩/٥ و٢١١ و٢١٢ ط. الكويت.

ينقلون عبر التسجيل الشفوي[١] نوادر الظرفاء وغرائب الحكام وأخار الحروب .

وفي حكايات القدماء الكثير[٢] من المواعظ والعبر، وما أجمل أن يحكي الشعراء هذه الحكايات خاصة إذا كان الشاعر بحجم الإغريقي هوميروس[٣]، وما أكبر مساحة الخيال إذا كانت الحكاية عن هيلين وباريس وحرب طروادة .. الحكاية التي من المفترض أنها دارت في القرن الثاني عشر قبل الميلاد تقول: (إن باريس أمير طروادة وقع في غرام هيلين ملكة أسبرطة [؟؟] وزوجة الملك مينلاوس.. وكان على الأخير أن

(١) قال أبوعبدالرحمن : الأصح والأرجح لغةً (الشفهي) .

(٢) لا معهود للكثير ، ولكن حكمها حكم (كل) .. انظر التعليقة رقم (٣) ص٤١ .

(٣) قال الأستاذ جبور عبدالنور في كتابه (المعجم الأدبي) ص٦٢٢ : «شاعر يوناني ملحمي لا يُعرف عن حياته إلا القليل الغامض ، وكل ما اتفق عليه المحقِّقون هو أنه أول من انطلق بالشعر اليوناني ، وأن الآثار المنسوبة إليه تأتي في طليعة الإنتاج العالمي .. ولقد ادَّعت سبعُ مُدُن شرف انتمائه إليها، وظهوره للحياة فيها .. يقال : إنه كان فاقد البصر .. غير أن المرجَّح خلاف ذلك ، والمعتقد أنه ينتسب إلى البلاد الإيونيَّة ، وأنَّ مولده في أزمير ، وعاش في خيوس ، وتوفي في لوس .. وقال المؤرخ هيرودتس : إنه عاش حول عام ٨٥٠ ق.م .. ولا شيئ يناقض هذا القول ، ومن الأمور الشائعة أنه مؤلِّف الإلياذة والأُوديسة اللتين تتضمَّنان معاً ما يُقارب ٢٧٨٠٠ بيت .. غير أن فئة من الدارسين لا تثق بكل هذه الأقوال ، وتشكُّ في وجود شخصيَّة بهذا الاسم، وبنسبة الكتابين إليه مُثْبِتَةً بالأدلة والتحليل الداخلي للنصوص أن الإلياذة ليست في واقعها إلا مجموعة من القصائد المتنوِّعة والمختلفة ، وأن أحد الشعراء (هوميروس ، أو سواه) قد أقدم على دمجها ، وإقامة اللُّحْمة بينها .. ولئن كان في موقف هذه الفئة كثيرٌ من المغالاة فإن جماعة أخرى تشكُّ أيضاً أن يكون هوميروس وحده مؤلِّف الإلياذة والأُوديسة ؛ فإذا كان له فضل في تأليفهما فقد اقتصر عمله على وضع أقسام منهما ، وأضاف إليهما الشعراء من بعدُ ما عنَّ لهم من زيادات ؛ بحيث أصبحتا كنايةً عن محصَّل لجهود متضافرة ومتراكمة [الأفصح بدون واو قبلها] خلال سنوات كثيرة » .

قال أبوعبدالرحمن : التاريخ الحقيقي أن يأتي متفرِّغ لتحقيق تاريخية هوميروس وإلياذته معاً.

يشن الحرب على طروادة بمشاركة أخيه أجاممون): لاسترداد الزوجة المخطوفة بإرادتها. وللانتقام لشرف العائلة) حتى ولو كان الدافع هو السيطرة على طروادة وبحر إيجه: لتوسيع الإمبراطورية وتقويتها.. وكان من الصعب اختراق المدينة التي تتمتع بأسوار عالية، وحصون منيعة : ولذلك يقرر اجاممنون الاستعانة بأعظم المحاربين في عصره أخيليس أو أخيل.. وطال حصاره طروادة واستمر عشر سنوات كانت مليئة بالأهوال: واستطاع أخيل أن يحقق انتصارات باهرة، واستولى على (اثنتي عشرة) مدينة من مدن أهل طروادة .. وبين كرٍّ وفرٍّ تفشل كل المحاولات لاجتياح طروادة، ولم يكن هناك بد من استخدام الحيلة والدهاء؛ فيتم صنع حصان خشبي ضخم، وبداخله اختبأ مصارعون أشداء، وبعد دخول الحصان إلى طروادة تسرب الجنود وفتحوا الأبواب، وكانت بداية الانتصار المنتظر لجيوش أجاممنون.. العديدة[1] من

(١) قال أبوعبدالرحمن : ليست العديد بمعنى الكثير ، وذلك لحنٌ شائعٌ ، وقد رأى الأستاذ عبداللطيف أحمد الشويرف جوازها في كتابه تصحيحات لغوية ؛ فقال ص١٥٠ -١٥٣ : «يخطِّئ بعض اللغويين استعمال عديد بمعنى كثير، وعديدة بمعنى كثيرة في مثل قولهم : (اجتمع في المسجد عديد من المصلين) أي كثير ، و(عندي دنانير عديدة) أي كثيرة ، و(في مدينتنا مدارس عديدة) .. جاء في «الأخطاء السائرة» : لا تقل : عديد ، وعديدة .. وقل : عِدٌّ ، وعدَّةٌ .. قال الله تعالى : ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [سورة البقرة /١٨٤] .. والحجة في هذه التخطئة أن المعجمات [المعاجم صحيحة] اللغوية ذكرت العديد بمعنى العد وليس بمعنى الكثير فيقال : (هم كثير عديد الحصى).. أي عدد الحصى ، و(هذه الدراهم عديد تلك) أي عددها ، و(كم عديد القوم؟) أي : كم عددهم ؟.. قال في القاموس المحيط : «العِدُّ الإحصاء، والاسم العدد والعديد .. والعديد النِّدُّ والقرن.. ومن القوم : من يُعَدُّ فيهم ..» ..وفي المصباح المنير : (والعديد الرَّجل يُدخِل نفسه في قبيلة ليُعدَّ منها وليس له عشيرة ، وهو عديد بني فلان ، وفي عِدادهم بالكسر أي يُعدُّ منهم) .

والحق أن عديداً بمعنى كثير صحيح، وكذلك عديدة بمعنى كثيرة.. وفي تقريرٍ للجنة الألفاظ والأساليب التابعة لمجمع اللغة العربية بالقاهرة جاء ما يأتي [فيما يلي أصح وأدل ، ==

.....

= ويأتي تستعمل لما سيأتي، ولم يأتِ مباشرة] : (يشيع في الكتابات المعاصرة قولهم : (كتب عديدة) بمعنى كثيرة، ويوحي هذا التعبير أن عديدة هي مؤنث عديد، غير أن المعجمات [المعاجم صحيحة] ذكرت لفظ العدِّ اسم مصدر بمعنى الكثرة؛ وبناء على ما سبق للمجمع إقراره من جواز استعمال المادة اللغوية يمكن أن نشتقَّ من العَدِّ وصفاً على صور عديد وعديدة بمعنى كثير وكثيرة.. على أن هذه الصيغة الوصفيَّة يمكن أن تكون مأخوذة من (عدَّ) الشيئَ فهو معدود، وتحويل مفعول إلى فعيل قياسيٌّ عند بعض النحاة، ولا يُعترض على هذا بأن التاء لا تدخل على فعيل بمعنى مفعول ؛ فقد سبق للمجمع أن أجاز ذلك في دورته الثلاثين.

ومما يُستأنس به للاستعمال المعاصر وروده في مقدمة المخصص لابن سيده في قوله : (فإنه إذا كانت للمسمَّى أسماء كثيرة، وأوصاف عديدة انتقى الخطيب والشاعر منها ما شاء)؛ ولهذا كله رأت لجنة الألفاظ والأساليب أن قول القائل (كتب عديدة) هو قول صحيح لا حرج فيه على متحدِّث أو كاتب، وقد وافق مجمع اللغة العربية بالقاهرة على هذا القرار.. كما صحح الأستاذ عباس أبوالسعود عديداً بمعنى كثير.. قال: «ينكر كثير من رجال اللغة استعمال كلمة عديد بمعنى كثير؛ لأن معاجم اللغة لم تذكر لها هذا المعنى صراحةً، وقالت: إنها اسم من العدِّ وهو الإحصاء، ومعناها العدد .. ويرون أن يُستبدل بها كلمة عِدَّة .. تقول: هم رجال عِدَّة ، وهن فتيات عدَّة . والحق أن كلمة عديد تحمل معنى كثير، وأنها قد وردت بهذا المعنى في الشعر العربي القديم.. قال عنترة العبسي :

فانهض لأخذ الثأر غير مقصِّرٍ حتى نُبيدَ من العداة عديدها

أي حتى نُهلكَ من أعدائنا عدداً وفيراً ، وإبادة العدد الكثير هو موضع الفخر لا إبادة أيِّ عدد.. وقالت الخنساء :

فأقسم لو بقيتَ لكنتَ فينا عديداً لا يُكاثَرُ بالعديد

فالعديد الأوَّل معناها القرن والنِّد ، والعديد الثاني معناه الكثير الوافر .

وقال أبوتمام يمدح :

مطرٌ أبوك أبو أهلَّةِ وائلٍ ملأ البسيطة عُدَّةً وعديدا

فالعُدَّة بالضم ما يُعدُّ من المال والسلاح لحوادث الدهر، والعديد الكثير من الجنود.. وقال أبونواس:

في أُناس نعدُّهم من عديد فإذا فُتِّشوا فليسوا بناسِ

أي نعدُّهم من العديد الكثير من الناس» .

قال أبوعبدالرحمن: لا ريب أن العديد اسم للعدد المُحصَى. وهذا لا يعني أن المُحصى كثير: فقد يكون قليلاً ؛ فلم تكتسب العديد معنى الكثير .. والعديد هو المعدود إحصاء، وليس كل معدود يكون كثيراً .. والعديد بمعنى المعدود في القوم تعبير عن الواحد: فكيف يكون الواحد كثيراً ؟!. والكاتب يذكر في موضعين العِدَّ بكسر العين، والصواب فتحها، وأما العِدُّ بكسر العين فقال عنه الزبيدي في تاج العروس ٣٥٤/٨ / الكويت : «وجمع العِدِّ أعداد» يعني الماء الغزير ؛ فالأعداد لا يُراد بها العدد ؛ وإنما يُراد بها الماء الغزير الذي اسمه العِدُّ بكسر العين ، ولا علاقة لهذه الصيغة بصيغة (عديد) إلا أن العِدَّ هو العديد بمعنى القِرْن ، ومن هذا المعنى جاء: «هذه الدراهم عديد هذه الدراهم» أي مثلها وقرينتها لا بمعنى كثيرة .. وقولهم (عديد الحصى) بمعنى أنهم لا يُحصون كثرة .. جاء معنى عدم الإحصاء والكثرة من كلمة (الحصى)، وعديده بمعنى قرينه ومثله ؛ إذن لا تقل : (اجتمع عديد من المصلين) وأنت تعني عددهم وكثرتهم ، وإنما تقول : (اجتمع عدد من المصلين، وعِدَّة من المصلين) ؛ لأن العِدَّة للجماعة كثرت أو قلَّت. وقوله : «وبناءً على ما سبق للمجمع ، إنما هو إضافة من وجه آخر ، وليس هو بناءً ، وهذه الإضافة هي جواز تحويل معدود (مفعول) إلى عديد (فعيل)، وأنه قياسي عند بعض النحاة: وذلك إباحيَّة في اللغة عند بعضهم، ودلالة الصِّيَغ (الأوزان) خلاف ذلك.

قال أبوعبدالرحمن : لو صحَّ هذا لكانت عديدٌ بمعنى معدود ، وليس كل معدود يكون كثيراً .. والتحويل إلى صيغ لغة العرب إنما يكون عند الحاجة ، ولا حاجة هنا ، بل ذلك يُحدثُ لَبْساً ، وإنما الحاجة في مثل اشتقاق (قَيَّمَ) ؛ فالفعل هنا من (القيمة) ؛ فيكون التقييم خاصاً بمقدار القيمة .. ولم يذكر عباس أبوالسعود الوجْهَ من اللغة في كون عديد تحمل معنى كثير، وأما العديد في بيت عنترة فالمراد به الفارس ؛ إذْ جعله قِرناً له .. ويحتمل أيضاً احتمالاً صحيحاً معنى معدودها ؛ إذ العديد للإحصاء ، والمحصى معدود .. والخنساء أرادت بالعديد استغراق (عديد) بمعنى قرن : فالمعنى لا يكاثر بأي قرن يشمله استغراق عديد التي هي نكرة تدلُّ على العموم .. وأما أبوتمام وأبونواس فهما بعد السليقة ؛ فصحَّ أن إجازة (عديد) بمعنى كثير استدلال متمحَّل لا ينطبق على معنى (عديد) لغةً بأي وجه .. ونَقْل ابن سيده للغة في كتبه مرجعٌ للغويين ، وهو قابل للتحقيق من جهة إسناده وإحالته الاستعمال إلى الفصحاء ، وليس كل عليم باللغة (وهو غير سليقي) يكون استعماله حُجَّة ؛ لأن العالِم قد يستعمل الكلام في غياب عن علمه اللغوي .. ويحتمل أنه أراد بالعديدة المعدودة ، بل ذلك أرجح ؛ لأنه استعمل كثيرة ؛ فكيف نتدنَّى بأسلوبه وندَّعي أن عديدة بمعنى كثيرة ؟ .

الروايات نسجت [١] حول هذه الحرب الملحمية أو هذه الملحمة الحربية، ولعل أكثر الملاحم شهرة هي إلياذة هوميروس.. والمشكلة الحقيقية عند أي قاصٍّ أو أي كاتب سيناريو هو اختيار الأحداث الخاصة بهذه الحرب باعتبار أننا في مواجهة مئات الشخصيات وآلاف التفاصيل .. في فيلم (حرب طروادة) كان على كاتب السيناريو ديفيد بينوف أن يختار من الإلياذة ، ومن تفاصيل الحرب ما يتلاءم للعرض السينمائي، وما يمكن به أن يحقِّق النجاح المنشود[٢] .. لابد من معارك طاحنة في البر والبحر ، ولابد من أزياء مبهرة[٣] ، ولابد من قصة حب أو أكثر حتى يتم تعميق الصراع ، ولابد من بعض المشاهد العاطفية وبعض المشاهد التي تتناثر فيها الجثث ، وتسيل فيها الدماء .. ولابد أيضاً من مراعاة أن أخيل هو النجم براد بيت، أو أن النجم أخيل هو الممثل براد بيت ، ويعني ذلك .. لابد من تفصيل أحداث تتلاءم وشخصية النجم حتى لو تم اختراع هذه الأحداث، وهو ما يحدث بالفعل وفي النهاية؛ فإن الكل يعرف أنه من الصعب تسجيل كل شيئ وتصوير كل شيئ عن حرب حافلة بكل ما يمكن أن تطلبه الدراما من الحب والخصام والهجر والانتقام والحرب والانتصار والهزيمة والغدر والانتقام .. كان من الممكن مثلاً أن تتمحور أحداث الفيلم حول[٤] قصة الحب الملتهبة بين باريس وهيلين ، وكان من الممكن التركيز على أطماع أجاممنون لتوسيع إمبراطوريته بضم طروادة ، وكان من الممكن تصوير الصراع بين أخيل وأجاممنون على السبايا، وكان من الممكن أن نضع الحرب في الخلفية لنصوِّر

(١) قال أبوعبدالرحمن : الأفصح ذكر رابط وهو اسم الموصول؛ فيكون الكلام: (التي نُسِجَتْ).
(٢) قال أبوعبدالرحمن : ما علاقة هذا بالتاريخ ؟ ؛ إنما هو نقدٌ فني .
(٣) قال أبوعبدالرحمن : الصواب (باهرة) ؛ لأن بَهَر فعل متَعدٍّ بنفسه .
(٤) قال أبوعبدالرحمن : في الأصل (حلو) .

مئات القصص عن أهل طروادة في تلك الفترة[1] من تاريخ البشر .. وكان الفيلم الذي شاهدناه هو الممكن الوحيد من قبل من صنعوه[2] .. مخرج الفيلم الألماني بيترسن الذي قَدَّمَ من قَبلُ (داس بوت) أو (مركب الموت) كما قدم (طائرة الرئيس) حاول أن يستغل الواقع الحالي[3]: لإسقاطه على فيلمه، وقال : (كما شن أجاممنون حرباً مستخدماً الخديعة؛ لمحاولة إنقاذ الجميلة هيلين من أيدي أهل طروادة : فإن الرئيس بوش أخفى دوافعه الحقيقية خلف غزو العراق)[4] ، وقال بيتر سون أيضاً: (كما لو أن شيئاً لم يتغير منذ ثلاثة آلاف عام؛ فالبشر ما زالوا يلجأون للخداع لشن حروب الانتقام) .. النجم براد بيت قال: (إنه نجح في التوحُّد مع مشاعره وانفعالاته الشخصية) .. وأضاف: (كان أخيل رجلاً مفعماً بالمشاعر والحماس) .. أما صحيفة (هوليوود ريبورتر) فقد قالت: (الفيلم فشل في الفوز بإعجاب المشاهدين، والحوار كان مبتذلاً، كما أن الحروب التي صُوِّرت بدت مثل مباريات الرجبي[5] حيث يصطدم

(١) قال أبوعبدالرحمن: هذا لحنٌ شائع ؛ فالفترة ليست جزءاً من الزمن، ولكنها وصفٌ لبعض الأزمان كزمن الفترة ، وزمن فترة انقطاع الوحي عن رسول الله ﷺ .. والصواب : في تلك المدة .

(٢) عن كل ما سبق انظر التعليقة رقم (٥) ص ٤٢ ، ورقم (٢) ص٤٨ .

(٣) كان الشيخ أحمد القادري مصححاً بمجلة الدرعية ، وكان ينكر كلمة حاليّاً ، ولا أعرف وجه الإنكار ؛ فالنسب يعطي معنى الوصف ، وحال اسم لا علة فيه ؛ فيزاد على لامه ياء مشدَّدة .. وأما أن الحال بمعنى الآن غير قارٍّ فلا يضر؛ لأن العُرْفَ جرى على أن الحال شامل للوقت الذي نعيشه وقت تَحدُّثنا ؛ فهو جزء من هيئتنا .

(٤) قال أبوعبدالرحمن : ليس هذا تأريخاً في الفيلم ، وإنما هو تمثيل لدوافع بطل الفيلم بدوافع بوش المعاصر .. مع أن إقحامه لبوش هنا جاء نابياً خارجاً عن السياق؛ لأنه لم يُمَهِّدْ له .

(٥) قال أستاذي الدكتور محمد خير بقاعي : «الرجبى تُكتب (الركبى) وهي بالفرنسية والإنجليزية RUGBY، وهي رياضة كان اسمها في البداية (فتوبول «كرة قدم» رجبى) (الجيم المصرية) ويتقابل فيها فريقان كل منهما من ١٥ لاعباً يتقاذفان كرة أهليليجية باليدين والرجلين والرأس لتصل إلى ما وراء خط في نهاية ملعب الخصم ، أو بإدخالها بين عارضتي المرمى الطويلتين ، وهي لعبة عنيفة يستخدم اللاعبون فيها كل أنواع العنف لإيقاف الخصم» .

الجميع ببعضهم البعض[١] بينما بدت الدراما بعيداً[٢] عن محور الأحداث .. نختلف قليلاً ونقول : إن الفيلم يقدم متعة بصرية وتسلية مفيدة وحكاية تاريخية لا تقول كل الحقيقة»[٣].

قال أبو عبدالرحمن: ما مرَّ عليَّ في الاستشهاد في غير محل النزاع مثلُ هذه المقالة ، ولو فُرض أن هتلر ليس بالصورة التي نفاها الكاتب لما كان في ذلك تحمُّل أيِّ مسؤولية تاريخية ؛ لأنه نفى بالدعوى، ولم يذكر البراهين التاريخية على تزوير ذلك التصوير، ولم يُقم البرهان على صورة أصح.. وهكذا عبدالناصر، وصلاح الدين، وصدام حسين ، والقادسية : تمثيل في أفلام ، ولا ريب أنه تمثيل كاذب ، والأفلام ليست تاريخاً ؛ فكان عليه بالنقد الفني والتاريخي أن يورد نصوص التمثيل في الأفلام ، ثم يزيِّفها تاريخياً .. وليس بمستحيل قدرة نادية الجندي على قراءة تاريخ بعض تاريخ مصر من ذاكرتها ، وليس هذا النَّفْيُ من المسؤولية التاريخية في شيئ، وإنما المسؤولية النقد التاريخي لما أدلت به إن كانت ذكرت شيئاً من تاريخ مصر في الفيلم ، وكذلك النقد التاريخي لما كتبته عن تاريخ مصر إن كانت كتبتْ شيئاً .

وآخر كلامه في نقد الفيلم لخلوِّه من أشياء في الإلياذة ليس (حكاية تاريخية لا تقول شيئاً)، وإنما هو حكاية أسطورية غير تامة؛ لإهمالها أشياء من الأسطورة .. وإلياذة هيروس عُرِّبت بشعر نظمه سليمان البستاني ، وعُرِّبت نثراً - إلا ما ورد في الإلياذة من شعر - بأسلوب فني جميل ؛ لأن المعرِّب دريني خشبة ، وهو معروف بالإيقاع الجميل ، وعرَّبها أيضاً عنبرة سلام الخالدي .. كما عرَّب الأوديسة لهوميروس عنبرة سلام الخالدي ، وعرَّبها أيضاً دريني خشبة .

(١) قال أبوعبدالرحمن : الأفصح (بعضهم ببعض) .

(٢) قال أبوعبدالرحمن : الصواب (بعيدة) لأن الوصف للدراما .

(٣) **مجلة البيان** ص٦٩-٧١ .

والدكتور عبدالرحمن بدوي يجعل الإلياذة من الأربع الخوالد.. قال : «روائع الأدب العالمي أربع : الإلياذة لهوميروس ، والكوميديا الإلهية لدانته ، ودون كيخوته لثربانتس ، وفاوست لجيته»(١).

قال أبو عبد الرحمن: الضروري ههنا الهدمُ للمسؤولية التاريخية بدعوى عارية هي أن التاريخ الماضي مزوَّر !!.. وهي دعوى مجملة في علم وسيع له أصوله، ثم يستشهد لهذه الدعوى بالأفلام الفنية.. أي يستشهد على التاريخي بما ليس تاريخياً، ولو فرضنا جدلاً - وهو فرض باطل - أن الأفلام المعاصرة تاريخ مزوَّرلما كان ذلك دليلاً على تزوير التاريخ القديم.. وأعجب من ذلك كلامه الأخير عن الإلياذة على أنها من أعماق التاريخ، وإنما هي أسطورة، والأسطورة غير التاريخ، ولكن المحقِّق المدقِّق قد يستخرج منها شيئاً من التاريخ الحقيقي؛ فنَقْدُ هذا الكاتب فَنيٌّ لا تاريخي، وحسبي هذا النص النفيس عن أسطورية هوميروس للأستاذ جبور عبدالنور.. قال: «هي في الفنون الأدبية قصيدة سَرْدية، بطولية، خارقة للمألوف، تعتمد بدءاً مخيَّلة إغرابية؛ بِخلْقها عالماً أوسع وأكبر من العالم المعروف، وتستند إلى سرد أحداث تمتزج فيها: الأوصاف، والشخصيات، والحوارات، والخطب، والنصائح.. وتندرج كلها في حكاية تلفُّها في وحدة واضحة.. وهي متطوِّرة ومتسلسلة حسب أساليب الرواة الأولين بإغراقها في تشابيهَ واستعاراتٍ، وتتوجَّه أصلاً إلى الشعب الساذج الذي ينفعل : بالأخيلة، والأوهام ، والأساطير .. وتتميَّز بقوة إيحائيَّة كبيرة؛ بحيث تُخْرج السامع أو القارئ من العالم الواقعيِّ إلى عالم جديد خياليٍّ.. وتزدهر الملحمة في طفولة الشعوب؛ لأنها ترتكز على نوع من الشعر البدائي المعنيِّ بالمآثر البطوليَّة؛ فترضى هذه الشعوب الناشئة بحكايات جميلة تستثير فيها مختلف العواطف: من حب،

(١) تقديمه لترجمته كتاب (دون كيخوته) ص٥ .

وحقد، ورهبة، واعتزاز .. وتكون لديها منطلقاً أوَّلياً لتاريخها [و] لا سيما في المراحل التي تكون فيها هذه الشعوب حادة الخيال ، شديدة الانفعال .. ومما لاشكَّ فيه أن كلَّ أسطورة ملحميَّة تتضمن في جذورها بذرة تاريخية حقيقية يضيف إليها الشعراء ما يحلو لهم من فصول، ومشاهد؛ لتمجيد عروقها وأبطالها، من ذلك أن حرب طروادة الوارد ذكرها في إلياذة هوميروس هي واقعيَّة، ومثَّلت التصادم في تلاقي أوربا وآسيا آنذاك، وكذلك أنشودة رولان انطلقت من هزيمة جيش شارلمان الذي اندحر في وادي رونسفو عام ٧٧٨م .. وهكذا نرى أن الملحمة تتملَّق طموح الشعوب الشابَّة بتثبيت تخيُّلاتها وأوهامها، وترسيخ الأحاديث الفاصلة في تاريخها، وتخليد ذكرى الرجال الذين كان لهم فضل في منطلقاتها؛ وبذلك تُنسج اللحمة التي تربط الحاضر بالماضي، وتساعد على يقظة الوعي في الجماعات، وعلى تقوية إحساسها بالديمومة زمنياً ومكانياً .. على أنه يُفرض فيها تقادم الزمن على مضمون الحكاية ليتيسَّر تحليتها بالإعجاز، والإغراب ؛ فيزخرفها القِدَم ، ويُضفي عليها جواً من السحر العجيب»[١].

قال أبو عبدالرحمن : ثم لمَ هذا التمعلُم المتكلَّف من اللغة الخواجية عن الفنتزة ، وترخنة الفانتزيا ؟! .. أليس في لغتنا العربية الفصيحة المبينة : (تحويل التاريخ إلى فنٍّ) ، وإخضاع الفن لقواعد التاريخ ؟! .. ولماذا لا يأتي بلعبة (الركبى) مُعرَّبة ، وليست من ثقافة كبار المفكرين الذين يجيدون أكثر من لغة إلا بعد مراجعة ، ولا من لغة ذوي الثقافة الفنية والفنانين إلا بعد مراجعة ؟ .. هل يريد استعراض عضلاته أمام العلماء والمفكرين بالتمعلم الخواجي ، وهل يقوم هذا مقام ما ينقصه من علم محقَّقٍ غير تقليدي ، وفكرٍ عتيد غيرِ مُتلقَّف ، وما علاقة فنية التاريخ وتقعيد الفن بهذه الدعوى العريضة المفتراة : أن تاريخنا مزور ؟؟! .

(١) المعجم الأدبي ص٢٦٤ .

قال أبو عبدالرحمن : حسبما قرأته من وجهات النظر حول كتابة التاريخ رأيتُ أن معنى الإعادة هو تدوينْ تاريخ محايدٍ موثق نقلاً ، مغربل فكراً .. وأن نضيف تدوين ما أهمله التاريخ مما حصَّلته وسائلنا واستكشافاتنا الحديثة .. وقصارى تعليلاتهم لهذا المبتغى تلتقي في هذين الأمرين :

أولهما : أن تاريخنا المدوَّن في جملته لا يُعطي حقيقةً نزيهة؛ لأن المؤرخ أسقط من أحداث عصره ما لا تريده السلطة رغبةً أو رهبة، ولأن التاريخ لدولة بعد انقراضها يدخله التزييف والتجنِّي عليها كما دخل التاريخَ لها في عهدها : التزلُّفُ والتزوير ، والإسقاط ، والتجني على الآخرين .. ولأن الناس مِلَلٌ ونِحَلٌ وطوائف وشعوب وقبائل وأفكار سياسية ، ولا مطمع في الحياد والإخلاص للحقيقة في هذ الجو .

وثانيهما : أن تاريخنا المدوَّن لا يُعطي حقائقَ تامة : إما من أجل الإسقاط الذي أسلفته ، وإما لنقص في مصادر المؤرِّخ ، وإما لنقص في وسائل الأمة عامةً (وقد استجدت الوسائل والمصادر التي تكشف عن حقائق مهملة) ، وإما لأنه جرى الحديث عنها بتكهُّنٍ وخرافة وتشويش .

قال أبو عبدالرحمن: كلا الأمرين صحيحان، ومواصلة التاريخ لهذين الأمرين ضرورة علمية.. إلا أن الأمرين ليسا على العموم، ففي تاريخنا نزاهة وحياد، وفي تاريخنا حقائق تامة .. ولولا هذا الاستثناء لكنا محرومين من تاريخ علمي، أو لكنا على الأقل أضعف الأمم علميةً تاريخية .. وليس الأمر كذلك؛ لأن العدالة عامة في المسلمين بالجملة؛ ولهذا فهُمْ شهداءُ على الناس قائمون بالقسط في الجملة أيضاً، ولهم ميزة بين الأمم في طرق التوثيق؛ ولهذا يجب أن تُرفض دعوى إعادة كتابة التاريخ، ويكون الصواب مواصلة جهود علماء المسلمين في تحقيق التاريخ نقلاً وفكراً بدلاً من «إعادة كتابة التاريخ»؛ لأن تاريخنا لم ينشأ من فراغ ولا من ضعف..

ومواصلة جهود علماء المسلمين تعني إعادة قراءة التاريخ في مصادر أخرى؛ فتضاف القراءة إلى جهدهم، ويبقى دور التمحيص من قبل المعاصر، وهو لا يبدأ من فراغ؛ فأمامه أصول السلف وغيرهم يمحِّصها أيضاً ، وعن هذه المشكلة المطروحة الآن[١] أكتفي باستعراض مقابلة مع المستشرق الروسي الدكتور ميخائيل بتروفسكي أجراها ربحي محمود .. قال بتروفسكي: «إعادة كتابة التاريخ العربي أمرٌ مطلوب؛ لأن كل تاريخ بعد أن يصل إلى مرحلة ما يجب إعادة كتابته؛ لأننا نحصل على كثير من الوثائق والمعلومات الجديدة، كما أننا نتعرف[٢] بالأساليب الجديدة للدراسة العلمية، ونعرف[٣] الأفكار العامة والجديدة عن الحضارات.. ولكنَّ عمليَّة الإعادة ليست سهلة، وفي الواقع حان الوقت الآن لهذه العملية؛ لأن كثيراً من المراجع المكتوبة والتي[٤] اطلع

(١) قال أبوعبدالرحمن : صدر حول كتابة التاريخ منهجاً وإعادةً عددٌ من الكتب مثل (منهج كتابة التاريخ الإسلامي لماذا وكيف؟) للدكتور جمال عبدالهادي محمد مسعود ، والدكتور وفاء محمد رفعت جمعة .. و (كيف نكتب التاريخ الإسلامي) لمحمد قطب .. ومن الناحية التأريخية لهذه المسألة كتاب (منهج كتابة التاريخ الإسلامي) للدكتور محمد بن صامل السُّلَمي.. هذا على سبيل المثال ، وإلا فإن البحوث والكتب في هذا المجال كثيرة .

(٢) قال أبوعبدالرحمن : الذي يتعرَّف لنا فنعرفه هو التاريخ، ونحن نتعرَّف لغيرنا ليعرفنا .

(٣) قال أبوعبدالرحمن : الأسلوب العربي المبين هكذا : «كما أننا بالأساليب الجديدة للدراسة العلمية نعرف الأفكار .

(٤) قال أبوعبدالرحمن: في مثل هذا الموضع يكون حذف الواو أجود وإن كان المعطوف صفة على صفة لموصوف واحد ؛ لأن إثباتها يوهم بعطف موصوف على موصوف .. كأن المراجع المكتوبة معطَّلة ، والتي اطلع عليها العلماء كقول قائل - على سبيل الافتراض - : (جاء الذين أعرفهم الذين - بلا واو قبلها - لا أعرفهم)، بل هما موصوفان ؛ فتقول: (والذين لا أعرفهم) بواو قبل الذين .. وأما الاسم الموصول فلا يضرُّ فيه العطف بالواو عند تعدُّد الصفات لموصوف واحد عند أمن اللبس مثل قوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ [سورة الأعلى /١-٤] ؛ فالرب سبحانه هو الموصوف بالأعلى ؛ ==

عليها وقرأها العلماء في القرن التاسع عشر، وقرأناها نحن، ثم كتبوا في القرن التاسع عشر التاريخ استناداً إلى هذا المرجع[1] .. و الآن نحن علينا بالضرورة إعادة

== فذكرت صفة ﴿ الذي خلق فسوى ﴾ بلا عطف بالواو ، ثم جاء عطف الصفات بالواو بعد ذلك : للعلم بأن الوصف بالفعل في قوله : ﴿ الذي خلق فسوى ﴾ لموصوف واحد ؛ إذ لم يُذكر قبلها واو ، فكان العطف بعد ذلك عطفاً لصفات أفعاله سبحانه ؛ فلم يوهم الكلام بموصوف آخر ما دام أن أول تلك الأفعال ﴿ خلق فسوى ﴾ لموصوف واحد بلا عطف بالواو .. ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [سورة البقرة/١-٤] ؛ فعلم أن ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ عطف على المؤمنين في قوله: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾، وكلاهما وصف للمتقين، وكلاهما في حيِّز الإيمان؛ لأن كل ما في حيِّز الصلتين من هدي الكتاب للمتَّقين الموصوفين بإسقاط الواو وثبوتها؛ فلا لَبْس.. وقال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [سورة المؤمنون/١-٩] ، فقد جاء مع ﴿ وَالَّذِينَ ﴾ حروف العطف برابطة ﴿ هُمْ ﴾ العائدة إلى ﴿ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، فلم تكن الواو مُلْبِسة ؛ لأن كل معطوف صفة لموصوف واحد هو ﴿ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .. وعند ظهور أن الوصف لاثنين أو طائفتين يمتنع العطف بالواو كما في قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة/٢٧٣-٢٧٤] فـ ﴿ الَّذِينَ ﴾ الأولى وصف للفقراء الذين يُنْفَق عليهم ، و ﴿ الَّذِينَ ﴾ الثانية للذين يُنفقُون على الفقراء ؛ فلا لَبْس .

(١) قال أبوعبدالرحمن : في هذا الأسلوب الأعجمي التواءٌ ، والمراد أننا اطلعنا على المراجع التي استند عليها المؤرِّخون في القرن التاسع عشر .. ومآل الكلام أن كتابات المؤرخين منذ القرن المذكور تكرار للمراجع القديمة .

قراءة المراجع الأصلية التي استند إليها علماء القرن التاسع عشر ، ومن ثم إعادة النظر فيما كتبوه[١] ، وأسوق لك مثلاً واحداً للتدليل على ضرورة إعادة الكتابة : خذ مثلاً دولة كندة كانت دولة عربية عظيمة موجودة في الجزيرة العربية في القرنين الخامس والسادس الميلاديَّين ، وفي السنوات الأخيرة ، وبعد الاكتشافات التي عرفت في قرية الفاو في السعودية ، والاكتشافات في مجال النقوش اليمنية القديمة : أصبح واضحاً أنه كانت هناك دولة كندة القديمة في القرنين الثاني والثالث الميلاديين ، و دولة كندة الحديثة في القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، وعرفنا أن هناك مراكز أخرى لدولة كندة غير تلك المراكز التي تشير إليها المراجع ؛ فالصورة المعروفة اليوم إذن[٢] أصبحت مختلفة عن الصورة المعروفة في الكتب التاريخية القديمة .. ولكن هذا يصبح غير صحيح أيضاً .. إذا عدنا لقراءة المراجع القديمة مرة أخرى لوجدنا[٣] أن كل هذه المعلومات في المراجع ، ولكن عندما قمنا بقراءتها أول مرة مررنا عليها دون أن نلتفت جيداً إلى الصورة الأخرى ، واعتمدنا الصورة الأولى[٤] ؛ ولذلك من الضروري إعادة كتابة كل هذه المراجع القديمة استناداً

(١) قال أبوعبدالرحمن : الاستدراك على أهل العلم - في التاريخ وغيره من العلوم - باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولكن الاستدراك في الجزئيات لا يعني استئنافاً ؛ فيسمى الاستدراك إعادة لكتابة التاريخ !! .. وإنما هو استكمال للجهود السابقة ؛ لأنها قائمة على علمٍ وتأصيل يستحيل معها إعادة كتابة التاريخ استئنافاً .

(٢) قال أبوعبدالرحمن : النون كما قال المبرِّد أصليَّة ؛ فلا تكتب إذاً .

(٣) قال أبوعبدالرحمن : الأسلوب الفصيح : «لو عدنا لقراءة المراجع» ، وأما (إذا) فلا تقتضي اللام في (لوجدنا) .

(٤) قال أبوعبدالرحمن : لم يبيِّن وجه اختلاف الصورة القديمة في المراجع عما أحضره علم الآثار ، ولم يبين الصورة الأولى والأخرى ؛ فلا نزال في عمومات عائمات .

إلى معرفتنا الجديدة[1] التي ستعتمد على معرفة المعلومات التي مررنا بها دون تلبُّث.. هذا[2] مثل واحد ، ويمكن أن تقول الشيءَ نفسه في عدد كبير من الأمثلة التي كتبت التاريخ بطريقة تبتعد إلى حدٍّ ما عن العلمية»[3].

قال أبو عبدالرحمن : المفهوم من كلام بتروفسكي أننا بوسائلنا الحديثة عرفنا كندة بصورة غير الصورة الموجودة في المراجع القديمة .. ثم نجد سياق كلامه ومثاله ينفي هذا المعنى ؛ لأن الذي حصل بالوسائل الحديثة زيادة معلومات ، وليس حصول معلومات تغاير الجزء المعروف من تاريخ كندة في المراجع القديمة .. ثم إن بتروفسكي تناقض ؛ فذكر أن المعلومات الحديثة موجودة في المراجع القديمة - التي هي المراجع القديمة لمؤرخي القرن التاسع عشر - ؛ فلم نلاحظ الصورة الثانية فيها [يعني ما استجدَّ من علم الآثار المشار إليها في المراجع القديمة]، واعتمدنا الصورة الأولى [يعني المعلومات الناقصة عن كندة] ؛ لهذا يجب إعادة كتابة التاريخ .. وهذا

(١) قال أبوعبدالرحمن : لا حجر في التأليف الموسوعي من قبل فرد قادر أو عدد من الأفراد ، ولكن ليس دافع هذا ضرورة إعادة تدوين التاريخ ؛ فهو مدوَّن ، وإنما يعني إعادة تدوينه كما هو مصحوباً بما استجد من علم .. وعلى آخرين أن يكتفوا بالدراسات الجزئية مصحوبة بما استجدَّ من علم .. ولو أن ما استجد من علم يصحح شيئاً من تاريخنا أو ينفيه يقتضي بهذه الاستدراكات الجزئية إعادةَ التدوين لكنا بلا تاريخ علمي .. ولا يستطيع أحدٌ أن يدَّعي على العلم الجديد بأنه نسف كل تاريخنا ؛ فيكون غير علمي يقتضي الإعادة .. وكيف تكون الإضافة ضرورة إعادة تدوين ولا سبيل إلى ذلك إلا من مأثورنا التاريخي ؛ لأن الجزئيات المستجدة لا تقوى على استئناف كتابة التاريخ التي تسمى إعادة ؛ ولأن جمهور أهل هذه الدعوى يعنون بالإعادة الاستغناء عن حقائق تاريخنا المدوَّنة بجزئيات علمية، وبدعاوى فكرية عريضة في التعليل والتفسير؛ فيكون التأريخ فلسفة !! ؟.

(٢) قال أبوعبدالرحمن : من هنا إلى آخر النص لا تجد معنىً مفهوماً .

(٣) **مجلة مرآة الأمة** العدد ٥٨٣ ، ص٨٥-٨٦.

في الواقع نقد لمؤرخي القرن التاسع عشر ، وليس استدراكاً على المراجع القديمة من تراثنا .. وإعادة كتابة التاريخ لا تعني تقويم القديم (الذي تكررت كتابته) بأقلام المعاصرين ، وإنما تعني تقويم مصادر التاريخ قديماً في الأساس ، وحديثاً بالتبع .. وتقويم مادة التاريخ - التي ليس دليلها علم الآثار - لا يكون إلا من خلال مراجع قديمة ذات معايشة أو إسناد .. ثم إن بتروفسكي لم يذكر اختلالَ صورةٍ ، وإنما ذكر إسقاط مؤرخي القرن التاسع عشر لمعلومة ذكرتها المصادر القديمة ؛ فهذا ليس إعادة كتابة للتاريخ ، وإنما هو دعوة إلى العودة للتاريخ القديم المؤيَّد بالحفريات .. وبعد هذا كله فكلام بتروفسكي قليل الجدوى ؛ لأنه لم يوجز ما في التاريخ القديم من معلومات مستدركة سواء أكانت من إسقاط مؤرخ القرن التاسع عشر وهي موافقة لمعطى علم الآثار ، أم كانت من إسقاط مؤرخ القرن التاسع عشر وهي صورة مغايرة لمعطَى علم الآثار .. إن كلام بتروفسكي غير مُبين ولا معبِّر عن مراده بتحديد .. والمفهوم من كلامه ؛ لتسويغ إعادة كتابة التاريخ ثلاثة احتمالات :

أولها : أن في تاريخ مؤرخ القرن التاسع عشر إسقاطاً .

وثانيها : أن في التاريخ القديم وفاء بالحقيقة دل عليه علم الآثار الحديث .

وثالثها : أن في التاريخ القديم أخطاء صححها أو نفاها علم الآثار الحديث .

وعلى أي تقدير كان الأمر فما ذكره جزئية عن كندة لا يعني عموم الدعوى لاستئناف إعادة كتابة التاريخ .. وكلام بتروفسكي استدراك على مؤرخي القرن التاسع عشر ، وقد أسلفت أن مشكلة القوم إنما هي التاريخ القديم قصْداً ، وما اعتُمد عليه من كتابات المتأخرين إنما هو بالتبع .. ومهما وُجد من موسوعة أو موسوعات بدافع إعادة كتابة التاريخ فستظل كتباً عصريَّة لا تكون بديلاً ، وسيرجع الباحث الجاد للتاريخ القديم والدراسات الحديثة بشروط المسؤولية التاريخية ..

وعلم الآثار مفيد وليس قطعياً في تقدير الأعمار ، وإنما الحجة في موجوداته الأثرية وما عليها من إفادات .. كما أن الكتابات الكندية أو الثمودية .. إلخ في مكان بعيد عن ديار القوم ليست دليلاً على الامتداد ؛ فقد يعبر الكندي ديار غيره فيكتب بخط قومه ، وقد يأتي بعد الثمودي من يحاكي خطه .

ثم أعاد ربحي السؤال عن المشكلة بصيغة تفصيلية تستدرك ما أهمله بتروفسكي في جوابه ؛ فكان السؤال كالتالي «بالنسبة للفترة[١] الإسلامية يمكن القول : إن التاريخ كُتب بنفس الطريقة[٢]، أو كتب بطريقة رسمية[٣] .. على حين نرى أن جوانب كثيرة من هذا التاريخ ما تزال مجهولة أو غامضة[٤] .. كما يمكن القول : إن الرموز والأدوات[٥] التي كتبت التاريخ راعت مصالح الجهات التي كتبت عنها .. وخاصة[٦] في العصر الأموي الذي شاعت فيه الأحزاب والفرق ؛ وبحيث[٧] نجد أن كل جهة كتبت تاريخها بطريقتها ، وبما يتفق مع مصالحها أو مذهبها ؛ فكيف يمكن التوصُّل إلى الأسلوب الصحيح للتوفيق بين ما لدينا من المعلومات التاريخية المتوفرة التي تصل إلى حد التناقض في بعض الأحيان ؟؟» .

(١) قال أبوعبدالرحمن : بيَّنتُ كثيراً أن الفترة وَصْفٌ لزمنٍ ما حالَ فتورِ شيئ ما ، وليست بمعنى الجزء من الزمن .

(٢) قال أبوعبدالرحمن : يعني الطريقة التي ذكرها بتروفسكي ، وقد أسلفت غموض جوابه ، وافتقاره إلى التحديد .

(٣) قال أبوعبدالرحمن : يعني أنها غير محايدة ، وهذا إجمال سيفصله بأحوال التاريخ الأموي.

(٤) قال أبوعبدالرحمن : هذه دعوى ما سلف من قوله : «كُتب بنفس الطريقة» .. وإن كثيراً مما يطرح في المقابلات يحتاج إلى بيان بليغ، وترتيب فكري.

(٥) قال أبوعبدالرحمن : يُفهم من هاتين الكلمتين أن المعنيَّ بالرموز المواهب التاريخية ، وأن المعنيَّ بالأدوات من يُستخدمون لكتابة التاريخ بطريقة رسمية.

(٦) قال أبوعبدالرحمن : الواو قبل (خاصة) فضول .

(٧) قال أبوعبدالرحمن : الواو والباء الواحدة التحتية قبل (حيث) فضول.

وكان جواب بتروفسكي : «الأساليب الصحيحة كثيرة ، وكلها صعبة ، ولكنها موجودة .. وبالنسبة للتاريخ الأموي بصورة خاصة من الضروري تثبيت وتوثيق طريقة دراسة النصوص الموجودة حول التاريخ الأموي .. طبعاً هي نصوص من الفترة[١] العباسية ، وهي معادية للفترة الأموية ، ولكنَّ هناك طرقاً علمية حديثة وجديدة .. مثلاً أي إنسان يقوم بالدعاية لشيئ ما تجده يركِّز على بعض الأشياء التي تكون كاذبة وغير صحيحة ولا نصيب لها من الحقيقة[٢] والعكس صحيح !! .. وكما قلت : بمقارنة مختلف النصوص يمكن أن نعرف الصحيح من المغلوط كما يحدث تماماً في المحاكم من أسئلة للشهود والآراء المختلفة .. يمكن معرفة الحيثيات والاستنتاج السليم ، كما يمكن الاستدلال على المعلومات الصحيحة عن طريق الآثار والتنقيبات الأثرية .. التي تعد وسيلة مهمة جداً ؛ لأنها تعطي معلومات جديدة .. ونقوشاً جديدة تتضح على جدران القصور والأماكن الأثرية مثل هذه الوثائق مهمة جداً[٣].. وهناك طرق كثيرة لإعادة النظر، وهذا لا يعني أننا في هذه المرحلة يمكن أن نتثبَّت من كل الحقائق بشكل كلي، ولكن يمكن أن نقترب إلى حدٍّ ما من الحقيقة.. والعملية التاريخية دائماً تستنير بهذا الاتجاه، ونحن نقترب باستمرار من الحقيقة»[٤].

قال أبو عبدالرحمن : حُكْم بتروفسكي على الأساليب الصحيحة للتوثيق

(١) قال أبوعبدالرحمن : الفترة صفة لبعض الأزمان كزمن فتور الوحي عن رسول ﷺ ، وليست جزءاً من الزمن ؛ فالصواب مُدَّة .

(٢) قال أبوعبدالرحمن : هذا فضول أعجمي ؛ فكل هذه الجمل بمعنى واحد دون قيمة جمالية تقتضي هذا التتابع الإطنابي.

(٣) قال أبوعبدالرحمن : هاتان النقطتان الأفقيَّتان ضروريَّتان إذا كان الكلام مُقَطَّعاً.

(٤) مرآة الأمة ٨٦/٥٨٣ .

والتوفيق بالصعوبة بإجمالٍ أكّده بقوله : «كلها» ، دعوى عارية تفتقر إلى بيان وحصر واستقراء ينفي السهولة بإطلاق ، وما دام الكلام عن ذوي أهلية يواصلون مسيرة توثيق التاريخ وتحقيقه فالعكس هو الصحيح ، وهو أن تلك الأساليب سهلة مذلَّلة : لأنها مدروسة محقَّقة في علم مصطلح الحديث ، وعلم مصطلح التاريخ ، وعلم أصول الفقه، وعلم المنطق والجدل وأصول البحث والمناظرة .. وإنما المراد لمَّاحيَّة تراعي تلك الأصول في قراءة التاريخ ، والمراد أيضاً الحاجة إلى مزيد من التقعيد والتأصيل من خلال استقراء تاريخي نقدي .

وليس بصحيح أن التاريخ الأموي كُتب كله في العصر العباسي ، بل هو ذو أصول من العصر الأموي ، وإذا لم يرجع التاريخ إلى أصول معاصرة للتاريخ الأموي كان محلاً للتوقُّف والتحرِّي .. ولو أن التاريخ الأموي - على فرض أنه لم يكتب إلا في التاريخ العباسي دون أصول من العصر الأموي - كُتب بصيغة عباسية رسمية : لما بقي للأمويين كلمة واحدة من الثناء وعزائم الأمور .. ثم إن هذا القول بإطلاقه تضليل لكافة علماء المسلمين باتباع الهوى والمحاباة، ومن المعلوم أيضاً أنه أسهم[1] في كتابة

(١) قال أبوعبدالرحمن : يتجنب بعضهم ساهم في مثل هذا السياق ، وقد صوَّب مجمعُ اللغة في القاهرة استعمالها ، وجعلها بمعنى أسهم ، وجعلها عباس أبوالسعود في أزاهير الفصحى ص٢٩ متعدِّيَة ؛ فقدَّر كلمة (الناسَ) في قولك : (ساهمتُ في كذا) .
قال أبوعبدالرحمن : والمحقَّق عندي جواز ساهم وأسهم حسب مراد المتكلم ؛ فإذا أراد مرة واحدة قال : (أسهم) ، وإذا أراد متابعة المرَّات قال : (ساهَم) ؛ لأن فاعَلَ لتتابع الحدث من طرف واحد مثل عاقبَ وسافر ، ومن أكثر من طرف مثل قاتل وسايَر ؛ فكل واحد يُتابع الفعل من قِبَلِه .. وساهم بهذا المعنى لا يُشترط تعدِّيها ؛ لأن قولك : (ساهمتُ في الشركة) بمعنى أنني تابعت الإسهام ، وأن الأسهم موضوعة في الشركة مثل (جلستُ في البيت) بمعنى أن جلوسي كائن في البيت .

التاريخ علماء عدول سلفيون من محدِّثين ومفسِّرين وفقهاء[١] .. والتهمة بإجمال لا تجوز فيمن هو مظنة للتهمة ؛ فما بالك بهذا الجور إذا شمل عدول الأمة ؟! .

ولم يُعطِ بتروفسكي تقعيداً ، ولم يبرهن بمثال لمعرفة الكذب من تركيزِ المعادي على نقطةٍ من تاريخ مَن قبله ، وكل إلماح لا شاهد له من الأمثلة فلا يَسدُّ أيَّ ثغرة في مهمة مواصلة التحقيق والتوثيق للتاريخ .. وهكذا ما ذكره من العكس الصحيح فلم يورد له شاهداً .. ومن العجب ذكر بتروفسكي المحاكم وطرق الإثبات في الدعاوى الراهنة وهو يتكلم عن أحداث مات صُنَّاعُها ، وعن مؤرِّخين لها أيضاً ماتوا ؛ فمن أين يأتي الجواب إذا طرحنا السؤال ؟! .

وإفادة علم الآثار أسلفتُ الحديث عنها ، فما معنى التكرار ههنا مع حاجة القارئ إلى ذكر أساليبَ وصفها بتروفسكي بأنها كثيرة ، وهو لم يُورد من هذا الكثير شيئاً يُؤْبَه له ؟! .. إن بتروفسكي ينطلق من فراغ علمي في هذه المسألة لا يليق بدواعي تطلُّعِ المجلة إليه بصفته مؤرِّخاً .

قال أبو عبدالرحمن: وبإيجاز أقول: إن طرح المشكلة باسم (إعادة كتابة التاريخ) اعتداءٌ على جهد السالف ، وجحدان لأمة لها ميزة التفوُّق في هذا المجال بميزان المقارنة بين الأمم .. وإنما المراد التواصل مع سلفنا في ميدان التحقيق والتوثيق التاريخي بدراسات جزئية أو بموسوعات تتضمن جهدنا وجهد غيرنا ، ولا توصف

(١) قال أبوعبدالرحمن : من أوائل المؤرخين عوانة بن الحكم الكوفي المتوفى سنة ١٤٧هـ ، وتبعه هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٠٦هـ .. بل عني مجلس معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما برواة التواريخ والأخبار والأسمار ، وذكر ابن النديم أنه أُلِّفَ له كتاب في أخبار الملوك .. أما العلماء الثقات الأوائل في تدوين تاريخ المسلمين فمنهم عروة بن الزبير بن العوام رضي الله عنهم المتوفى عام ٩٣هـ ، وأبان بن عثمان بن عفان المتوفى عام ١٠٥هـ رضي الله عنهم .. وكتب الحديث مليئة بالتواريخ والتراجم .

بأنها إعادةٌ من قبلنا. وأن ما عند سلفنا فراغ في التأصيل وأوهام وأكاذيب ومحاباة في النقل !! .. أي أن المراد الجمع بين الوقائع والتحقيق ثبوتاً ودلالة، والتفسير والتعليل في سياق الحدث الواحد حتى تستقر موسوعة تاريخية تجمع بين الواقعة والتوثيق ثم ينفصل في مؤلفات متتابعة سياق الواقعة وتفسيرها عن مسائل التوثيق والتأصيل، وتساق الأحداث، وتُصنَّف على النسق الذي أُعيد به تحقيق التاريخ في موسوعة، وعلى النسق نفسه يُستدرك ما فات الموسوعة، ويكون هذا الانفصال لتأليف الكتب التعليمية .. ولكل أهل ملة أو نِحْلَة يريدون كتابة التاريخ ، وقراءته ، وتفسيره مَيْلٌ حَتْميٌّ في إطار ملَّتهم أو نِحلَتِهم فلا أحد يستطيع منعهم ، ولكن هناك منطق عالمي مشترك لاشتراك العقول والحواس في تحصيل المعرفة والحكم فيها .

وكل مَعْلَم أو منهج يُطرح الآن لقراءة التاريخ أو كتابته لا يعني أن ذلك يبدأ من فراغ ، وإنما يعني التذكير بأصول ومناهج قائمة إذا نُسيت حصل الضلال في كتابة التاريخ أو قراءته ؛ فحينما تكون من أهل السنة والجماعة ومن أهل الحديث ، ثم تقرأ فرعاً من فروع التاريخ كفن التراجم ، وتَجِد إماماً من أئمة المسلمين كثر فيه القول ما بين تجريح وتعديل وتحسين واستهجان كالإمام ابن حزم : فستجد إماماً من أهل السنة والجماعة كابن تيمية ينقده، وستجد عالماً من الأشاعرة كابن العربي ينقده ؛ فلا تسوِّ بين النقدين ، ولا تقل : جمهور العلماء نقدوه .. بل اعتبر نقد مَنْ نَقَده من وجهة نظر أشعرية حسنة له - بميزانك السلفي - ؛ واعتبر نقده من وجهة نظر سلفية مأخذاً عليه إذا صح النقد .. وهكذا شيخ الإسلام ابن تيمية نفسه لا قيمة لنقد العلماء له مهما كان عددهم ، ومهما كانوا أجِلاَّء إذا كان نقدهم له من وجهة نظر بدعية من صوفي أو معتزلي أو أشعري أو مستميت في تقليد مذهبه ، بل المرجع إلى الإنسانيِّ المشترَكِ من المعارف البشرية الحاصلة بخبرتهم كالمسائل

اللغوية ، وكقوانين العقل الإنساني المشترك في المسائل الفكرية .. بل يكون ما انتُقد فيه من حسناته وذلك من وجهة نظر سلفية ؛ فإن جاء النقد من وجهة نظر سلفية ومن عالم سلفي فقول الناقد والمنقود محل نظر واجتهاد وترجيح .. وما دامت عبارة إعادة تدوين التاريخ عبارة مجازية ، و أنها تعني إعادة تدوينه ممحصاً يصحبه التحقيقُ ، والعرضُ ، والجمع في سياق حدث واحد : فإن المعالم المنهجية لقراءة التاريخ تثمر أهلية لإعادة تدوينه بالمعنى المذكور آنفاً .. وإعادة كتابة التاريخ هي نتيجة لإعادة قراءة التاريخ وَفْق منهج ومعالم ؛ فهي دعوة للتأليف استئنافاً ، وليست استئنافاً للمعلومات ؛ لأن التأليف سيكون لتاريخ مدون ، وسيكون تكميله بما عند المستأنِف - بصيغة اسم الفاعل - من علم تاريخي جديد .. والصحيح من علم الآثار لا يُدوِّن تاريخاً ، وإنما يُضيف دلالةً على بعض الجزئيات تفسيراً أو تصحيحاً .. أي إن إعادة كتابة التاريخ كلمة مجازيَّة؛ لأنها لا تنطلق من حاضر مشهودٍ سوى ما شهد به علم الآثار المصحَّح المغربل في مسألة جزئية، وإنما المنطلق من تواريخ مدوَّنة لذوي تقوى ولذي أهواء ولأصحاب نِحَل متضاربة؛ فيجمع المحقق عناصره الجزئية من كل مؤرخ ذي مشرب خاص، ويُعمل فيها أصول التوثيق التاريخي، وأصول معرفة دلالة النص التاريخي، وتكون المادة المحقَّقة خميرة الفكرِ في تعليل التاريخ وتفسيره.. وليس من السهولة (مهما تعدَّدت مشارب المؤرِّخين) الحكم الجزافي بالمحاباة والخرافة والنقص المخلِّ ؛ لأن المؤرخ يعاصره أبناءُ جيله الذين عاصروا الحَدَث، أو تناقلوه؛ فعندهم من طُرق التوصيل ما عند المؤرخ.. وقد يُلَغِّم المؤرخ ذو الهوى كذبة في جزئية ؛ وقد يترك أبناء جيله تصحيح دعواه ؛ لعلمهم بأهوائه، ولشهرة الأمر بينهم .. وهناك ما لا مجال إلى تغطيته ؛ فهناك أهل نِحَلَة يكفِّرون فضلاء الصحابة رضوان الله عليهم ، ويجعلون مصدر تبليغ الدين عند قلة بعدهم ؛ فمهما تمادَوا في

ذلك فلا يستطيعون ردّ القرآن المتواتر الذي نطق برضوان الله على خيار الصحابة، وهذا خبر معصوم، والأخبار لا يدخلها نسخ : وإنما النسخ في الأحكام .. ثم قضى قدر الله الكوني أن يكون هؤلاء الذين رضي الله عنهم هم الذين جمعوا المسلمين ، ووحَّدُوا الأُمَّة والدولة . ومنحوا أمتهم هُوِيَّة العروبة والإسلام في بلدان شاسعة ليست من بلدانهم .. ولا يستطيع البِدعيُّ بأي مأثور أن يثبت جيلاً غيرهم قام بهذه المهمة ، فليس على الساحة غيرهم ، وما قامت الدولة الواحدة الممتدة ، ولا انتشر الدين ، ولا توسعت الرقعة ، ولا ابتُكر النظام الإداري والعسكري إلا بالله ثم بهم ؛ فهل يستطيع مُدَّعٍ أن يثبت رجالاً للجهاد في تمصير الأمصار غير من هو موجود في التاريخ من الصحابة ومن هو على منهجهم في الغيرة على الإسلام ، والرغبة في نشره وإعزاز الأمة ، وقد يحصل من أفراد في القرون الثلاثة الممدوحة تقصير أو معصية ، ولكن الله سبحانه يوازن بين الأعمال ، ويُضاعف الحسنات ، ويقبل توبة التائب .. والمصطفون من عباد الله أهل الجنة مع اختلاف درجاتهم ثلاثة أصناف : سابق ، ومقتصد ، وظالم لنفسه .. هكذا ورد في سورة فاطر .. وهم حملة العلم الشرعي وممحصوه ، وهل نشأت الحزبية البدعية إلا قُبيل العهد الأموي ؛ فكانوا بلاء على الأمة حتى أطفأت الدول الإسلامية بعد الخلفاء الراشدين شرَّهم ، وهل يستطيعون ادِّعاء فرد واحد ينتمي إليهم التحم بجند الله في الجهاد ونشر الإسلام ، وهل يقدرون على ادِّعاء شبرٍ واحد من الأرض ضمُّوه إلى رُقعة العرب والمسلمين ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [سورة الرعد/٣٣] .. إن في التاريخ حقائق كهذه لا يحلُّها التفلسف.. وأما الآثار فَهُمْ أخذوا من علم الآثار ما عرفوه كالكتابات على الصخور، وأخذوا خطوط الأمم ورسموها وحلَّوا رموز قراءتها.. ولكن علم الآثار الحقيقي وُجد بعدهم

بقرون ، وهو علم فيه حقائق وظنون وأباطيل كتقدير أعمار متحجرات ببلايين السنين، وقد أثبت العلماء - من آثاريين، وعلماء أحياء ، وغيرهم - اكتشافهم لوجوه كثيرة من التزييف[١].

وقراءة التاريخ ممارسة حاضرة راهنة تهتم برصد معالمَ لقراءةِ التاريخ، وأحداثُ التاريخ تُثبت أو تُنفي وفق مبادئ معرفية مشتركة .. إلا أن التفسير يكون وفق معالم لقارئ مسلمٍ برهانه من دينه أولاً ؛ فلا يقرأ مثلاً حركة التاريخ الإسلامي لإسعاد البشرية والحكم بما أنزل الله بالمنظار الذي يرى منه الكافر تاريخنا بربرياً استعمارياً .. ومهما كان في الخلافة العثمانية من نقائص فلا تقرأ تاريخها بمنظار النصراني العربي المهاجر من ظلها إلى دولة أجنبية يشاركها في الملة .

وعُلم مما سبق أن من بواعث ما سمي إعادة كتابة التاريخ : الدعوى بأن تاريخ سلفنا غير محايد بإطلاق أو في الأكثر في تقديرهم .

قال أبو عبدالرحمن: وكذلك المدعوون إلى إعادة كتابة التاريخ مظنة عدم الحياد؛ لأنه لا يخلو شخص من الانتماء ، بل العلم المادي المحسوس المجرَّب الذي يجب الاتفاق عليه غير مضمون له الحياد العلمي .. ومعنى الحياد العلمي إذْعان النفس لما لزمها من ضرورات الفكر الموجبة للعلم ، والنطق باللسان اعترافاً بذلك ، والصدق مع النفس في التعامل مع الفكر الملزِم فيما يخوض فيه المرء من مسائل ؛ والسر في انتفاء الحياد العلمي في اليقينيَّات أن في أهل الفكر الفلسفي حسبانيين يُشكِّكون في المشتق من العلم المجرَّب من دلائل وأفكار ؛ لشهوة في الجدل، أو تمعلُم،

(١) قال أبوعبدالرحمن : اقرأ مثلاً كتاب (خَلْق لا تطور) الذي عرَّب فيه الدكتور إحسان حقي نصوصاً للعلماء عن التزييف في المتحجِّرات ، وقصور العلم عن تقدير الأعمار بأكثر من ثلاثة آلاف سنة .

أو تضليل متعمّد من فئة صهيونية ملعونة دأبها إصابة الفكر البشري بالخبال . أو لسذاجة من وقع في أحابيلهم متلقناً عنهم.. والدعوى الصحيحة لاستصلاح تاريخنا أن ننظر في تأصيله ، ونحقّقه علمياً وفكرياً، وندعمه بما استجدَّ من تأصيل إن وُجد .. مع أن علماء المسلمين متميزون في توثيق الحدث ودلالته ، ثم نقرأ - إن كنا مؤلفين موسوعيين، أو كنا ذوي تحقيق لجزئيات معينة - التاريخ من كل ذي مشرب ، ونمحِّص بالمسؤولية التاريخية الفكرية التي حديثي هذا امتدادٌ لها كلَّ ما هو مادةٌ للنظر .. وتميُّز علماء المسلمين في التأصيل والتوثيق لا يعني أن تاريخنا نقيٌّ من الكذب والأهواء ؛ وإنما يعني أن تأصيلهم وتوثيقهم كشف عن الصحيح يقيناً أو الكذب يقيناً ، وعن الباطل يقيناً أو رجحاناً ، وعن المحتمل المتكافئ الذي توقفوا فيه ورهنوه بما يظهر مما يقيم صحته أو ينفيه ؛ فدعوى إعادة كتابة التاريخ استئناف من فراغ يظلم مؤرِّخينا بإجمال ويجحد عبقريتهم في التأصيل والتطبيق ؛ فالقاضي ابن العربي رحمه الله كشف أكاذيب في كتابه العواصم من القواصم ، وَدَوَّنَتْ كتب الرجال ، واستقصَتْ تراجم المؤرخين أنفسهم ، وعَدَّ المترجمون عليهم كل هفوة من كذب أو مجازفة أو غفلة ، وأخصلوا الثناء لمن هو أهل له .. كل ذلك بالمشافهة والمعايشة أو السند المتصل الذي هو أيضاً ميزة لأمتنا، و كشفوا عن الاستفاضة المتواترة المنتهية بتواطئ على الكذب كالقبر الذي نبشه الفاطميون من عسقلان وادعوا أنه قبر الحسين رضي الله عنه ، وجعلوه مزاراً في مصر .. ولا أحد أشد بطشاً من الفاطميين، ومع هذا لم يمنع ذلك العلماء من الكشف عن حقيقة نسبهم.. ولا يخلو تاريخ من تواريخ المسلمين، أو كتاب في علم الرجال، أو كتاب في أخبار الأدباء وشبههم من النقد والتقويم، وهم لا يجعلون الثعلبي بمنزلة ابن جرير، ولا ابن

الكلبي في منزلة البلاذري، ولا حماد الراوية بمنزلة المفضل الضبي رحمهم الله؛ لأن معاييرهم دقيقة .

ونحن أمة على يقين من صحة ديننا وصدقه ، وأنه لا يعارض الحقيقة ، ولا يدعو إلى مخالفتها ، بل هو دين يحبُّ الصدق ممَّن جاء به ، أو صدَّق به، أو دعا إليه ؛ فلا يستهوينا بهرج المحايدة فنطرح ديننا ؛ ولهذا كانت أسلمة العلوم - بما فيها التاريخ[1] - مُسْفِرة من هذا المنطلق .. ومن مبادئ ديننا الأمر بالقسط والصدق ، وقول الحق ، ودل ديننا والسيرة العملية على أن الأمة المحمدية أطوع الأمم لدين ربها ، وأمثلها في الصدق مع النفس .. ومعنى هذا أن العدالة - ولا سيما في العلماء العُبَّاد - هي الأصل ، وهي الظاهرة في سواد الأمة (ولا سيما في القرون الممدوحة) ، وأن القصور عن الأمثل هو الاستثناء ؛ فلا يستهوينا الحياد حينئذ - والحال كما ذكر - فنعكس الظاهرة ، وندعي أن ما سجله علماؤنا من تاريخ غير محايد بإطلاق أو في الأكثر ، وننفي ما أثبته الله من خيريَّة هذه الأمة ؛ ولهذه الظاهرة الخيِّرة (التي هي أصل لا استثناء) عُني علماء السلف بالتفتيش والبحث ؛ ليَخْبَروا حال من يقرؤون تاريخه من الصدق والعدالة ، وليميزوا بين الحقيقة والأسطورة .

(١) قال أبوعبدالرحمن : وقد بحثتُ هذه المسألة في كتابي (العقل التاريخي) عن الميتافيزيقا التاريخية التي هي تصوُّرات بالدعوى لما سبق التاريخ ، أو تكهنات عن المستقبل .

(٢ - ١٠) التاريخ والمسؤولية الفكرية :

أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري*

* محمد بن عمر ابن عبدالرحمن العقيل.
- ماجستير من المعهد العالي للقضاء في التفسير. وله مشاركات كثيرة في التأليف والمقالة والإذاعة.
- عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- رئيس الشؤون الثقافية بجمعية الثقافة والفنون، ورئيس تحرير مجلة التوباد، وأول رئيس للنادي الأدبي بالرياض.
- رئيس تحرير مجلة الدرعية وصاحب امتيازها.

قال أبوعبدالرحمن : التاريخ لا يكون على منهج المحدثين دائماً يُطلب فيه الإسناد المتصل ، ولا يكون عارياً أيضاً من الإسناد المتصل دائماً ، بل هناك ما يعرف بالاستفاضة ، ومثال ذلك من قول مُؤرِّخٍ يذكر القتلى في معركة؛ فهذا معروف عند أبناء جيله وحفدتهم من ذرية القتيل ؛ فلو كان غير صحيح ماذكره لنفاه مؤرخون آخرون بالنقل عنهم ، أو بالنقل عمن نقل عنهم وهو ذوو معرفة بهم ؛ ولهذا مجال تفصيل في مناسبة أخرى إن شاء الله .. ومن أمتن براهين التوثيق التواتر ، وهو أقوى من الإسناد المتَّصل بالعدول ، وأقل درجاته ما ذكره الإمام أبو محمد ابن حزم [- ٤٥٦هـ] رحمه الله تعالى .. قال : «إذا جاء اثنان فأكثر من ذلك (وقد تيقنا أنهما لم يلتقيا ، ولا دسَّسا ، ولا كانت لهما رغبة فيما أخبرا به ، ولا رهبة منه ، ولم يعلم أحدهما بالآخر) ؛ فحدث كل واحد منهما مفترقاً عن صاحبه بحديث طويل لا يمكن أن يتفق خاطر اثنين على توليد مثله ، وَذَكرَ كل واحد منهما مشاهدةً أو لقاء لجماعة شاهدتْ أو أخبرت عن مثلها بأنها شاهدت : فهو خبر صدق يضطر بلا شك من سمعه إلى تصديقه، ويقطع على غيبه .. وهذا الذي قلنا يعلمه حِسّاً من

تدبَّره وراعاه فيما يرده كل يوم من أخبار زمانه - من موت ، أو ولادة ، أو نكاح ، أو عزل ، أو ولاية ، أو وقعة ، وغير ذلك - ؛ وإنما خفي ما ذكرنا على من خفي عليه لقلة مراعاته ما يمر به .. ولو أنك تُكَلِّف إنساناً واحداً اختراعَ حديث طويل كاذب لقدر عليه .. يُعلم ذلك بضرورة المشاهدة ؛ فلو أدخلت اثنين في بيتين لا يلتقيان ، وكلَّفت كل واحد منهما توليد حديث كاذب لما جاز بوجه من الوجوه أن يتفقا فيه من أوله إلى آخره .. هذا ما لا سبيل إليه بوجه من الوجوه أصلاً .. وقد يقع في الندرة التي لم نكد نشاهدها اتفاقُ الخواطر على الكلمات اليسيرة والكلمتين ونحو ذلك ، والذي شاهدنا اتفاق شاعرين في نصف بيت .. شاهدنا ذلك مرتين من عمرنا فقط، وأخبرني من لا أثق به : أن خاطره وافق خاطرَ شاعرٍ آخر في بيت كامل واحد .. ولست أعلم ذلك صحيحاً .. وأما الذي لا أشك فيه ، وهو ممتنع في العقل فاتفاقهما في قصيدة ، بل في بيتين فصاعداً .. والشعر نوع من أنواع الكلام ، ولكل كلام تأليف ما .. والذي ذكره المتكلمون في الأشعار من الفصل الذي سموه الموارد ، وذكروا أن خواطر الشعراء اتفقت في عدة أبيات فأحاديث مفتعلة لا تصح أصلاً ولا تتصل ، وما هي إلا سُراقات وغارات من بعض الشعراء على بعض»[1] .. وذكر أبو محمد رحمه الله وجهاً من وجوه النقل عند المسلمين ؛ فقال : «شيئ ينقله أهل المشرق والمغرب عن أمثالهم جيلاً جيلاً - لا يختلف فيه مؤمن ولا كافر منصف غير معاند للمشاهدة - وهو القرآن المكتوب في المصاحف في شرق الأرض وغربها .. لا يشكُّون ولا يختلفون في أنَّ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب [ﷺ] أتى به ، وأخبر

(١) **الإحكام في أصول الأحكام** ١/ ١٠٧ - ١٠٨ .. قال أبو عبد الرحمن : هذا هو الحق الذي يؤيده البرهان العلمي من مجرى العادة ، وهذا ينقض ما أورده ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم ابن الأثير [- ٦٣٧هـ] رحمه الله تعالى عن وقع الخاطر على الخاطر كوقع الحافر على الحافر في كتابه **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر** ٢/٣٠٩-٣١٢ .

أن الله عز وجل أوحى به إليه ، وأنَّ من اتبعه أخذه عنه كذلك .. ثم أُخذ عن أولئك حتى بلغ إلينا .. ومن ذلك الصلوات الخمس ؛ فإنه لا يختلف مؤمن ولا كافر ، ولا يشك أحد في أنَّه صلاَّها بأصحابه كلَّ يوم وليلة في أوقاتها المعهودة .. وصلاَّها كذلك كلُّ من اتبعه على دينه حيث كانوا كل يوم هكذا إلى اليوم .. لا يشكُّ أحدٌ في أن أهل السند يصلُّونها كما يُصليها أهل الأندلس ، وأن أهل أرمينية يصلُّونها كما يصليها أهل اليمن .. وكصيام شهر رمضان ؛ فإنه لا يختلف كافر ولا مؤمن ، ولا يشك أحدٌ في أنه صامه رسول الله ﷺ ، وصامه معه كل من اتبعه في كل بلد كلَّ عام ، ثم كذلك جيلاً فجيلاً إلى يومنا هذا .. وكالحج فإنه لا يختلف مؤمن ولا كافر ولا يشك أحدٌ في أنه عليه السلام حج مع أصحابه ، وأقام مناسك الحج ، ثم حجَّ المسلمون من كل أفق من الآفاق كل عام في شهر واحد معروف إلى اليوم ، وكجملة الزكاة ، وكسائر الشرائع التي في القرآن من تحريم القرائب[1] والميتة والخنزير ، وسائرِ شرائع الإسلام ، وكآياته : من شق القمر ، ودعاء اليهود إلى تمنِّي الموت ، وسائرِ ما هو في نصِّ القرآن مقروء ومنقول .. وليس عند اليهود، ولا عند النصارى من هذا النقل شيئ أصلاً ؛ لأن نقلهم لشريعة السبت وسائرِ شرائعهم إنما يرجعون فيها إلى التوراة ، ويقطع عن[2] نقل ذلك[3] ونقل التوراة إطباقُهم[4] أن أوائلهم كفروا

(١) قال أبو عبدالرحمن : القرائب ماذبح على النُّصُبِ وعند القبور على دعوى الكفار أنها تقربهم إلى الله زلفى .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : لم أطلع بعد على نسخة خطية مضبوطة من الفصل ، ويظهر لي أن صحة العبارة : (ويمنع من).

(٣) قال أبو عبدالرحمن : أي شريعة السبت ، وسائر شرائعهم ، وما ذكره أبو محمد لا يمنع من وجود أفراد كتموا دينهم وكتبهم الصحيحة أو المحرَّفة فيما بعد كما هي حال أهل الإسلام في عهد الفاطميين القرامطة بمصر ، وقد أرغموا الناس على مذهبهم حتى اضطر بعض العلماء من المؤرخين إلى إثبات نسبهم خوفاً على نفسه ، وسبَّ خيارَ الصحابة رضي الله عنهم بعض ذوي الدين الرقيق ؛ لإعلان مناديهم : (من لعن وسبُّ، فله إر دبُّ).

(٤) قال أبو عبدالرحمن : يتم الكلام بإضافة (على) .

بأجمعهم ، وبرئوا من دين موسى عليه السلام ، وعبدوا الأوثان علانية دهوراً طوالاً .. ومن الباطل المحال أن يكون مَلك كافر عابد أوثان وأمته كلُّها معه كذلك (يقتلون الأنبياء ويخنقونهم ، ويقتلون من دعا إلى الله عز وجل) : يشتغلون بسبت أو بشريعة مضافة إلى الله تعالى ، هذا الكذب الذي لا شك فيه»[١] .

قال أبوعبدالرحمن: هذا أمتن طرق التواتر؛ لأنه نَقْلُ كافَّة عن كافَّة، وهو منطوٍ على ضرورة شرعية؛ وذلك أنه ثبت بالتواتر وجود المسلمين في الآفاق، وَعَلَنُ المسلمين معصوم بنصوص الشرع وضرورته؛ فمحال أن يكونوا مسلمين ولا يُظهرون أركان الإسلام وشرائعه وشعائره .. وهذا التواتر يدخل فيه العالم والعامي، ثم ذكر أبو محمد رحمه الله تواتراً آخر إلا أنه وَقْفٌ على أهل العلم؛ فقال: «شيئ نقلته الكافَّة عن مثلها عن مثلها حتى يبلغ الأمر كذلك إلى رسول الله ﷺ ككثير من آياته ومعجزاته التي ظهرت يوم الخندق، وفي تبوك بحضرة الجيش، وككثير من مناسك الحج، وكزكاة التمر والبُرِّ والشعير والورِق والإبل والذهب والبقر والغنم ، ومعاملته أهل خيبر، وغير ذلك كثير مما يخفى على العامَّة ، وإنما يعرفه كوافُّ أهل العلم فقط»[٢].

قال أبوعبدالرحمن: والتواتر هو نفسه الاستفاضة؛ فإن عُلِمَ أصْلُ الاستفاضة، وأنه مبني على تواطؤٍ وتعمُّد كذبٍ: فالحكم أن العوام صَدَّقوا بأمر مستفيض وَقَصُرتْ وسائلهم عن معرفة أصلها المكذوب، وأن بعض العلماء داهنوا رهبةً أو رغبة، وأن بعض أهل العلم فضحوا أصل الاستفاضة المكذوبة ، واستجاب لهم من لم يأسره الجهل وإلْف العادة من العوام ، واستجاب لهم من لم تأسره الرغبة أو الرهبة

(١) **الفصل** ١/ ٣٣٤ -٣٣٥ / دار الكتب العلمية ، و٢/٢٢٠ / دار الجيل .. قال أبو عبد الرحمن : معنى كلامه رحمه الله أن نقل دينهم عن الله بإسناد متصل مقطوع ببطلانه ؛ بسبب اتفاقهم على أن أوائلهم كفروا .. إلخ.

(٢) **الفصل** ١/ ٣٣٥ - ٣٣٦ .

من العلماء .. ومثال هذه الاستفاضة مشهد الحسين بن علي رضي الله عنهما بالقاهرة؛ فقد أبطل شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١-٧٢٨هـ] رحمه الله تعالى أصل الاستفاضة المكذوب بالتواتر العلمي المعتدِّ به .. قال : «فإنه معلوم باتفاق الناس أن هذا المشهد بُني عام بضع وأربعين وخمس مئة ، وأنه نُقِل من مشهدِ بعَسْقَلان ، وأن ذلك المشهد بعسقلان كان قد أُحدث بعد التسعين والأربع[1] مئة ؛ فأصل هذا المشهد القاهري هو ذلك المشهد العسقلاني ، وذلك العسقلاني محدث بعد مقتل الحسين [رضي الله عنه] بأكثر من أربع مئة وثلاثين سنة ، وهذا القاهري مُحدَث بعد مقتله بقريب من خمس مئة سنة .. وهذا مما لم يتنازع فيه اثنان ممن تكلم في هذا الباب من أهل العلم على اختلاف أصنافهم كأهل الحديث ومصنفي أخبار القاهرة ومصنفي التواريخ ، وما نقله أهل العلم طبقة عن طبقة ؛ فمثل هذا مستفيض عندهم ، وهذا بينهم مشهور متواتر سواء قيل : إن إضافته إلى الحسين [رضي الله عنه] صدق أو كذب .. لم يتنازعوا أنه نُقل من عسقلان في أواخر الدولة العبيدية .. وإذا كان أصل هذا المشهد القاهري منقول عن ذلك المشهد العسقلاني باتفاق الناس وبالنقل المتواتر : فمن المعلوم أن قول القائل : (إن ذلك الذي بعسقلان هو مبني على رأس الحسين رضي الله عنه) قول بلا حجة أصلاً ؛ فإن هذا لم ينقله أحد من أهل العلم الذين من شأنهم نقل هذا - لا من أهل الحديث، ولا من علماء الأخبار والتواريخ ، ولا من العلماء المصنفين في النسب نسب قريش أو نسب بني هاشم ونحوه - ، وذلك المشهد العسقلاني أُحدث في آخر المئة الخامسة .. لم يكن قديماً ، ولا كان هناك مكان قبله أو نحوه مضاف إلى الحسين [رضي الله عنه]، ولا

(١) قال أبو عبدالرحمن : الأفصح في مثل هذا : (بعد تسعين وأربع مئة) بدون (ال) ؛ لأنه لا معهود عند القارئ فتوضع من أجل ذلك ، ولأنها ههنا لا تقبل معنى الاستغراق .

حجر منقوش ولا نحوه مما يقال : (إنه علامة على ذلك) ؛ فتبيَّن بذلك أن إضافة مثل هذا إلى الحسين [رضي الله عنه] قول بلا علم أصلاً ، وليس مع قائل ذلك ما يصلح أن يكون معتمداً: لا نقل صحيح ، ولا ضعيف .. بل لا فرق بين ذلك وبين أن يجيئ الرجل إلى بعض القبور التي بأحد أمصار المسلمين فيدَّعي أن في واحد منها رأس الحسين [رضي الله عنه]، أو يدعي أن هذا قبر نبي من الأنبياء [عليهم الصلاة والسلام]، أو نحو ذلك ممَّا يدَّعيه كثير من أهل الكذب والضلال .. ومن المعلوم أن مثل هذا القول غير منقول باتفاق المسلمين»[١] .

ومن عناصر المسؤولية الفكرية التفطُّن لبواعث العمل التاريخي ذات التأثير في الحدث نفياً أو إثباتاً؛ فمن ذلك ما قرَّره الدكتور عبد العزيز الدُّوري بحقٍّ: أن الروايات اليمانية الموجودة في المصادر الأولى بمجموعها ذات طابع أسطوري[٢] .. وباعث الأسطورة مجابهة التاريخ العدناني الذي فيه النبوة والخلافة، بل بالغت الأسطورة فأخرجت نسب القحطانية عن الأب الواحد لهم ولعدنان، وهو إسماعيل الذبيح بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وإلحاقهم بهود عليه السلام، واستمر هذا الزعم إلى هذا اليوم ، بل أصبح عقيدة راسخة عند العوام، وافتخروا به في شعرهم العامي .. ولما كان التاريخ الموثَّق يجعل امتداد نسب الصحابي العدناني مثلاً مقارباً لعدد الآباء في امتداد نسب الصحابي القحطاني (وهذا لن يكون لو كان قحطان من ذرية هود عليه السلام ؛ لبعد العهد بين هود وإسماعيل عليهما السلام): اضْطرَّ بعض الكذبة إلى زيادة عدد الآباء في سلسلة نسب الأعلام القحطانيين، ومن هؤلاء الهمداني[٣]،

(١) **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية** ٤٥٥/٢٧ - ٤٥٧ .

(٢) **المدخل إلى التاريخ الإسلامي** للدكتور محمد فتحي عثمان ص٤١١ عن بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب للدوري .

(٣) قال أبو عبدالرحمن : لتتبع أكاذيبه مجال في هذا البحث إن شاء الله ، وفي كتابي (**العرب نسباً وشرفاً**) ، وفي أسفار كتابي (**الفنون العلمية**) .

وقد اغترَّ بكتبه علماء المشرق وعلماء المغرب في الأندلس؛ لأنهم وجدوا معلومات هائلة لا عهد لهم بها؛ فأداهم الاستطْراف إلى سرعة التصديق، ولم يفحصوها؛ وإنما فحصها قلة من المؤرخين المعاصرين كجواد علي، وهكذا بعض أبناء عصره وبلده؛ لإحالةٍ في كتُبِه غير معقولة، ولتوسُّع أداة المؤرخ المعاصر.. ومن ضحايا الاستطراف والانبهار بالعلم الجديد المخترَع (مع تمكُّن الهمداني في معارف لا دخل فيها للأهواء والعصبية) الوزير جمال الدين أبو الحسين علي بن يوسف القِفطي [- ٦٢٤هـ] رحمه الله تعالى .. قال عنه : «الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود بن سليمان (المعروف بذي الدُّمَيْنة) بن عمرو بن الحارث بن أبي حبش بن مُنقذ بن الوليد ابن الأزهر بن عمرو بن طارق بن أدْهم بن قيس بن ربيعة بن عبد بن عليان بن أرحب بن الدُّعام بن مالك بن ربيعة بن الدُّعام بن مالك بن معاوية بن صَعْب بن دومان بن بَكِيل بن جُشَم بن خَيْوان بن نوف بن همدان الأديب النحويُّ الطبيب المنجِّم الأخباريُّ اللغويُّ اليمنيُّ المعروف بابن الحائك .. نادرة زمانه، وفاضل أوانه ، الكبير القدر ، الرفيع الذِّكر ، صاحب الكتب الجليلة ، والمؤلفات الجميلة .. لو قال قائل : (إنه لم تُخرِج اليمنُ مثلَه) لم يزِلَّ؛ لأن المنجِّم من أهلها لا حظَّ له في الطب، والطبيب لا يَدَ له في الفقه، والفقيه لا يَدَ له في علم العربية وأيام العرب وأنسابها وأشعارها، وهو قد جمع هذه الأنواع كلَّها ، وزاد عليها؛ فأما تلقيبُه بابن الحائك فلم يكن أبوه حائكاً ، ولا أحدٌ من أهله ، ولا في أصله حائك ؛ وإنما هو لقب لَمْ يَشتهر بقول الشعر.. وكان جدّه سليمان بن عمرو المعروف بذي الدُّمَيْنة شاعراً؛ فسمي حائكاً لحوْكه الشعر»[1] .. ثم قال : «وكتابه في معارف اليمن وعجائبه وعجائب أهله المسمى بالإكليل ، وهو عشرة أجزاء : الجزء الأول في المبتدإ ونَسَب مالك بن حِمْيَر ،

(١) إنباه الرواة ٣١٤/١، كان الأصمعي رحمه الله ينبز أبا عبيدة معمر بن المثنى بابن الحائك.

والجزء الثاني في أنساب ولد الهَمَيْسع من ولد حِمْيْر ونوادر من أخبارهم ، والجزء الثالث في فضائل اليمن ومناقب قَحطان ، والجزء الرابع في سيرة حِمْير الأولى ، والجزء الخامس في سيرة حِمْير الوسطى ، والجزء السادس في سيرة حِمْير الأخيرة إلى الإسلام ، والجزء السابع في ذكر السيرة القديمة والأخبار الباطلة المستحيلة [هذا إيحاء منه بأن بقية الأجزاء حقائق ؟!] ، والجزء الثامن في القبوريات وعجائب ما وجد في قبور اليمن وشعر علقمة بن ذي جَدَن وأسعد تُبَّع ، والجزء التاسع في كلام حِمْير وحِكَمهم وتجارِبهم المروية بلسانهم الموضوع للرطانة عندهم ، والجزء العاشر في معارف هَمْدان وأنسابها ونُتَف من أخبارها .. وهو كتاب جليل جميل ، عزيز الوجود ، لم أر منه إلا أجزاء متفرقة وصلت إليَّ من اليمن ، وهي الأول ، والرابع يُعوزه يسير، والسادس، والعاشر، والثامن.. وهي على تفرقها تقرب من نصف التصنيف .. وصلت في جملة كتب الوالد المخلّفة عنه ، حصّلها عند مقامه هناك .. وقيل : إن هذا الكتاب يتعذَّر وجودُه تاماً ؛ لأن المثالب المذكورة فيه في بعض قبائل اليمن ، وأعدم أهل كل قبيلة ما وجدوه من الكتاب ، وتتبعوا إعدام النسخ منه ؛ فحصل نفصه لهذا السبب»[1] .

قال أبو عبدالرحمن : لم يثلب قبائل اليمن ؛ وإنما تعصَّب لها بالأكاذيب ضد العدنانية، ولم يذكر شيئاً عن نسب العدنانية وأخبارها .. وغفل القفطي رحمه الله عن تكذيب من كذَّبه في عصره ، وغفل عن وضعه الحديث مثل (أُمْطِرَتْ أرض عُقيل ذهباً !!) ، وغفل عن النَّظم البارد بلغة عدنانية في أخبار يُدَّعى أنها قبل وجود اللغة العدنانية، وغفل عن الأخبار المُحالة ، وغفل عن المصادر المدَّعاة ولا وجود لها ، وغفل عن الإضافات في نسب القحطانية مما لم يخترعه غيره ، وغفل عن مصادر

(١) إنباه الرواة ٣١٧/١ - ٣١٨ [قال أبو عبدالرحمن: لم أقل: (المصدر السابق) ؛ لأن هذه الجملة في حجم (إنباه الرواة) ، وقولك : (المصدر السابق) من أجل الاختصار إذا طال العنوان] .

أسطورية له على نسق كتابه الإكليل ، وغفل عن شعر أضافه إلى شعراء شماليين مشهورين لا يوجد في دواوينهم من قصائد مُخْترعة أو أبيات ملحقة ، وغفل عن تحوير الشعر المعروف المشهور ؛ ليكون ذا دلالة يمنية ، وغفل عن تعمُّده نسبة شعرٍ شمالي مشهور إلى قائل يمنيٍّ مشهور أو غير مشهور مع التغيير .. وقال القفطي رحمه الله تعالى أيضاً : «وله من التصانيف الشاذة إلى البلاد ما يكثر ولا يكاد يعرفه أهل اليمن ، وله كتاب القصيدة الدامغة النونية على معدٍّ والفرس ، وهي قصيدة طويلة ، وقد شرحها ولده .. فيها علم جمٍّ ، ولله الحمد أُحْضِرت في جملة الكتب اليمنية أيضاً .. رحم الله مخلِّفها ، وهذه القصيدة أحدثت له العداوة من النزارية والمتنزرة ، وله شعر جميل كثير»[1] .

قال أبو عبدالرحمن : الكذب المصنوع ، والشِّعر المتعصِّب غيرُ ممتنع أن يكون أرضية لِعِلْم جمٍّ قد يصحُّ كاللغة وتحديد الأماكن ، وقد يكون اختراعاً من خصوبة خيال كالأكاذيب في التاريخ والأنساب .. وذكر أن وفاته سنة ٣٣٤هـ[2].

قال أبو عبدالرحمن : حسبي في هذه العجالة أن أذكر شيئاً من يسير أكاذيبه لا من شنيعها .. قال الهمداني : «وكان همدان يسمَّى تلاد الملك ، وفي ذلك يقول ابن الزبير الأسدي يؤنب مضر في هدم[3] دار أسماء بن خارجة :

فلو كان من همدان أسماء أظهرت

كتائبُ من همدان صُعْرَ خدودِها

لهم كان مُلْك الناس من قبلِ تُبَّعٍ

تقُود وما في الناس حيٌّ يقودُها

(١) إنباه الرواة ٣١٨/١ .

(٢) انظر إنباه الرواة ٣١٩/١ .

(٣) في الأصل: (تقدم).. قال أبو عبدالرحمن : هو تطبيع، أو خطأ في الأصل، أو الخطأ من المحقق.

وذكر أن بَتَعا الملك ابن ليزيد بن عمرو بن همدان[١]» .. وقال الأستاذ محب الدين الخطيب معلِّقاً على نص الهمداني : «أسماء المذكور في البيت الأول هو أسماء بن خارجة الفزاري ، ولابن الزبير مدائح فيه كانت مذكورة على كل لسان ، ومنها داليته انتزع منها صاحب الإكليل هذا الشاهد ، وأولها :

تأوَّب عينَ ابن الزبير سهودُها

وولَّى على ما قد عراها جهودُها[٢]

لكن البيتين في رواية أبي الفرج :

فلو كان من قحطان أسماء شمَّرتْ

كتائبُ من قحطان صُعْرٌ خدودُها

ثمانون ألفاً دين عثمان دينهم

كتائب فيها جبْرئيل يقودها

قال أبو عبدالرحمن: ليس في البيتين ذكر لهمدان وتُبَّع ؛ فهذا إغارة متعمَّدة على شعر عدناني شمالي ، وشاعر شمالي عدناني ، وأضاف من عنده بيتاً ضعيف المستوى فيه إحالة؛ إذ جعلهم ملوك الناس؟!.. وما علم التاريخ غير ملوك التبابعة وآخرين معروفين بأنسابهم من غير همدان ، وهم لا يتجاوزون مخاليفهم في اليمن ؛ فأين الملك للناس ؟!!.. ثم حَوَّر قحطان في الشعر المسروق إلى همدان، وأفسد الشعر بالإقواء في البيت الأول؛ إذ جعل القافية مكسورة وهي مرفوعة (صعرٌ خدودُها) .. اضطر لذلك لأن النحو لم يطاوعه بعد التحريف !.

قال أبو عبدالرحمن : وهمدان من شيعة علي رضي الله عنه على مدى التاريخ، وابن الزبير يذكر قحطانيين عثمانيين ، ولمَّا حرف الهمداني قحطان

(١) الإكليل ١٠/١٠ - ١١ .

(٢) أحالها المحقق إلى **الأغاني** ٣٧/١٣ بولاق .

إلى همدان اخترع الكذبة الصلعاء : أن لهم ملك الناس من قبل تُبَّع ؛ فهل هذا المغير في وَضَح النهار أهل للثقة ؟!.. ثم لا بد ههنا من وقفة للمقارنة حول نسب هَمْدان؛ فهو هَمْدان بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبإ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .. ولقب همْدان أوسلة .. هذا نسبه عند ابن الكلبي[١]، ولقَّب الهمداني همدان (أوسلة بن ربيعة) نيلاً ، وفي بعض النسخ بيلاً[٢].

وأما هَمْدان فوصفه الهمْداني بقوله : «وكان همدان يسمى تلاد الملك»[٣] ، وقال عن همدان «وأولد أوسلة ؛ فأولد أوسلة نوفاً وليس بمعروف»[٤] ، والظاهر أن غيرَ المعروف (أوسلة) ؛ ولهذا سقط في النسب الذي ساقه القِفْطي . ومصدره الهمداني بلا ريب ، وليس الذي هو غير معروف نوفاً ؛ لأنه قال عن نوف : «وفيه العدد والعز»[٥]، وورد (خيوان) باسم (حُبران) ، وفسَّر معنى (بكيل) بأنه الزعيم[٦]، ووصف صعب بن دومان بأن فيه العدد»[٧]، ووصف الدعام بن مالك بن ربيعة بن

(١) نسب مَعَدّ واليمن الكبير ٢/٥٠٨ - ٥٠٩ .

(٢) الإكليل ١٠/٦ .. وقال : «وقال بعض النُّساب لا اسم له غير همدان ، ولكنه أولد أوسلة» .
قال أبو عبدالرحمن : طبع من الإكليل الجزء الأول بتحقيق محمد بن علي الأكوع ، وقبل ذلك صدر بإشراف فؤاد سيد ، وليس هو عندي الآن ، ثم صدرت طبعة ثانية بالعراق ولم أطلع عليها بعد .. وطبع الثاني بتحقيق الأكوع أيضاً طبعتين .. وصدر الجزء الثامن بتحقيق انستاس ماري الكرملي ، وصدر العاشر بتحقيق محب الدين الخطيب .. رحم الله جميع المسلمين منهم .. ثم صدرت أخيراً هذه الأجزاء الأربعة بتحقيق الأكوع .

(٣) الإكليل ١٠/ ١٠ .

(٤) الإكليل ١٠/ ٧ .

(٥) الإكليل ١٠/ ١١ .

(٦) الإكليل ١٠/ ١٠٨ .

(٧) الإكليل ١٠/١٣٢ .

مالك بأنه الدعام الأصفر ، وكنَّاه بأبي الصعب ، وسمى أرحب بن الدعام مُرَّةَ ، وذكر أنه مَلَك ، وذكر قول حكيم بن عياش الكلبي :

وشمر وابنا ذي نواس ووائل وجفنة والديان وابنا أبي صعب[١]

وفسر معنى أرحب بأنه أوسع في الشرف[٢]، ووصف الأزهر بن عمرو بالأكبر[٣]، ووصف منقذ بن الوليد بأنه أبا خش ، وفي نسخة (أبا حبيش) ، وذكر الحارث ابناً لمنقذ ، ووصف يوسف بن داوود بأنه المقرا ، وفي نسخة المفدا[٤]، وذكر أن أحمد بن يعقوب أولد الحسن لسان اليمن[٥] [يعني نفسه] .

وذكر الإمامُ أبو محمد ابن حزم رحمه الله تعالى الفقيهَ ابنَ حي ؛ فقال : «صالح بن مسلم بن حيان - أخي حيٍّ - بن مسلم بن شفي بن هُني بن رافع بن مصلى بن عمرو بن ماتع بن صهلان بن ثور بن مالك بن معاوية بن دومان بن بكيل ابن جشم بن خيران»[٦] ، والإمام الحسن ابنٌ لصالح بن حي .

وذكر يزيد بن قيس بن تمام بن مبعوث بن كعب بن عُلوي بن عليان بن أرحب صاحب شرطة علي رضي الله عنه[٧]، وقبل الإمام ابن حزم ذكر ابن الكلبي رحمهما الله أن اسم أبي قيس ثمام بالثاء المثلَّثة[٨].

(١) **الإكليل** ١٠/١٣٥ و١١٢ .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : الأرحب أعم من الشريف ، وضَبْطُ الأعلامِ ، والبحث عنها بعد الفراغ إن شاء الله من كل ما يتعلق بالأسطورة .

(٣) **الإكليل** ١٠/١٩٥ .

(٤) **الإكليل** ١٠/ ١٩٧.

(٥) **الإكليل** ١٠/ ١٩٨ .

(٦) **جمهرة أنساب العرب** ص ٢٩٦ .

(٧) المصدر السابق ص ٢٩٦ .

(٨) **نسب معد واليمن الكبير** ٢/٥٢٥ .

ومرَّ في نسب القفطي رحمه الله للهمداني عفا الله عنه أنه (الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داوود بن سليمان (ذي الدُّمينة) بن عمرو بن الحارث ابن أبي حبيش بن منقذ بن الوليد بن الأزهر بن عمرو بن طارق بن أدهم بن قيس ابن ربيعة بن عبد بن عَلْيان بن أرحب بن الدعام بن مالك بن ربيعة بن الدعام بن مالك بن معاوية بن صعب بن دومان بن بكيل بن جُشم بن خيِّوان بن نوف بن همدان.. وقد مر أن الهمداني توفي عام ٣٣٤هـ، وبينه وبين همدان(٣١) أباً ؛ فلننظر سلسلة أنساب بعض الأعلام ؛ لنقارن ، فنجد عند ابن الكلبي الفقيه القاسم [- ١٤١هـ] بن الوليد بن سلمة بن خارج بن كريب بن أيفع بن زيد بن المنذر بن مالك بن زيد بن ذي بارق بن مالك بن جُشم بن حاشد بن جشم بن خيران بن نوف بن همدان»[1].. وهو عند ابن حزم (الوليد بن مسلمة بن جارح) و (المنذر بن الجندع بن مالك بن زيد) ، وأن اسم ذي بارق معاوية .

قال أبو عبدالرحمن: إذا رجعنا إلى النسب عند الهمداني وجدنا في عمود نسبه زيادة (أوسلة) ، وأسقط أبا حبش بن منقذ ، وجعل مكانه الحارث بن أبي حبش ؛ فاستوى الأمران بإسقاطه أبي حبش وإثباته أوسله ؛ فصار آباء الهمداني إلى همدان كما هي عند القفطي اثنين وثلاثين أباً ، وكل مئة عام لها ثلاثة آباء ، فهؤلاء الآباء يحصون بـ ١٠٦٦هـ نطرح عمر الهمداني إلى الهجرة النبوية المباركة الكريمة ؛ فيكون هكذا ١٠٦٦ - ٣٣٤ = ٧٣٢ .. أي يكون همدان موجوداً قبل الهجرة بمقدار ٧٣٢هـ عاماً، ولا تأثير للاختلاف في تاريخ وفاة الهمداني، ونجد الفقيه القاسم بن الوليد بينه وبين همدان سبعة عشر أباً يمثلون ٥٣٧ عاماً ؛ فنطرح عمر القاسم

(١) قال أبو عبدالرحمن: يأتي إن شاء الله إيصال همدان إلى قحطان بالتسلسل، ويأتي إن شاء الله ضبط كل عَلَمٍ مر في سلاسل النسب ضبطاً نصِّيُّاً ؛ لكثرة التصحيف والتحريف .

المتوفى عام ١٤١هـ منذ وفاته إلى الهجرة النبوية هكذا ٣٥٧ - ١٤١=٢١٦ .. ونأخذ ما بين الهمداني وقاسم ثم نضيفه إلى حاصل الطرح ، وما بينهما هكذا : الهمداني توفي عام ٣٣٣ - ١٤١هـ؛ فالمطروح وفاة القاسم = ١٩٢ تضاف إلى حصيلة الضرب السابقة هكذا ٢١٦+١٩٢= ٤٠٨ ؛ فهمدان على هذا عاش تقريباً عام ٤٠٨ قبل الهجرة لا عام ٧٣٢هـ كما في نسب الهمداني .

والحسن بن حي رحمه الله ولد عام ١٠٠ وتوفي عام ١٦٩هـ[١] وبينه وبين همدان عشرون أباً تُقَدَّر بـ ٦٦٧ عاماً نطرح منها من وفاة صالح إلى الهجرة هكذا ٦٦٧ - ١٦٩ = ٤٩٨ فهمدان وجد عام ٤٩٨هـ قبل الهجرة .. ولا نكتفي بهذا ، بل نعود إلى يزيد بن قيس صاحب شرطة علي رضي الله عنه الذي عاش في حدود ٣٠هـ وبينه وبين همدان عشرون جداً بـ ٦٦٧ عاماً ؛ فهو مقارب لمن سبقه .. ولا أكتفي بهذا؛ فهمدان عند جمهور النسابين هو «همدان بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة ابن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبإ بن يشجب بن يعرب بن قحطان» ، ويشترك معه في النسب «بنو الخزرج وبنو الأوس - وذريتهم الأنصار رضي الله عنهم - ابني حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد (أُدَد) بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبإ بن يشحب بن يعرب بن قحطان»[٢] ، فما بين همدان وقحطان ١٢ أباً .. وإن ربطناه في سلسلة النسب لأنه أبٌ لأعقابه كان الآباء ١٣ أباً ؛ إذ ١٢ أباً عن أربعة قرون كل قرن ١٠٠ ؛ فالجميع ٤٠٠ عام إذا ضمت إلى المعقول

(١) انظر عنه **تهذيب الكمال** للمزي رحمهما الله تعالى ١٩٠/٦ .

(٢) انظر جمهرة **أنساب العرب** لابن حزم ٣٣٢ وما بعدها ، **وأنساب الأنصار** لابن قدامة رحمه الله ورقة ب/ ٧ وما بعدها / الخزانة العامة بالرباط ، وهذا مذهب الجمهور ، والاختلاف يسير ، وهو الموافق لتفريع الدمياطي بكتابه **أخبار الخزرج** / الآصفية .

من عصر همدان ٤٣١ + ٤٠٠ = ٨٣١ قبل الهجرة .. ويكون عمرو مزيقياء صاحب انفجار السد الأخير من أبناء ٧٤١هـ وهو قرن حارثة ، وأبي ثعلبة ، وأبيه عمرو .. وهذا هو المعقول جداً ؛ لأن أغزر الدراسات أثبتت أن انفجار السد الأخير قبيل مولد عيسى عليه السلام ، وقد ذكر الإمام ابن قدامة رحمه الله تعالى أنس [رضي الله عنه] بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن عدي بن غُنم بن عدي بن النجار (تيم الله) بن ثعلبة بن الحارثة بن الخزرج»[1] ؛ فالآباء إلى قحطان ٣٢ أباً يمثّلون ١٠٦٦ عاماً يطرح منها عصر أنس رضي الله عنه في الإسلام ٨٠ عاماً تقريباً - وهو عاش رضي الله عنه مئة عام ، فكان الحاصل ١٠٦٦ - ٨٠= ٩٨٦.. أي قبل الهجرة، وهي مدة تليق بسليمان عليه السلام وملكة سبإ؛ لأن نسب بلقيس - إن كانت هي المعاصرة لسليمان عليه السلام - بعيدة النسب جدّاً عند اليمانية، ولأن تحديد ملك سليمان عليه السلام بعام ١٠١٥ / ق م عن العهد القديم وليس دقيقاً في ذلك ، ومن بعد سليمان عليه السلام من أنبياء بني إسرائيل قبل عيسى عليه السلام قلة ، وبلقيس فيما يقال هي : (بلقيس بنت إيلي أشرح بن ذي جدد بن إيلي أشرح بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبإ الأصغر .. من ولده تبع (وهو تِبان ، وهو أيضاً أسعد أبو كرب) بن مَلْيكرب (وهو تبَّع) بن زيد (وهو تبع) ابن عمرو (وهو تبع ، وهو ذو الأذعار) بن أبرهة (وهو تبع ، وهو ذو المنار) بن الرائش بن صيفي .. قال الإمام ابن حزم رحمه الله : «فولدُ تُبَّع أسعد الذي ذكرنا : حسان ذو مُعَاهِر (تُبَّع) وزُرعة ، وهو ذو نواس الذي تَهوَّدَ ، وهَوَّدَ أهل اليمن ، وتسمَّى يوسف ، وقتل النصارى أهل نجران .. وجهل بن أسعد (دخل ولدُه في خيوان) ، وعمرو بن أسعد (وهو موثبان) ، ومعدِي كَرب بن أسعد .. يُقال : إنَّ سعيد بن قيس

(١) نسب الأنصار ورقة ب / ٧ وما بعدها .

من ولده ؛ ولا نعلم لمَعْدي كَرب هذا بقيَّةً إلا عبدالله بن هلال الذي كان يقول : إنَّه صديق إبليس ، وكان في زمن الحجَّاج .. ومن هؤلاء التَبابعة شمر يرعش بن ياسر يَنعم بن عمرو ذي الأذعار وإفريقيس بن قيس بن صيفي ؛ وبلقيس بنت إيلي أشرح بن ذي جدد بن إيلي أشرح بن الحارث بن قيس بن صيفي .. وفي أنسابهم اختلافٌ وتخليطٌ ، وتقديم وتأخيرٌ ، ونقصانٌ وزيادةٌ .. ولا يصحُّ من كُتُب أخبار التَّبَابعة وأنسابهم إلا طرفٌ يسير ؛ لاضطراب رُواتهم وبُعدِ العَهْد»[١] .

وسبأ الأصغر هو ابن كعب بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن عوف بن حمير بن قطن بن عوف بن زهير بن أيمن ابن حمير بن سبإ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[٢] .

وذكر الإمام ابن حزم من حمير : «حوشب ذو ظُليم بن عمرو بن شرحبيل بن عبيد بن عمرو بن حَوْشَب بن الأظلوم بن ألهان بن شداد بن زرعة بن قيس بن صنعاء ابن سبإ الأصغر بن كعب بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن عوف بن حِمير بن قطن بن عوف بن زهير بن أيمن بن حِمير بن سبإ .. قُتل مع معاوية [أي في جيشه] بصِفين رحمهما الله»[٣]؛ فالآباء هنا ٣٣ = ١٠٩٦ عاماً .. وعلى هذا يكون سبأ الأصغر جد بلقيس في ٣٣٣ قبل الهجرة ، وهو قريب لنا جداً بعيد عن عصر سليمان عليه السلام : فإما أنها

(١) **جمهرة النسب** لابن حزم ص٤٣٨ - ٤٣٩ .. قال أبو عبدالرحمن : بل لبعد المكان ، والاختلاط بالأمم، وربما كان قحطان أبعد نسباً من عدنان عن أبيه إسماعيل عليه السلام؛ لأن بلاد التدوين مهما حصل في بعضها التعادل بين الأحفاد المتعاصرين من ذرية عدنان وقحطان يوجد أحياناً زيادة في آباء قحطان ، ولكن ليس بالشكل الجنوني عند الهمداني.

(٢) انظر **جمهرة النسب** ص٤٣٢ - ٤٣٣ .

(٣) **جمهرة النسب** ص٤٣٢ - ٤٣٣ .

بلقيس أخرى، وإما أن الأنساب غير محرَّرة ، وإما أن في الآباء عدداً من المعمَّرين .. وزيادة واحد في الأنساب مثل الهمداني لا يوثق بها .. وأما ما بين عدنان وقحطان إلى أبيهما إسماعيل عليه السلام فلا يعلمه إلا الله سبحانه .. ومعاوية رضي الله عنه العدناني المعاصر لحوشب ذو ظليم هو معاوية بن أبي سفيان حرب رضي الله عنهما بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .. وبين معاوية رضي الله عنه وعدنان عشرون أباً ، فالجميع ٦٦٦ عاماً ينقص منها خمسون عاماً عمر سفيان رضي الله عنه في الإسلام تقريباً هكذا ٦٦٦ - ٥٠ + ٦١٦ عاماً قبل الهجرة .. وبين حوشب وجده قحطان ٣٣ جدًّاً تُمثِّل (١١٠٠) عاماً قبل الهجرة .. مع العلم أن العدنانية أقدم وأشهر في الذكر بالعهد الجديد باستثناء الترويج لعلاقة (يقطان) بقحطان - وهي علاقة وهمية -، في العهد القديم في التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام .. والذي أحققه في هذا الاختلاف عددٌ من الأمور :

أولها : أن قاعدة أهل النسب تجعل لكل مئة عام ثلاثة آباء ابتداء بالابن الذي بلغ الحلم ، فإذا قلنا : (فلان «وقد بلغ الحلم) بن متعب بن عبدالله خادم الحرمين الشريفين بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل بن تركي آل سعود) صار عندنا ستة آباء لكل قرن ثلاثة آباءٍ ؛ فهما مئتا عام يُطرحان من ١٤٢٩هـ هكذا ١٤٢٩ - ٢٠٠= ١٢٢٩هـ ، والإمام تركي رحمه الله قتل عام ١٢٤٩هـ ؛ فالابن الذي بلغ الحلم يدرك آخر حياة جده الأعلى .. هذه قاعدة مطَّردة مستقرة غير منخرمة أخذ بها النسابون .

وثانيها : أن هذه القاعدة ثابتة في أعمار أمة عبدالله ورسوله محمد ﷺ المستقِرَّة.

وثالثها : أن القاعدة مستقرة أيضاً في عهود طول الأعمار ما بين ألف سنة إلى خمس مئة سنة إلى مئتي سنة ، ولكن الولد الذي بلغ الحلم يصل إلى آخر عمر جده الأبعد ، ويدرك حياة عدد من أجداده أو أعمامه الذين هم ذرية جده الأبعد والابن يدرك أول عمر أبيه الأبعد المعمَّر .

ورابعها : أن أعمار الصحابة رضي الله عنهم فيما بينهم وبين عدنان وقحطان متقاربة جداً لولا افتراء بعض ذوي الأساطير من اليمنية .

وخامسها : أن سلسلة الآباء في الجملة محفوظة دليلها تواتري متوارث لا لبس فيه فيما بين الصحابي رضي الله عنه وعدنان أو قحطان؛ فقصور عهد بلقيس عن عهد سليمان عليه السلام - إن كانت هي صاحبة سليمان عليهما السلام - يزول بمعمرين في حفدتها أو آبائها يُوصِّلونها إلى هذا العهد.

وسادسها : ما بعد عدنان وقحطان من الآباء لا يعلمهم إلا الله ، ولكن نسب جدهما إسماعيل الذبيح عليه السلام معروف استئناساً بالتوفيق بين العهد القديم والعهد الجديد ، وهو بعد ثمود بقرون بيقين .

قال أبو عبد الرحمن : وعن سبب هذه الزيادة في آباء القحطانيين قال الهمداني : «وكذلك سبيل نُسَّاب العراق والشام يقصرون في أنساب كهلان ومالك ابن حمير ؛ ليضاهوا بها عدة الآباء من ولد إسماعيل عليه السلام ، وامتنعت عليهم أنساب ولد الهميسع ؛ إذ كانت مزبَّرة في خزائن حمير ، وكذلك أنساب الملوك من ولد عمرو بن همدان فأهملوها كي لا يقاس بها أنساب باقي همدان ؛ وكذلك خالفوا في أصلٍ من نسب ناعط ، والمرانيون باليمن ينكرون هذا التدريج، ويعملون على ما قيده آباؤهم من نسبهم وحفظوه كابراً عن كابر ، ورأيته عندهم بخط أبي علكم المراني وكان علامة اليمن في عصره ، وكان في خلافة هارون ، وهذا نسق

نسبهم من عصرنا : الوجه منهم اليوم معاذ بن معاذ بن أبي علكم [فأولد معاذ] محمد بن معاذ بن علكم [بن] محمد بن معاذ بن أبي بكر بن شراحيل بن معاذ بن عريب بن عمير ذي مران القَيْل الذي كتب إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بن مرثد بن عمير بن عبيد بن أفلح بن عمير ذي مران الأوسط بن زيد بن مالك ذي التاجين بن أبي كرب بن زرعة بن نهيا بن نصر بن منهب بن منجد بن حمرة ذي مران الأكبر بن مرثد إل بن حجر ذي ينوف بن عمرو بن ثور (وهو ناعط) ابن سفيان بن أشيع يمتنع بن ذي بتع بن موهب إل بن بتع بن حاشد، وصيروا[1] بين سفيان وبين أشيع علهان نهفان .

قال أبو محمد: أما هذا التدريج فهو المعمول عليه؛ لما يشهد لهم به في الذوي مران الثلاثة مساند الحجارة القديمة ، وبيِّنةُ الصهورة بينهم وبين أشراف همدان وحمير .. إلا أنهم أدخلوا نسبهم بعد في حاشد بن جشم ، لَمَّا كانوا بينها وملوكاً عليها[2] ، وقلَّ عدد بيتهم من همدان بين حاشد وبكيل ، وكان قدماء الجميع يرونهم أمة فوق ؛ وإنما يقلُّ العدد في الأبيات الشريفة لقصر نفوسهم دون الأكفاء؛ فإذا أسعف الكفء كاد ألا يسعف كل ما يتقدم بمثله إلى الأشراف من ألوف المال والعُقُدِ الشريفة والجواري النفيسة من فرس وروم وغير ذلك .. وأقل ما رأيت من صدقات المرانين واللعويين المؤجلة ألف دينار وست جوارٍ فُرْسٍ وست جوار روم ، ويقدم مثل بعض ذلك؛ فمثل هذا الذي يذهب بأموالهم ويقل عديدهم[3]، وذاك سبيل بيوتات حمير الرفيعة وكذلك اللعويون والسلمانيون من أرحب وآل خيوان والمعيديون

(١) قال أبو عبدالرحمن : من الذي صيَّر ذلك ؛ فهو زيادةُ جدٍّ من صالحِ دعاوَى الهمداني ١٩.. وسيأتي هذا التسلسل إن شاء الله .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : هذه دعوى جديدة ؛ لإسقاط المعروف ، وتسويغ الكذب .

(٣) قال أبو عبدالرحمن : سبحان الله ما علاقة هذا الهذيان بطول الأعمار ١٩..

والرضوانيون وأبيات حاشد التي قلَّت مثل بني ضمام وآل مرب وشبام وغيرهم .. وأما باقي همدان من حاشد وبكيل فيكثرون الازواج عن خِفَّة الصدقات[١] ، فثري عددهم .. ولما أدخلوا نسبهم في حاشد بن جشم لم ينتفوا من علهان ، لكن قالوا : (ثور «وهو ناعط» بن سفيان بن علهان بن نهفان بن أشيع يمتنع بن ذى بتع بن موهب إل بن بتع بن حاشد بن جشم[٢] .. وحاشد بن جشم لم يكن في ولده بتع قط ، وكذلك هو بخط أبي علكم : «سفيان بن علهان نهفان ابن أشيع» ، وإنما قالوا علهان نهفان فجعلوه اسماً واحداً؛ لما سمعوا فيهما من قول تبع بن أسعد :

وشمر يرعش خير الملوك (م) وعلهان نهفان قد أذكر[٣]

وإنما أراد أن يُعرِّف واحداً بالثاني ؛ فلما لم يمكنه أن يقول «العلهانان» كما تقول العرب «الزهدمان» في زهدم وكردم العبسيَّين و«العمران» في أبي بكر وعمر [رضي الله عنهما] و «الرجبان» و «الصفران» و «البصرتان» في البصرة والكوفة قال «علهان نهفان» .. فأولد عمير ذو مران عربيا (وقد ذكرنا أولاده) والاسود ومران (وهو القائل في رسول الله ﷺ يرثيه ويؤيد أبا بكر في أيام الردة) :

إن حزني على الرسول طويل ذاك مني على الرسول قليل

قلت والموت يا أُمام كريه ليتني مت يوم مات الرسول

بكت الأرض والسماء عليه وبكاه خليله جبريل

(١) قال أبو عبدالرحمن: أي لتخفَّ الصدقات عليهم .. وهذا من جنس ما مضى من الهذيان ، وأما ثراء العدد بكثرة الزوجات فصحيح ، ولكن ذلك لا يعني طُول العمر أو قصره !.

(٢) قال أبو عبدالرحمن : على الهمداني أن يفرح بذلك ؛ لأن فيه زيادة كثيرة ، ولكن الهمداني يتمظهر بأنه أمام معضلات واختلاف بين العلماء في النسب !؟.

(٣) قال أبو عبدالرحمن : تعالى الله في ملكه .. أصبح النظم العدناني المتأخر الركيك الخليٌ من الشاعرية واللغة شعراً حميراً محفوظاً !؟.

كان فينا هو الدليل عليه ... كل هذا دليله التنزيل
يالها رحمة أصيب بها الناس ... تولت وحان منها الرحيل
جدعت قومي الأُ نوفَ وأجرت ... دمع عين فللجفون همول
ليس للناس يا إمام من الأمر ... (م) فتيل وأين عنك الفتيل
إنما الأمر للذي خلق الخلق ... [م] وفي خلقه عليه دليل
قل لهذا الإمام عضدك في الحرب ... (م) على الناس حاشد وبكيل
إن همدان يمسكون هدى الله ... ومرّان بالوفاء كفيل
إن تكن جولة فنحن لك اليوم ... (م) ملاذ إلى ذراه تؤول
ديننا ملة النبي ولا قول ... (م) لنا غير ما نراك تقول
إنما اليوم مثل أمس وهمدان ... (م) مع الحق حيث زال تزول
أي قوم هم إذا نزل الموت ... (م) وصاروا كأنهم إكليل
ثم نادوا بأنهم قهروا الناس ... (م) كما يقهر البكارَ الفحول
لا يردُّ الجريحَ نائبةَ الجَرْح ... (م) ولا الحي يزدهيه القتيل

والمجالد بن ذي مران[1] ، وهو القائل لمعاوية [رضي الله عنه] وقد رأى تمويهه وتمويه عمرو على الناس في دم عثمان [رضي الله عنه] ولطخهم به عليّاً صلوات الله عليه وعلى آله وسلامه :

(١) قال أبو عبدالرحمن: هذا القَيْل العَلَم المشارك بمشاعره وشعره في مدح رسول الله ﷺ وتأييد أبي بكر الصديق [رضي الله عنه] لا يعرف أحد من العلماء عنه شيئاً ولا عن شعره من أهل بُلْدان التدوين التاريخي المبكِّر والمعايشة للأحداث.. وهذا الشعر تبارك الله أحسن الخالقين نظم باردٍ خالٍ من اللغة وروح الشعر لا يُعرف مثله ألبتة في ذلك العصر.. ولا يوصف بأنه شعر مباشر بل نظم لا يعني شيئاً؛ وأي معنى في المدح لزوالهم وزوال الحق، ثم هذا التشبيه العظيم (كما يقهر البكار الفحولُ)؟!!.

يا بن هند جشَّمت نفسك أمراً ... جُرْتَ فيه وقال صحبك هجراً
إن عمْراً وعتبةٌ حين والاك ... (م) ومروان والوليد وَبُسْرا
وأبا الأعور الألى سفهوا اليوم ... (م) علياً وقلَّدوا الامر عَمْرا
لو يذوقون طعم ما اجترموهُ ... وجدوا طعم ذلك القولِ مُرًّا
ولعمْريْ لئنْ هُمُ شتموهُ ... إنه أظهر الكواكب ظهرا
وله طارت القلوب إذا(م م م) ... السمر خلال العجاج يُحْسبن جمرا[1]
خُصي الفحل فاستقاد وما(م م) ... زال يرى الناس والفوارس نكرا
فارس يضرب الكتيبة بالسيف ... (م) دراكاً ويطعن القوم شزرا
شهد الفتح والنضير وأحداً ... وحنيناً وخيبراً ثم بدرا
وله في قريظة الخطر الأعظم ... (م م) إذ ردّت الفوارس كسرا
وله حرمة الولاء على الناس ... (م) بِخَمٍّ وكان ذا القول جهرا[2]
ثم يوم البراة أُرسل بالوحي ... (م) فهذا من أعظم الناس قدرا
وله كل موطن يوجب(م م) ... الجنةَ جدعاً لشانئيه وعقرا
لا كمن باع دينه أبخس(م م م) ... البيع بمصر ومن تجرع خمرا
وأبو الأعور الشقيّ ومروان ... وَبُسْرٌ قد شاركوا الإثم عمْرا[3]»

(١) قال أبو عبدالرحمن: وضعتُ علامة التدوير ثلاث ميمات؛ لبيان أن حاجة الشطر إلى ثلاثة أحرف.

(٢) يعني حديث (غديرخم) .

(٣) **الإكليل** ١٠/٣٠ - ٣٥ .. قال أبو عبدالرحمن: قِمَّة السليقة والفصاحة ومفردة ذلك العصر لا يليق بها عناصر هذا النظم ؛ فالضرورات كثيرة جداً مثل (سفهوا) بتخفيف الفاء لأجل الوزن، والصواب (سفَّهوا) ، والإشباع الكثير في مثل هاء (ما اجترموهُ) ، وكثرة التدوير .. ومن المعاني الساذجة : طعم ذلك القول مُرّاً ، وأظهر الكواكب ظهراً ، والفحل لما خُصي .. إلى ذِكْرا (!؟) ، ويطعن القوم (شزراً) أي بعيونه لا برمحه !؟ ، وكسْراً ، ثم هذه الإفادة المتكلَّفة من سورة

وقال أيضاً : «وريْدَة دار اللعويين ، وأكثر من بها ولد علهان بن ذي كرب بن زيد بن الذريع بن الحارث بن يحضب وهو رداد بن الخليل بن مالك بن قيس بن شرحبيل بن رفاعة بن حمزة بن نمران بن ملحم ذي لعوة بن علمان بن سوران بن ربيعة بن بكيل .. هذا النسب عن اللعويين بريدة . وكذلك هو في زُبُرهم .. وابن الكلبي وغيره من النساب يقول: (ذو لعوة الأصغر (هو أبو كرب) بن زيد بن سعيد بن يحضب بن أبا كرب بن زرعة بن عامر بن ذي لعوة بن مالك بن معاوية بن صعب بن دومان بكيل) بين هذين النسبين في التدريج إلى همدان سبعة آباء؛ لأن هفان هو ابن ذي لعوة الأصغر؛ فإذا قسنا هذا النسب (وهو جاهلي)، وجدناه إلى هودٍ [عليه السلام] ما يقارب الأربعين من الآباء ، وكذلك ما أتى به نساب حمير من كثرة عدد الآباء ممن قام عليه السلام إلى هود[1] بما أتى به الكلبيون[2] ونُسَّاب البلاد .. وجدناهم اختصروا أنساب الناس ، وقلَّلوها، وطرحوا منها .. حتى ربما أتت من العدد بأقل من نصف ما ذكرنا ؛ وذاك لإحدى علتين لا ثالثة لهما : وإما[3] أن يكون مع أنساب الناس شيء من أنساب العرب نقلاً عن عرب الحجاز، وأما اليمانية فقد

يوسف مع صرف (مصر) هكذا (مصرٍ) ، وتجرَّع خمراً !؟.. وبغض النظر عن هذا التشيُّع المتكلَّف من أجل تشيُّع همدان (وكانوا في ذلك الوقت أنصار علي رضي الله عنه ، وليسوا ذوي تشيُّع مذهبي) ففيه ما لا يجوز شرعاً عند الشيعة الأوائل من إيجاب الجنة بالعمل ؛ وإنما ذلك برحمة الله .. إن هذا النظم البارد على غرار نظم الهمداني الذي صرح به أنه من شعره ، وعلى غرار أشباهه في كُتبه مما جَعَله لِشعراءَ غيرِه ، وهو من ركاكة أدائه.

(١) قال أبو عبدالرحمن : المفروض أن تكون (عليه السلام) بعد هود .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : هذا السياق وما قبله مُهلهل، والنسابة كلبي واحد هو ابن الكلبي ، وأبوه المفسِّر مشارك في علم النسب ، والحفيد راوية عن أبيه ، ويستقيم الكلام هكذا : (بخلاف ما أتى به ابن الكلبي ونُسَّاب البلدان).

(٣) الواو فضول .. وفي الأصل (وأما) .

كان ذهب علمهم في أيام بخت نصر لفتكه بقيولهم في عهد أسعد تبع ، وفي أيام حسان ابن أسعد ، وتخريبه حصونهم، وقتل حسان لجديس التي أفنت طسم؛ ولما وقع في نسب الأزد وقضاعة .. وأما أن لم يضيع[١] فقد حاول بعضهم إفساده في أيام العصبية في دولة معاوية ؛ ليقرب نسب قضاعة وكهلان على نحو ما أرادت النزارية من احتبال هذه القبائل ، وإدخالها في ولد إبراهيم عليه السلام ؛ فيفهم من هذه الأحداث سبب قصر تلك الأنساب»[٢].

قال أبو عبد الرحمن: النسب إلى إبراهيم عليه السلام هو الحقيقة ، وتقارب الأجداد بين الآباء العدنانية والآباء القحطانية هو الأصل ، وخلاف ذلك كله هو الافتراء ، وهو التفريق الآثِم بين العرب نسباً وفضلاً .. ثم نعود إلى نسب همدان فنجد ابن عبدربه رحمه الله تعالى قد نقص من نسبه الذي ذكره الهمداني[٣] ، وكذلك أبو محمد ابن حزم [٣٨٤ - ٤٥٦هـ] ، وأبو عمر ابن عبد البر [- ٤٦٣هـ] رحمهم الله تعالى؛ فجعلاه (هَمْدان بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الخيار ابن مالك بن زيد بن كهلان بن سبإ)[٤] .. إلا أن أبا عمر رحمه الله أسقط أيضاً أوسلة وربيعة.. ونقل عن أبي عبيدة معمر بن المثنى: أن همدان هو أوسلة نفسه ، وهو ابن الخيار بن نبت بن كهلان .. فأسقط مالكاً ، وزيداً ، وربيعة ومالكا أبا

(١) الصواب : وإما أنه لم يضع ، فحاول إفساده العدنانيون .

(٢) **الإكليل** ٨/١١٩ - ١٢١ .

(٣) **الإكليل** ١٠/٦ وما بعدها، وتابعه الإمام أبو عبيد القاسم بن سَلام[١٥٤-٢٢٤هـ] في النسب ص٣٣٥، وأما شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري في كتابه نهاية الأرب فقد أسقط ذِكر بني كهلان.

(٤) انظر **العقد الفريد** ٣/٣٥٥، **وجمهرة أنساب العرب** ص٣٩٢، والانباه - ضمن مجموعة الرسائل الكمالية رقم ٨ ص١١٨- ، وقصره الإمام ابن دريد [٢٢٣ - ٣٣١هـ] رحمه الله تعالى أكثر من ذلك في كتابه الاشتقاق ؛ فجعله همدان (وهو أوسلة) بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان.

الخيار .. ولم ينسبه إلى زيد بن كهلان ، بل إلى نبت بن كهلان .. وعقَّب أبو عمر بقوله : (أظن أبا عبيدة أصاب والله أعلم) .. وذكر عن ابن إسحاق أنه (همدان بن خيار بن مالك بن زيد بن كهلان) ؛ فأسقط مالكاً ، وزيداً ، وأوسلة ، وربيعة .. وأما أحمد بن محمد بن إبراهيم الأشعري القرطبي [- ٥٥٠هـ] رحمه الله تعالى فإمام محقق ، ولكن لعب بكتابه من وُصف بالمحقق الدكتور سعد عبد المقصود ظلام ؛ فشحنه تحريفاً وتصحيفاً ، ومن اليقين أنه لم يصحح تجارِب الطبع ؛ فكان الكتاب تأليفاً آخر مشوَّهاً .. قال الأشعري حسب هذا التحقيق البائس همدان بن أرسله (؟!) بن ربيعة بن الخيار (وهو النبت) بن مالك بن زيد بن كهلان»[1] ، ثم قال المحقق لا فُضَّ فوه في الحاشية : «ضبطه المؤلف بالراء (رسلة ؟!!)، وضبطه صاحب معجم القبائل بالواو أوسلة ١٢٢٥/٣ [هو عمر كحالة].. وهم بنو همدان بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان» [2] .. وتحدث عنهم الملك الأشرف عمر بن يوسف بن رسول [- ٦٩٦ هـ] رحمه الله تعالى ؛ فجاء في إحدى نُسخ طرفة الأصحاب : (همدان بن أوسلة بن مالك بن زيد بن كهلان) وفي نسخة أخرى (همدان بن زيد بن مالك بن أوسلة بن ربيعة بن الخيار بن زيد بن كهلان) ، وعلق المحقق بأن هذا هو الصحيح[3] .

(١) **التعريف في الأنساب** ص ١٨٩ .

(٢) المصدر السابق / حاشية ص ١٨٩ .

(٣) **طرفة الأصحاب** ص٧ ، وص٨ أحال إلى كلام الهمداني، وقال ص٢٩ - ٣٠ : «اعلم أن هَمْدان وأخاه ألهان من أقرب الناس إلى الأزد وإلى غسان ؛ وذلك أن الجميع من أولاد مالك بن زيد ابن كهلان .. أما همدان فاسمه أوسلة بن مالك بن زيد بن ربيعة (وهو أوسلة) ابن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان » .. وقال : « ووقع الملك من قبائل قحطان في خمس قبائل : حمير وغسان ولخم وهمدان وكندة » ، وانظر ص١١٧ - ١١٨ و ١١٩ - ١٢٣ عن بعض فروع الدعام.

وقال أبو الحسن علي بن موسى ابن سعيد رحمه الله تعالى [٦١٠ - ٦٨٥هـ]: «وأما همدان فهو أوسلة بن ربيعة بن حيان بن مالك بن زيد بن كهلان .. ولها صيت في الجاهلية وفي صدر الإسلام ، وبلادهم في جهات صعدة باليمن مشهورة إلى اليوم ، وقد كان منهم ملوك في الإسلام باليمن»(١).

وقال شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري [- ٧٤٩هـ] رحمه الله تعالى : «وأما همدان فهم من ولد ربيعة بن حيان بن مالك بن زيد بن كهلان ، ولهم صيت في الجاهلية والإسلام»(٢) .

وقال عبد الرحمن بن خلدون [٧٣٢ - ٨٠٨ هـ] رحمه الله تعالى : «أوسلة وهو همدان بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الجبَّار بن مالك بن زيد بن نوف ابن همدان»(٣)، وأضاف أحمد بن علي القلقشندي [- ٨٢١هـ] رحمه الله تعالى قوله عن همدان : «بفتح الهاء ، وسكون الميم ، ودال مهملة ، ثم ألف ونون» ، وذكر (الخيار) بدل الجبار، وأسقط والده مالكاً، وذكر بعد الخيار أباه زيد بن كهلان(٤) .. وأما من بعد همدان فزيادة الهمداني فيه أكثر .

قال أبو عبد الرحمن : من يهدينا إلى سابق للهمداني ، أو معاصر له ، أو بُعيده يعرف خزائن حمير ؟.. ولم تكن القحطانية أهل كتاب، بل أهل تجارة محدودة، وبنيان ، ونقوش منها الوثيقة المحرَّرة ، ومنها ما لا يزال وِجادة ؛ فالهمداني كابن الكلبي اطلع على بيعة في الحيرة لم يطَّلع عليها غيره .. وهما معاً مثل وهب بن منبه اطلع على عشرات من كتب أهل الكتاب لم يطلع عليها أحد غيره .. ووهب

(١) نشوة الطرب ١/١٤٣ .

(٢) مسالك الأبصار ٤/ ٣٥٢ .

(٣) تاريخ ابن خلدون ٢/٢٩٢ .. قال أبو عبدالرحمن : في آخر النسب زيادة وتكرار .

(٤) صبح الأعشى ١/٣٨٠ .

المصدر الأول للأساطير اليمانية ، ولولا أن ابن يونس ذكر ابن هشام الحميري وفرَّق بينه وبين ابن هشام الذهلي صاحب السيرة لقلت : إن الحميري أسطورة كالنضر بن شميل الحميري - لا التميمي - وعبيد بن شرية .. ولكن من الاحتمال المرجَّح الآن أنه كذوب سرق إسناد معاصره الذهلي ؛ ولو وجدت ترجمته كاملة من كتاب ابن يونس لأزالت لبساً كثيراً ، ولربما كان حينئذ من اليقين أن الأساس وهب بن منبه ، وسبطه عبدالمنعم بن سنان ابن بنت وهب ، وقد توفي [٢٢٨هـ] ؛ فزوَّر كُتب جده بأسانيد إلى غيره ، والظاهر أنهم كلهم وهميون كالنضر بن شميل الحميري ؟!.. وهذه الكِذْبة العريضة من الهمداني تسويغ لافترائه زيادة الآباء في قحطان مما لا يوجد عند غيره ، أو في أساطير قبله تبناها ولم يُضف إليها ، أو في أساطير تبناها وأضاف إليها ككتاب عبيد بن شرية .

وليس في كتب الهمداني ألبتة إسناد إلى عالم يمني - ثقة أو غير ثقة - يعرفه أحد غير الهمداني باستثناء الأساطير المعروفة؛ فبربكم أيُّ عالم من المشرق أو المغرب أو الشمال أو الجنوب يعرف علامة اليمن (أبا علكم المراني) الذي لا يعرفه غير الهمداني ؟!.. وهذا مثل (عامرة الصعصعي) شيخ الأصمعي في الأسطورة اليمنية المكذوبة عليه !!.. ومثل أصحاب النظم البارد الذي مر في رثاء الرسول ﷺ ، وذمِّ معاوية رضي الله عنه .. وهو ابن أبي علكم معاصر هارون الرشيد [١٤٩ - ١٩٣هـ] رحمه الله تعالى ، وحفيده أبو علكم معاصر الهمداني وبينهما جدان؛ فنضيف ٦٦ عاماً إلى آخر عمر الرشيد تسامحاً هكذا ١٩٣ + ٦٦ = ٢٥٩هـ ؛ فكيف عاصر الهمداني المتوفى عام ٣٣٣هـ - على أقل تقدير -.. وابن أبي علكم معاصر هارون الرشيد رحمه الله بينه وبين القَيْل الذي كتب له رسول الله ﷺ ثمانية آباء يمثِّلون ٢٣٣ عاماً نضيفها إلى آخر عمر هارون تسامحاً أيضاً فيكون ١٩٣ +٢٣٣ = ٤٢٦

عاماً بينما الذي بين هارون وبين رسول الله ﷺ ١٩٣هـ لا غير نطرحها من ٤٢٦ هكذا ٤٢٦ - ١٩٣ = ٢٣٣ ؛ فيكون القيل تجاوز عهد رسول الله ﷺ ب ٢٣٣ سنة .. ولو بدأنا بولادة هارون الرشيد عام ١٤٩ لكان الفارق ٤٤ عاماً ، وهي غير مؤثرة .

ثم المساند الحميرية الثلاثة التي أثبتت هذا النسب الطويل من يشهد بها، ومن عمل بها من العلماء ، وأين علماء الآثار عنها اليوم ؟.. وقد تتبعتُ ما أُحصي منها، ثم ما علاقة مناسبة (مصاهرة) أشراف همدان لهم بهذا النسب الطويل ؟.. وهمدان أيضاً زاد الهمداني في نسبه .

ومن الحماقة والاستخفاف بالقُرَّاء في جعله البيوت الشريفة - إذا صحَّ زعمه عمَّن ذكرهم - سبباً في قِصَر الأعمار !! .. فهؤلاء ملوك الأرض ، والبيوتات العربية منهم من يُعَمرُّ ومنهم من يموت في شبابه ، ولو وِجدتْ علاقة طبيعية لهذه الدعوى الكاذبة عن قِصَرِ أعمار الأشراف : لكان ذوو الخمول أَحْرى بِقِصر أعمارهم ؛ لما يهضمها من غبن ؟!.

قال أبو عبدالرحمن : لا ريب أن رسول الله ﷺ كتب لعمير ، ولكن الكتاب مُكْذِب لدعوى الهمداني في هذا النسب المختلق، بل نص على أنه همداني، وهذا نص خطابه ﷺ : «بسم الله الرحمن الرحيم .. هذا كتاب من محمد رسول الله إلى عُمَيرٍ ذي مَرَّان ، ومن أسلم من هَمدان : سِلْم أنتم ؛ فإنّي أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو .. أما بعد ذلك : فإنه بلغني إسلامكم مرجعنا من أرض الروم ، فأبشروا فإنَّ الله قد هداكم بهُداه ؛ وإنكم إذا شهدتم أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبد الله ورسوله ، وأقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة : فإنَّ لكم ذِمَّة الله وذِمّة رسوله على دمائكم وأموالكم وأرض البور التي أسلمتم عليها : سهلها، وجبلها ، وعيونها ، وفروعها غير مظلومين ولا مضيَّق عليكم .. وإنّ الصدقة لا تحلُّ لمحمد ولا لأهل

بيته ؛ إنما هي زكاة تزكونها عن أموالكم لفقراء المسلمين ، وإن مالك بن مُرارة الرُهاوي قد حفظ الغيب وبلّغ الخبر، فآمركم به خيراً فإنه منظور إليه .. وكتب علي ابن أبي طالب [رضي الله عنه]»[1].

وهذه رسالة له أخرى عليه الصلاة والسلام تذكر فروع همدان وتبطل أكاذيب الهمداني في إخراجه لها، وهذا نصها : «قَدِمَ قيسُ بن مالك بن سعد بن لأئي الهمدانيُّ وهو بمكة ، وكتب عهده على قومه همدان أحمورها (يعني قبائل قُدَم ، وآل ذي مَرّان ، وآل ذي لَعوة ، وأذواء ، وهمدان) وغَربها (يعني قبائل أرحب ، ونُهم ، وشاكر ، ووداعة ، ويام ، ومُرهبة ، ودالان ، وخارف، وعُذَر ، وحَجور) وخلائطها ومواليها أن يَسمعوا له ويُطيعوا ، وأنّ لهم ذِمّة الله وذِمّة رسوله ، ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأطعمه ثلاثمائة فَرَق من خَيوان : مئتان زبيب وذُرَة شطران ، ومن عمران الجوف مئة فَرَق بُرّ جاريةً أبداً من مال الله .

وقال الحافظ ابن حجر وابن الأثير : أخرج ابن منده ، وأبو يعلى ، وأبو نعيم رحمهم الله تعالى : باسمك اللهمّ : من محمد رسول الله إلى قيس بن مالك الأرحَبيّ : سلام عليك : أما بعدُ : فإني استعملتك على قومك غَرْبهم وأُحمورهم ومواليهم ، وأقطعتُك من ذُرَة نسار مئتي صاع ، ومن زبيب خَيوان مئتي صاع جارٍ لك ولعَقِبك من بعدك أبداً أبداً أبداً»[2].. وأما نسب اللعويين فلا يعلمه أحد من

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص٢٣١ ، والتخريج هناك، ولم يذكر عميراً قَيلاً .. قال الزَّبيدي في التكملة والذيل والصلة ٦/٢٦٠ : «القيل الملك من ملوك حمير يتقيَّل مَن قبله من ملوكهم .. أي يشبهه، وهذا أحد الأوجه فيه» ، وهو نص استدراكه في تاج العروس ٣٠/٣٠٨ / الكويت بلا زيادة وبلا أدنى إضافة متوقَّعة .

(٢) المصدر السابق ص٣٣ ، وهو مع ما سبق هو الموافق لسياق ابن الكلبي في نسب معد واليمن الكبير ٢/٥٢٥ - ٥٢٦.

الخلق غير الهمداني مع هذا التسلسل الذي لا نهاية له.. وعلى دعوى الهمداني كيف كان ضياعُ علمِ أهل اليمن بالنسب في أيام بخت نصر ؟.. كلا.. إن أهل اليمن يعرفون أنسابهم ، ولكنهم لا يعرفون أكاذيب الهمداني المخالفة لها .. وهل أدركت قحطان الباقية بعد مئات السنين عرباً بائدة كجديس وطسم ، وما علاقة هاتين القبيلتين البائدتين باليمن ؟.. إن الهمداني يدَّعي استدراكَه ما أضاعه تخريب بخت نصر من زُبُر اللعويين ، وهو كزبر حمير ، وكسجل خولان ؟!.. والخلاف في قضاعة بسبب يزيد بن معاوية لا معاوية رضي الله عنه من أجل أمه ميسون بنت بحدل ، ولا علاقة له بالزيادة في نسب قحطان، وما استقرت العصبيات إلا في عهد آل مروان.. ويُقدِّر الهمداني أربعين أباً إلى هود عليه السلام.

قال أبو عبدالرحمن : جنى الهمداني على اليمن بإخراجها من النسب إلى إبراهيم عليه السلام ، وأفضل الخلق الخليلان محمد وإبراهيم عليهما السلام ، والعرب الباقية أمة واحدة لا أمتان؛ فهل نجعل قحطان أمة ثانية على خلاف النص الشرعي، ونجعلها محرومة الفضل الذي لأمة العرب ذات العِرْق لا ذات الوصف بعَروبة الصحراء ؟! .. وما بين الهمداني وهود عليه السلام في عهد عاد آلاف من السنين لو كانت منتظمة المعرفة والكتابة والأحداث .. و٤٠ أباً إنما هم ١٣٦٦ عاماً باحتساب الآباء الموجودة ، ولو زاد الهمداني ٨٠ أباً غير الموجودين لما أدرك هوداً عليه السلام بتخمين ودعك من العلم .

قال أبو عبدالرحمن : ولي عودة إلى ما سقته ولم أُناقشه من أكاذيب الهمداني ولا سيما سرْقه شعر أهل الشمال وتحويره لعصبيةٍ يمنية قحطانية .. ثم هل يليق بمسلم أن يفخر على العدنانية قوم عبدالله ورسوله محمد ﷺ بقصيدة طويلة يشرحها ابنه ، وحسبي الآن القول الجازم بأن عمدة الأسطورة في

التاريخ اليمني : كتب أهل الكتاب التي بأيديهم كأسفار العهد القديم ، وروايات تُنسب إلى أهل الكتاب جزئية تاريخية ككون يقطين أبا قبيلة، ثم جاء الأخباري الأسطوري فركَّب من الجزئية تَتِمَّة ليست في كتب أهل الكتاب ، وهو أن يقطين هو قحطان أبو القحطانية أحد جذمي العرب الباقية ، وأن العرب عرب بائدة كعاد ، وباقية عاربة كقحطان ، وباقية مستعربة أخذت لغتها من قحطان وهم العدنانية .. ومنها ما يذكره الأخباري من نسج خياله على أنه من كتب أهل الكتاب وليس في كتبهم ألبتة ، وعمدة هؤلاء وهب بن مُنَبِّه وهو أول من ألَّف في نسب حمير ، وأصله يهودي ديناً من أبناء الفرس نسباً يُعرفون بالأبناء ، ونقل كتاباته ابن هشام الحميري الكذوب غير الذهلي الثقة ، وإليه مرجع التيجان في ملوك حمير الذي يرويه أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري عن أسد بن موسى: عن إدريس بن سنان : عن جده لأمه وهب بن مُنَبِّه .

قال أبوعبدالرحمن: ذكر ابن النديم عبدالمنعم بن إدريس بن سنان بن ابنة وهب بن منبِّه [- ١٢٨هـ] ، وقال: قالوا عمره بلغ مئة سنة، وذكر له كتاب المبتدإ[1]، وكل هذا الإسناد موقوذة ومتردية ونطيحة .. وههنا خلط بين ابن هشام الذهلي الثقة الذي هذَّب سيرة ابن إسحاق وبين ابن هشام الحميري، وتأتي إشارة إلى ذلك إن شاء الله من كلام ابن يونس، وقد ترجم رحمه الله لمهذِّب السيرة الذهلي، وذكر أن الحميري غيره، وأنها سبقت الترجمة له .. ولكن للأسف لا يوجد حتى الآن نسخة من تاريخ ابن يونس ؛ وإنما المرجع إلى من نقل شيئاً من تاريخه كابن خلكان في ترجمته لابن هشام مهذب السيرة .. وَمَنْ بعد ابن يونس خَلَطَ بين الحميري

(١) **الفهرست** ص١٠٦ / دار المسيرة .. وانظر دراسة جيدة عن وهب بكتاب (**نشأة علم التاريخ عند العرب**) للدكتور عبدالعزيز الدوري ١١٥ - ١٣٠.

والذهلي تَعَمُّداً؛ ولعل سبب ذلك تَعمُّدُ التزوير في كتابي التيجان ، وأخبار عبيد ابن شَرِيَّة على طريقة سرقة الإسناد؛ بجعل البَرقي راويةً عنه ؛ ليُظنَّ أنه ابن هشام مهذب السيرة ، وذلك ذهلي وهذا حميري .. ولقد خلط بين الاثنين أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي [٥٠٨ - ٥٨١هـ] رحمه الله بصيغة التمريض ؛ فجعل العهدة على من ذكر له ذلك .. قال : «وأما عبد الملك بن هشام فمشهور بحمل العلم، متقدم في علم النسب والنحو، وهو حميري مَعَافَرِي من مصر ، وأصله من البصرة ، وتوفي بمصر سنة ٢١٣هـ .. وله كتاب في أنساب حمير وملوكها، وكتاب في شرح ما وقع في أشعار السيرة من الغريب فيما ذُكر لي»[١] .. وابن يونس أقدم[٢]، وأدرى به ؛ لأنه من أهل بلده؛ ففرَّق بينهما في النسب ، وفرَّق بينهما في تاريخ الوفاة ؛ فجعل وفاة صاحب تهذيب السيرة عام ٢١٨هـ لا عام ٢١٣ .. وهو الذي قدم إلى مصر من البصرة ؛ لأنه ذكره في تاريخه للغرباء القادمين على مصر .. ثم أشار إلى أن الحميري تقدم الكلام عليه[٣] .

قال أبو عبدالرحمن: وأسطورية تيجان ابن هشام الحميري ظاهرة من داخل المتن: من خيال محض، ومن شعر ركيك بلغة بني عدنان في عصور النظم المتأخرة؛ فالمؤلف ضعيف الملَكَة في الشعر .. ولا تليق نسبته إلى ملوك حمير القدماء الذين لم

(١) **الروض الأنف** ١/٧ .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : هو أبو سعيد عبدالرحمن بن أحمد بن يونس الصَّدفي [٢٨١-٣٤٧هـ] انظر عنه **تاريخ التراث العربي التدوين التاريخي** م١ ج٢ ص٢٣٧ - ٢٣٨ / جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

(٣) انظر **وفيات الأعيان** ٣/١٧٧، وقد وَثَّقه القِفْطي ، ونبَّه إلى خلط السهيلي بين الذهلي والحميري ، وذلك في **إنباه الرواة** ٢/٢١٢ ، وانظر **تاريخ التراث العربي** ٢/٤٦٤ **علم اللغة** .

يُثبت لهم الثقات شعراً مروِّياً ، وقد أحسن العلماء الظنَّ بوهب ، وأشدُّ ما قيل فيه قول عمرو بن علي الفلاس [- ٢٤٩هـ][١]: «كان ضعيفاً»[٢] .. بل رووا خبراً مكذوباً عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : (سيكون رجلان في أمتي : أحدهما يقال له : (وهب) يؤتيه الله تعالى الحكمة ، والآخر يقال له : (غيلان) هو أضر على أمتي من إبليس) .

ولقد أطال شمس الدين الذهبي [- ٧٤٨هـ] رحمه الله ترجمته ، ووصفه بالإمام العلاَّمة، ثم بالأخباري القصصي، وذكر أنه لا شيئ له في الصحيحين سوى حديث واحد غير مرفوع عن أبي هريرة [رضي الله عنه] قال : ليس أحد أكثر حديثاً عن رسول الله ﷺ مني إلا عبد الله بن عمرو [رضي الله عنه] ؛ فإنه كان يكتب ، وكنت لا أكتب[٣].. وقال الذهبي : «وروايته للمسند قليلة ، وإنما غزارة علمه في الإسرائيليات ، ومن صحائف أهل الكتاب»[٤].

قال أبوعبدالرحمن : في بحوثٍ لي عن أيوب عليه السلام رأيت عنه نقلاً متضارباً ليس في سفر أيوب ولا في شرحه ، وإنما نسبه لأهل الكتاب ، وحاول به أن يكون صالحاً لتفسير ما ورد في القرآن الكريم عن أيوب عليه السلام ؛ ولهذا تراه يُسوِّغ نقله عن أهل الكتاب ما ليس عندهم ، ويسوِّغ تركه لمذهب القدرية بقوله: «كنت أقول بالقدر حتى قرأت بضعةً وسبعين كتاباً من كتب الأنبياء [عليهم الصلاة والسلام] في كلها: «من جعل إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر؛ فتركت قوله»[٥].

(١) إمام حافظ نقَّاد مجمع على إمامته وعدالته.. انظر عنه سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٧٠-٤٧٢.

(٢) تهذيب التهذيب ١١/ ١٤٨، وأخلص الثناء عليه الذهبي في ميزان الاعتدال ٤/٣٥٣ - ٣٥٤ ، وقال : «وقد ضعَّفه الفلاَّس وحده ، ووثقه جماعة» .

(٣) انظر سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٥٦ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٤٥ .

(٥) سير أعلام النبلاء ٤/٥٤٩ .

قال أبوعبدالرحمن : هذا يعني أن قدريَّته تعني أن الإنسان يخلق أفعاله .. وقال : «قرأت نيِّفاً وتسعين كتاباً من كتب الله : منها سبعون ظاهرة في الكنائس ، ومنها عشرون لا يعلمها إلا قليل .. إلخ»[١] ؛ فهذه كتب مقدسة لا يعلمها إلا قلة كوهب بينما أهل الكتاب منتشرون على وجه المعمورة !!.

قال أبوعبدالرحمن : كثير مما صح نَقْلُهُ عن وهب لا تقوم به حجة ، ولا مصدر له عند أهل الكتاب ، وهو من أبناء فارس ، وكان مولده سنة ٣٤هـ ، وتوفي سنة ١١٤هـ ، وقال الذهبي بصيغة الشك : «وأخذ عن ابن عباس ، وأبي هريرة - إن صح - ، وأبي سعيد ، والنعمان بن بشير ، وجابر ، وابن عمر ، وعبد الله بن عمرو ابن العاص [رضي الله عنهم] على خلاف»[٢].. وعلى أي حال فأخباره الدينية وعظ وإغراب ومسامرة ، وأساطيره عن اليمن بدافع العصبية لبلده ، وهي عصبية أضرَّت أكثر مما نفعت ، وتوثيق الجمهور له محمول على تسليمهم بأن كل ما يرويه عن أهل الكتاب موجود في كتبهم وليس من وضعه هو .. وعن إضرار عصبية أمثاله لليمن بالأساطير قال الدكتور جواد علي : «وأما تاريخ العرب في اليمن فأكثره من قبيل القصص الشعبي، وهذا هو الذي يلفت نظر المؤرخ الحديث ، ويبعث على الأسف في الوقت نفسه ؛ فالنصوص المدوَّنة التي عثر عليها السُّياح في اليمن وفي جنوب بلاد العرب تتحدَّث كلها عن ثقافة عالية وحضارة مزدهرة[٣] ، كما أنها تتكلَّم عن تاريخ منتظم إلى قبيل ظهور الإسلام ؛ فكيف اختفى ذلك التاريخ فجأة ، وكيف تجاهل عرب اليمن أمر تلك النصوص وتلك الكتابات ، ونسوا حتى الحروف الهجائية التي

(١) سير أعلام النبلاء ٤/٥٥١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤/٤٤٥ .

(٣) قال أبو عبدالرحمن : ولكنها ليست ثقافية،وليسوا أهل كتب مؤلَّفة كاليونان، بل حضارتهم مادية شبيهة بحضارة الفراعنة .

دوَّنوا بها إلى قُبيل الإسلام بقليل ؟.. لو لم يكن لأهل اليمن هذه النصوص المدوَّنة التي نقرؤها اليوم ما أزعجنا أنفسنا بهذه الأسئلة .. أما وقد عثر النقَّابون على كتابات كثيرة ، وسيعثر العلماء على أكثر من ذلك بكثير إذا أُتيح لهم الذهاب إلى اليمن : فإن أسئلة الباحثين لن تقف في الواقع عند حدٍّ حتى ييأسوا من العثور على كتابات بالمسند يرجع تاريخها إلى أيام الرسالة أو بعد ذلك أو قبل ذلك بقليل ، وهناك سيتمكن العلماء من وضع حدٍّ لهذه التكهنات : هل كان أهل اليمن بعد احتلال الأحباش لبلادهم قد تركوا الكتابة بالمسند ، فلما ظهر الإسلام كان الكاتبون بها جدَّ قليل ، ثم تُركت نهائياً ، واستُبدل بها الخطُّ الذي كان شائعاً في الحجاز أيام ظهور الرسول ﷺ ، ودُوِّنت به سور القرآن وكتب الرسول [ﷺ] ؟.. أو هل ترك أهل اليمن أنفسهم الكتابة بذلك الخط قبيل فتح الأحباش ، وأعرضوا عنه بالتدريج ، واستخدموا الخطَّ الذي عُرف بالحجاز وكان شائعاً بين أهل المدينة - وهم تجار مثل إخوانهم أهل اليمن - ؛ فلم يلبث أهل اليمن بحكم صِلاتهم التجارية من تعوُّد الكتابة بذلك الخطِّ ومن التكلُّم باللهجة التي كانت شائعة في كل شبه جزيرة العرب ، وهي اللهجة العربية التي نزل بها القرآن[1].. على كلٍّ نرى أن تاريخ اليمن هو على عكس ما كان يأمله المؤرخ الحديث ؟! .. أكثر من قصص شعبي رواه رواة يُرجعون أنسابهم إلى اليمن ؛ ولذلك كان فيه مجال واسع للعاطفة والأهواء»[2].

(١) قال أبو عبدالرحمن : ولكن شعر الأساطير اليمنية كشعر عنترة والزير سالم الأسطوري نظم ركيك محروم النعمة من اللغة والفن يقوله أخمل الخاملين.. على أن عربية العدنانيين قبل أن تكون هي الفصحى هي لغتهم؛ فكلاهما عرب مستعربة ، ثم فسدت لغة القحطانيين باختلاطهم بالأمم لما رحلوا إلى اليمن .. ثم وجد شعرهم الجزل في يمنهم الموثق في عصر الجاهلية بلغة عدنانية مبينة .

(٢) **المدخل إلى التاريخ الإسلامي** للدكتور محمد فتحي عثمان ص٦٩٣-٦٩٤ عن موارد تاريخ الطبري للدكتور جواد علي المنشور **بمجلة المجمع العلمي العراقي** م٢ ومج١ عام ١٣٧١هـ، و١٣٧٣هـ.

قال أبوعبدالرحمن : ليس لأهل اليمن مؤلفات مدوَّنة ، وإنما كانوا عرباً أميين كإخوانهم العدنانيين ، ولهم ملوك ، وتميزوا بالاندماج في حضارة مَعِينية ، وخُلطة أحباش ؛ فكان في لغتهم جرش ؛ حتى قال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله : والله ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا[١] .. ولم يشع من أدبهم إلا ما كان مفهوماً عند عرب الشمال بلغة متينة فنية .

وقال الدكتور محمد فتحي عثمان عن وهب : «وقد ألَّف وهب بن مُنَبِّه في المغازي ، ولكن مغازيه لا يُشار إليها في تواريخ السيرة أو أدب المغازي ، وقد وجد بيكر Becker قطعة من مغازيه وأسلوب الأيام فيها واضح ، وأورد صاحب حلية الأولياء نقلين عنه جاءا دون إسناد، وأسلوبهما نموذج من أسلوب القُصَّاص .. وقد اعتنى وهب بالإسرائيليات من قصص وأساطير العهد القديم[٢] ، وأراد بها توضيح بعض الإشارات القرآنية .. جمعها مما كان مُتَدَاولاً بين المسلمين (وبخاصة[٣] قصص كعب الأحبار المُتوفَّى ٣٢ - ٣٤هـ / ٦٥٢ - ٤م ، وعبد الله بن سلاّم [رضي الله عنه] المُتوفَّى حوالي سنة ٤٠هـ/ ٦٦٠م)[٤] .. فضلاً عما حصل عليه من قصص

(١) انظر **طبقات فحول الشعراء** لابن سلام ١١/١، و**المزهر** للسيوطي ١٧٤/١ عن ابن سلام، ويرى الدكتور إبراهيم السامرائي في كتابه (**في اللهجات العربية القديمة**) ص٧٤ ضرورة التفريق بين الحِميرية القديمة وما استجد من لغة يمنية .. وقال أبو الفتح عثمان بن جني [- ٣٩٢هـ] رحمه الله تعالى في **الخصائص** ٣٨٧/١ : «وبعد فلسنا نشك في بُعْدِ لغة حمير ونحوها عن لغة ابني نزار ؛ فقد يمكن أن يقع شيء من تلك اللغة في لغتهم [أي لغة ابني نزار] ؛ فيُساء الظن فيه بمن سُمِع منه [أي يكون الشك في ثقة الراوي]؛ وإنما هو منقول من تلك اللغة [يعني لغة حمير] » .

(٢) قال أبوعبدالرحمن: بل أضاف ما ليس عند أهل الكتاب مُدَّعياً أنه عندهم .

(٣) قال أبوعبدالرحمن : الصواب في مثل هذا السياق : خاصةً .

(٤) قال أبو عبدالرحمن : كلا .. وهو أتقى لله من الفراغ للمسامرة ، وقد أسلم رضي الله عنه منذ قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وسيأتي إن شاء الله بيان ذلك .

نتيجة اتصالاته بأهل الكتاب ، ومن قراءاته لكتبهم المقدَّسة ، وكان كتابه المبتدأ أول محاولة لكتابة تاريخ الرسالات؛ وتدل دراسة ما نقله عنه ابن قتيبة في المعارف، والطبري في تاريخه ، والمقدسي في البدء والتاريخ على أن وهباً استهلَّ ببدء الخليقة، وتدرَّج إلى تاريخ العهد القديم، ثم إلى الأنبياء [عليهم السلام] الذين ذكرهم القرآن .. أما روايات وهب عن تاريخ اليمن في رأي الدكتور الدُّوري فهي أسطورية تأخذ من قصص الإسرائيليات ، والقصص الشعبي، مع كثير من الشعر الموضوع.. وتتمشَّى مع أسلوب قصص الأيام.. وقد قدَّم وهب ملحمة نثرية يمانية شعبية ؛ لتجابه تفوُّق عرب الشمال ، ولم يكن وهب دقيقاً ، بل إنه لم يترفَّع عن الادعاء الكاذب[1] ؛ ولذا فإنه يُعتبر أخبارياً قاصاً، ويعتبر السخاوي أخباره غير جديرة بالمؤرخين الجديِّين[2]، وقد جاء باتجاه منحرف ضعيف بالنسبة لوجهة المحدِّثين في المدينة ، ولكنه جعل من الإسرائيليات مادة لتاريخ قبل الإسلام، وقدَّم أول نموذج للتاريخ العالمي مُتمثِّلاً في تاريخ الرسالات، وهذا الاتجاه وجد صدى قوياً عند مؤرخ مشهور من مؤرخي المدينة هو ابن إسحاق»[3].

قال أبو عبدالرحمن : إذا قيل : «فلان صاحب سَمَرٍ وأخبار» فذلك هو القصص الأسطوري كمن ألف عن أخبار ما قبل الإسلام، ومبدإ الخلق ، والملاحم مع شعر غير مأثور ؛ لما جرت عليه عادة العرب من كون الشواهد الشعرية دليلاً على

(١) قال أبو عبدالرحمن : هذا يُخرس أمثال التعبير بأن وَهْباً يترفّع عن الكذب !؟

(٢) قال أبو عبدالرحمن : ولكنها كانت العمدة لكل أسطور يمنية .

(٣) **المدخل إلى التاريخ الإسلامي** ص ١٣٠- ١٣١، وانظر آثار ابن هشام الذهلي الثقة في تهذيب الكتاب من كثير من الأساطير التي نقلها ابن إسحاق. كما في كتاب **تاريخ التراث العربي** م١ ج٢ ص٨٩، ثم انظر في تهذيب السيرة سموق لغته وعلمه بخلاف ابن هشام الحميري الكذوب ذي اللغة الباردة والأسلوب الركيك .

الصحة، ولهذا جعل المنطقيون التخييلي من البراهين الباطلة، ولا يزال إلى وقت قريب العجائز وأشباههن يُصدِّقون بالسُّبْحونه - وهي سمر خرافي -؛ لأن فيها شعراً، بل كان العوام إلى هذا العهد يُصدِّقون بأخبار فيها نصوص شعرية كالشعر الهلالي العامي بنجد عن أحداثهم بنجد .. مع العلم أن أحداثهم كانت وهم فصحاء بالمغرب؟!.. وأساطير عنترة والزير سالم وتغريبة بني هلال وسيف بن ذي يزن والظاهر بيبرس.. إلخ.. إلخ تقوم على الشواهد الشعرية الركيكة بالفصحى أو العامية .. وأسمار الكذبة في التاريخ الإسلامي أُخذ منها ما يخدم العصبية اليمنية القحطانية ، وانتشرت في تواريخ المسلمين أمثال ابن جرير الطبري رحمه الله (وهو ذو تشيُّع تاريخي)، وكل أئمة المسلمين قلوبهم مع أمثال الحسين رضي الله عنه ومن صلح من أعقابهم .. ومثل المسعودي وتشيُّعه كان تاريخاً وفي بعض الاعتقاد .. ومن الأخباريين السُّمار أبو البختري وهب بن وهب بن كبير [- ٢٠٠هـ] ، وكُتُب ابن الكلبي التي لا تكاد تُحصى كثرة ، ومن شاركه في التأليف في مثالب العرب ، وأخبار القبائل القديمة (لا أنسابها) وأمهاتها، وأنساب المدن .. ومنهم أبو حذيفة إسحاق بن بشر [- ٢٠٦هـ]، ولأبي عبدالله محمد بن سعد بن منيع [١٦٨ - ٢٣٠هـ] رحمه الله: (القصيدة الحلوانية في افتخار القحطانيين على العدنانيين) ، وعليها شرح [١] ، وكتب جابر الجُعفي وأبي مخنف وأضرابهم لا يُحصون كثرةً .

قال أبو عبدالرحمن : بالتَّتَبُّع لقدماء المؤرخين في صنع الأسطورة التي غذَّت الأساطير اليمنية ولا سيما أهل المثالب الذين نالوا من العدنانية - منهم ذوو ديانة من يهود ومجوس في الأصل ، ومنهم شعوبيون ضد العرب من جهة النسب - : نجد النضر بن شميل الحميري ؟! - وهو غير النضر التميمي العدناني الإمام المعروف -، ولا خبر عنه ألبتة إلا من جهة أصل الأسطورة ؛ ولهذا قال ابن عساكر رحمه الله

(١) انظر تاريخ التراث العربي / التدوين التاريخي م١ ج٢ ص١١٣ .

تعالى : «النضر بن شميل الحوي (؟؟)[1] ، وَذُكِر أنه في صحبة هشام بن عبدالملك ، وأنه عارف بمناقب العرب ومثالبها ، وله في ذلك مناظرة مع خالد بن سلمة المخزومي كان فيها حاضر الجواب، عالماً بالصواب[2]» ؟؟ ، ولم يذكر مصدراً .. وأما خالد بن سلمة بن العاص المخزومي فمحدث ثقة أُقْحم في قصة المثالب وأسطورة ابن شميل الحميري !! .. قال الوزير أبو عبيد البكري [- ٤٨٧هـ] رحمه الله تعالى عن مثالب العرب لأبي عبيدة : «وكتاب المثالب أصله لزياد بن أبيْه ؛ فإنه لمّا ادّعى أبا سُفيان أباً عَلِمَ أن العرب لا تُقِرُّ له بذلك مع علمها بنَسَبه ؛ فعمل كتاب المثالب وألصق بالعرب كل عيب وعار وباطل وإفك وبهت ، ثم ثنّى على ذلك الهيثم بن عديٍّ وكان دعيّاً ؛ فأراد أن يَعُرَّ أهل الشرف تشفّياً منهم ، ثم جدّد ذلك أبو عبيدة وزاد فيه ؛ لأن أصله كان يهودياً أسلم جدّه على يدي بعض آل أبي بكر [رضي الله عنه]؛ فانتمى إلى ولائهم ، ثم نشأ علاّن الشعوبي الوراق وكان زنديقاً ثنوياً لا يشك فيه ، فعمل لطاهر بن الحسين كتاباً خارجاً على الإسلام بدأ فيه بمثالب بني هاشم ، وذكر مناكحهم وأمهاتهم ، ثم بطون قريش ثم سائر العرب ، ونسب إليهم كل كذب وزُور ، ووضع عليهم كل إفك وبُهتان ، ووصله عليه طاهر بثلاثين ألفاً .. وأما كتاب المثالب والمناقب الذي بأيدي الناس اليوم وهو كتاب (الواحدة) المعلوم فإنما هو للنضر بن شميل الحميري وخالد بن سلمة المخزومي وكانا أنسب أهل زمانهما .. أمرهما هشام بن عبدالملك أن يُبَيِّنا مثالب العرب ومناقبها ، وقال لهما ولمن ضَمَّ إليهما : (دَعُوا قريشاً بما لها وعليها)؛ فليس لقرشيّ في ذلك الكتاب ذكر»[3] .

(١) **تاريخ مدينة دمشق** ٦٢/ ٦٩ ، والحموي تطبيع كما في ١٦/ ٨٨ ؛ إذْ قال : الحميري.

(٢) انظر : **تاريخ مدينة دمشق** ١٦/٨٨ - ٩٤ .

(٣) **سمط اللآلئ** ٢/٨٠٧ - ٨٠٨ .

قال أبو عبدالرحمن : أصل كلام البكري من الأسطورة نفسها ؛ لأنه لم يذكر مصدراً غير قوله عن (الواحدة) : «الذي بأيدي الناس اليوم» ، والبكري في القرن الخامس الهجري .. ثم كيف يأمر هشام بن عبدالملك رحمه الله (وهو من أشراف العدنانية) بتخفيف حِدَّة كتاب زياد ؟!.. لو كانت القصة صحيحة لأمر بتفنيده ، وطاهر بن الحسين هو والد عبدالله بن طاهر ، وحفيده عبيدالله ، ولم يؤثر عنهم شيئ في الشعوبية ، وسيأتي إن شاء الله للمثالب حديث خاص .

وقال عنه ابن قتيبة رحمه الله: «وقد كان زيادُ بن أبي سفيان حين كثرُ طعنُ الناس عليه وعلى معاوية في استلحاقه عمل كتاباً في المثالب لولده وقال: من عيَّركم فقرِّعوه بمنقصة، ومن ندَّد عليكم فابدهوه بمثلبته، فإنَّ الشرَّ بالشرِّ يُتقى، والحديدُ بالحديدِ يُفْلَحُ .. وكان أبو عبيدة معمر بن المثنى أغرى الناس بمشاتم الناس، وألهجهم بمثالب العرب ، وحالُه في نسبه وأبيه الأقرب إليه حالٌ نكرهُ أن نذكرها؛ فنكون كمن أُمر ولم يأتمر، وزُجَرَ عن القبيحِ ولم يزدجر، وهي مشهورةٌ ، ولكن كرهنا أن تُدَوَّن في الكتب، وتُخلَّدَ على الدهر، ولا سيما وهو رجلٌ يُحملُ عنه العلمُ ويُحتجُّ بقوله في القرآن»[1].

ونجد وهب بن منبه [٣٤ تقريباً -١١٠هـ] كان نَسَباً فارسيّاً من الأبناء ، وأصله ذو ديانة يهودية، وقد بينت فيما سبق في هذا البحث أنه لا يوثق بروايته، وأساس الأسطورة الحميرية كتابه (الملوك المتوَّجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم)، وما نقله عنه ابن هشام الحميري قاطع بأنه أسطورة، ويا ليت شعري أين أشعار حمير في غير ما أشاعه الأسطوريون في مثل كُتب اغترَّتْ بهم ككتب المسعودي.. وفي نصابه كتبه المبتدإ ، والمغازي ، وقصص الأنبياء .. إلخ ، ومثله كعب

(١) فضل العرب ص٣٧ - ٣٨ .

الأحبار كان أصله يهودياً من اليمن ، ومن أوائل من نقل عنه الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله على مبدئه (العهدة على الراوي)[1] .

(١) انظر **تاريخ التراث العربي** م١ ج٢ ص١٢٠ - ١٢٥ .. قال أبو عبدالرحمن : مضى الكلام عن وهب ، ومعاذ الله أن أشك في إسلام كعب الأحبار ، ولكن الكذب يوجد عند المسلمين ، وهو كذّاب بلا ريب صاحب أسمار ، ولا يُغرَّك توثيق من وثّقه .. وقد أحسن القاضي أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلّكان [٦٠٨ - ٢٨١هـ] رحمه الله تعالى الظنَّ بوهب ؛ فقال عن كتابه في **وفيات الأعيان** ٣٥/٦ - ٣٦ : «ورأيت له تصنيفاً ترجمه بذكر الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم في مجلد واحد ، وهو من الكتب المفيدة، وكان له إخوة منهم همام بن منبه كان أكبر من وهب ، وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو معدود من جملة الأبناء .. ومعنى قولهم : (فلان من الأبناء) أن أبا مرّة سيف بن ذي يزن الحميري صاحب اليمن لما استولت الحبشة على ملكه توجه إلى كسرى أنوشروان ملك الفرس يستنجده عليهم ، وقصته في ذلك مشهورة وخبره طويل ، وخلاصة الأمر أنّه سيَّر معه سبعة آلاف وخمسمئة فارس من الفرس جعل مقدمهم وَهْرز .. هكذا قاله ابن قتيبة ، وقال محمد ابن إسحاق : (لم يُسيِّر معه سوى ثمانمئة فارس ؛ فغرق منهم في البحر مئتان ، وسلم ستمئة).. قال أبو القاسم السهيلي : (والقول الأول أشبه بالصواب ، إذ يبعد مقاومة الحبشة بستمئة فارس ؛ فلما وصل الجيش إلى اليمن جرت الواقعة بينهم وبين الحبشة ؛ فاستظهرت الفرس عليهم ، وأخرجوهم من البلاد ، وملك سيف بن ذي يزن ووَهْرز ، وأقاموا أربع سنين.. وكان سيف بن ذي يزن قد اتخذ من أولئك الحبشة خدماً ؛ فخلوا به يوماً وهو في متصيد له فزرقوه بحرابهم فقتلوه وهربوا في رؤوس الجبال ، وطلبهم أصحابه فقتلوهم جميعاً ، وانتشر الأمر باليمن ، ولم يُملِّكوا عليهم أحداً ، غير أن أهل كل ناحية ملكوا عليهم رجلاً من حمير فكانوا كملوك الطوائف ، حتى أتى الله بالإسلام .. ويقال إنها بقيت في أيدي الفرس ونواب كسرى فيها ، وبُعِثَ رسول الله ﷺ وباليمن من قواد أبرويز عاملان أحدهما فيروز الديلمي ، والآخر داذويه ، وأسلما ، وهما اللذان دخلا على الأسود العَنْسي مع قيس بن المكشوح لما ادعى الأسودُ النبوة باليمن وقتلوه ، والقصة في ذلك مشهورة ، فلا حاجة إلى ذكرها [قال أبو عبدالرحمن : هذا هو الأرجح] .. والمقصود من هذا كله أن جيش الفرس لما استوطن اليمن تأهلوا ، ورزقوا الأولاد ؛ فصار أولادهم وأولاد أولادهم يُدعون الأبناء ؛ لأنهم من أبناء أولئك الفرس ، وكان طاووس العالم المقدم ذكره منهم أيضاً ، وقد أومأت إلى ذلك في ترجمته ولم

وأما عبدالله بن سلام بن الحارث رضي الله عنه فهو من ذرية يوسف بن يعقوب عليهما السلام ، ومن يهود المدينة حالف القوافل من الخزرج ، وأسلم أول قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة على أصح الأقوال ، وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة، وهو صادق اللهجة ممن أوتي أجره مرتين ، وعلى علم بكتب أهل الكتاب ، ومنذ أسلم لا مصدر له إلا الإسلام ، وَيُدَّعى عليه آثار مطبوعة ومخطوطة لم أطلع عليها[1] ، وهي تحتاج إلى فحص ، ولو صحت لنقل عنها القدماء ، وليس مرجعاً لأخباريي المسلمين في شيئ من الأساطير رضي الله عنه وأرضاه، وله الموقف الكريم في فتنة

أشرحه كما فعلت ههنا» ، وانظر معجم البلدان لياقوت رحمه الله ٢٨٠٢/٩ .. وكعب الأحبار من الطراز نفسه ديناً ونسباً .. قال الإمام جمال الدين أبي الحجاج يوسف المزي [٦٥٤ - ٧٤٢هـ] رحمه الله تعالى في **تهذيب الكمال** ١٨٩/٢٤ «كعب بن ماتع الحِميري أبو إسحاق المعروف بكعب الأحبار من آل ذي رُعَيْن ، ويقال : من ذي الكَلاع ثم من بني مَيْتم .. وهو من مُسْلِمة أهل الكتاب .. أدرك النبي ﷺ ، وأسلم في خلافة أبي بكر الصدّيق [رضي الله عنه] ، ويقال : في خلافة عمر بن الخطاب .. ويقال : أدرك الجاهلية» .. وقال ص١٩١ : «وقال علي ابن زيد بن جُدْعان : عن سعيد بن المُسَيِّب : قال العباس [رضي الله عنه] لكعب : (ما منعك أن تُسلم على عهد النبي ﷺ ، وأبي بكر [رضي الله عنه] حتى أسلمت الآن على عهد عمر [رضي الله عنه] ؟.. فقال كعب : إن أبي كَتَب لي كتاباً من التَّوراة ودفَعَهُ إليَّ ، وقال : اعمل بهذا ، وختم على سائر كُتُبه، وأخذ عليَّ بحق الوالد على ولده ألاَّ أفضَّ الخاتم ؛ فلما كان الآن ورأيتُ الإسلام يظهر ولم أرَ بأساً قالت لي نفسي : لعل أباك غَيَّب عنك علْماً كَتَمك ؛ فلو قرأته .. ففضضتُ الخاتَم، فقرأته ، فوجدتُ فيه صِفَة محمد ﷺ وأمته؛ فجئت الآن مسلماً .. فوالى العباس» .. قال أبو عبدالرحمن : الله أعلم بصحة هذه القصة ، وتاريخ إسلامه غير محقَّق .. مات سنة ٣٢هـ أو ٣٤ وعمره مئة سنة وأربع سنين .. ثم نقل كلام البخاري ص١٩٣ : «إن كان من أصدق هؤلاء المُحدِّثين الذين يُحدِّثون عن الكتاب وإن كُنَّا مع ذلك لَنَبْلو عليه الكذب» ، وانظر تعقيب الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى في **تهذيب التهذيب** ٣٨٣/٨ .

(١) انظر **تاريخ التراث العربي / تدوين التاريخ** م١ ج٢ ص١٢١ .. وانظر عنه رضي الله عنه **أُسْد الغابة** ٢٦٤/٣ - ٢٦٥ ، **والإصابة** ١٠٢/٤ - ١٠٤ .

عثمان رضي الله عنه .. حتى أهل الحديث نضر الله وجوههم دخل في ضعفائهم داء الأسطورة في علاقة الرسول ﷺ بقس بن ساعدة ، ونبوءة خالد بن صفوان العبسي ، وصاحبٍ لرسول الله ﷺ من معاصري عيسى بن مريم عليه السلام .

قال أبو عبدالرحمن محمد بن عمر : جهدي الفردي عاجز عن معرفة واضع الأساطير اليمنية ، ولكن اليقين القطعي بلا أدنى شك : أنها أساطير مكذوبة ، وأنها إن لم تكن صُنعاً فردياً فهي : إما صادرة عن تواطؤٍ ، وإما دُوْلة من كذوب إلى كذوب يحاكي أسطورة من قبله - وهذا هو الأرجح - ، ثم منهم من يضيف إلى الأسطورة نفسها كفعل الهمداني مع أسطورة عبيد .. ولا يضير الباحث أن لا يعرف من وضع أسطورة عنترة ، وابن ذي يزن ، والمقداد والميَّاسة، وألف ليلة وليلة، وتغريبة بني هلال ، وحرب البسوس (وإن عرف ذلك فهو زيادة خير) ؛ وإنما المهم اليقين بأن كل ذلك أساطير مصنوعة ؛ بدلالة من داخل النص تُحيْلُها ، وتمنع علاقتها بما هو خارج النص.. وعندي يقين أن أمشاج هذه الأساطير بدأت أشتاتاً من أمثال وهب بن منبه، وابن الكلبي ، وكَذَبَة التاريخ في عهدهم ، ثم صاغها أفراد في كُتُب (... ولوهب كتب من الأساطير ، وكتاب عن أساطير اليمن، وأصله من الأبناء الفرس باليمن) ؛ فإن صح أن ابن هشام الحميري لا الذهلي شخصية حقيقية كما في تاريخ ابن يونس فأول عصابة برأسه - وذلك هو الراجح - من جرَّاء جنايته .. إلا أن يكون عند ابن يونس ثقة ؛ فيكون حينئذ الأسلوب مُركَّباً عليه ، ثم تلقف أمشاج الأساطير وكتبها علماء أئمة أجلاء كالإمام ابن جرير رحمه الله تعالى ، وجعلوا العهدة على الناقل؛ ولهذا لا نسيئ الظن بأمثال المسعودي وأبي الفرج الأصفهاني (وإن كان لهما مذهب غير مرضيٍّ)؛ فمذهبهما في إيراد الأساطير مبدأُ (العُهدة على الراوي).. على أن الأصفهاني يتظرَّف بالأدب ، والنقد فيه كثير ، وكُتب عنه مؤلفات ، والبتُّ

فيه يحتاج إلى تفرُّغ وإحاطة بكتبه ، وقد يُصَرِّحون بكذبها أو الشك فيها .. ومنهم مَن يفرح بها على عِلْمٍ بكذبها ، ويتبناها، ويوثِّقها بلحن القول ، ويضيف إليها كذباً آخر .. وعمدة هؤلاء الهمداني، وهذا نموذج واحد من نماذج لا تُحصى.. قال: «فأولد عمرو بن همدان زيداً، فأولد زيد بَتعاً الملك (وإليه يُنسب سدُّ بتع بالخشب مما يصالي حاز من حدود حمير، وهو قريب إلى شرح يَحضِب بن الصوار بن عبد شمس، ولم يزل الملك في عقبه، وإليه أفضى المُلْك بعد أبي شرح، ولم يزل في عقبه إلى قيام الرائش على ما يذكر علماء همدان .. وعبداً ابتقروا من بطون همدان جانباً هم وبنو عبد إل وبنو سبع بني زيد بن أوسلة، وبنو عبد بن زيد بن جُشَم بن حاشد ابن جشم ؛ فسموا عبد البقر ، ويقال : (إنهم اجتمعوا على عبادة صنم لهم في صورة ثور) ، والأول من الابتقار أثبت .. وعفراً أبطن ثلاثة : بنو زيد ، وأولد بتعٌ الملك ابنُ زيد علهانَ ونهفان الملكين وأمُّهما جميلة بنت الصوار بن عبد شمس .. وفي بعض أخبار اليمن القديمة أنه لما قحط القطر في زمان يوسف عليه السلام ، وألحَّت الجراد : ساءت أحوال اليمن والحجاز ونجد؛ لأنها أرض معلقة لا سوح فيها، فأمر بتع ابنيه علهان ونهفان أن يكتبا للناس إلى خزانة الملك بمصر (وهو الوليد بن الريان من العماليق الأولى[1]) ، فكتبا إلى العزيز بمصر وهو يوسف عليه السلام في حفظ من ينتشر إليه من المسترسلين ببضائعهم ونعمهم وعروضهم

(١) قال أبو عبدالرحمن : ما أسمج هذا الكذب ؛ فإبراهيم عليه السلام - على قِدَمه - بعد العرب البائدة ، وهذا الحدث في عهد يوسف عليه السلام كما يزعم الكذبة ، وهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم وعلى نبينا محمد وعلى جميع أنبياء الله ورسله أفضل الصلاة والسلام ، وإسماعيل (أبو بني عدنان وبني قحطان) هو عم يعقوب أبي يوسف عليهم السلام ؛ فكان بنو قحطان أقدم من أبيهم إسماعيل ، وكانت العرب البائدة في عهد يوسف عليه السلام !؟.

وورقهم ؛ فخرج الناس على كل صعب وذلول ، وكثير من أزوادهم الجراد؛ فلما رآهم يوسف أوى لهم من بُعد الشقة ، ورثا لهم من الضرة، فأمرهم باتخاذ النواضح ووصفها لهم، وعادوا فاحتفروا بالنواضح؛ فكل بئر من ذلك العهد باليمن فهي العتد العِدُّ التي لا تُنكش، ولم يزالوا يمتارون مع ذلك طول تلك المدة .

قال اللبخي : قال الحميري[1] في كلام الحميرية، وذكر خبر الأنواء : اقسمن انجوم ابربع ، ذو تغيب لو يروى سد بتع ما بين حاز وبيت دفع [«ذو» بمعنى «لا» ، و«لو» بمعنى «حتى» .. ذكره الحسن في التاسع من الإكليل] .. أي أقسمت الكواكب الأربعة وهي الصواب لا تغيب صلاة الغداة حتى يشرب سد بتع من الغيث بآذار ، هذا على حد العادة .. وفي مسند بصنعاء على بعض الحجارة التي نقلت من قصور حمير وهمدان : «علهان ونهفان ابنا بَتَع بن همدان ، لهم الملك قديماً كان[2] .. وأخبرني أحمد بن أبي الأغر الشهابي[3] من كندة قال : قرأت في مسند بناعط علهان ونهفان ابنا بَتَع بن همدان لهم الملك قديماً كان .. وحدثني محمد بن أحمد الأوساني أنه قرأ في مسند بعمران من البون دار همدان : «علهن ونهفن ، ابنا بَتَع ابن همدان [صُحّح] حصن وقصر حَدَقان بن زيد بين بيننا .. كذلك يكتبون بحذف الألف إذا وقعت في وسط الحروف ، وقفاهم المسلمون في كتابة المصاحف فطرحوا ألف «الرحمن» وألف «الإنسن وألف السموات، وكذلك علهن منقوص من «علهان»

(١) قال أبو عبدالرحمن : هو اللبخي بن بسير بن عذيق بن كريب بن عسيب بن نخيل بن الحميري بن هيان بن بيان .. بن .. إلخ .. إلخ !!.. ثم من أي مصدر اتصل هذا النقل الذي مرَّ من عهد يوسف عليه السلام إلى عهد الهمداني ؟ .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : هذا مصدر مشهور ، ولكن للأسف لم ينقل عنه إلا الهمداني !؟.

(٣) قال أبو عبدالرحمن : هذا بحر في العلم ، ومن العلماء بالمسند ، ولكن لا توجد له ترجمة ، ولا يعرفه أحد إلا الهمداني !!.

و«نهفان» منقوص من «نهفان» و«همدان» من «همدان»[١] و«بنين» من «بنيان» .. هذا ما تؤديه أحرف الكتاب وإياها حكى الأوساني ؛ فأما اللفظ فعلى التمام، وكذلك يحذفون الواو الساكنة من وسط الحروف مثل مبعوث ، والياء الساكنة مثل شمليل ، والألف الساكنة في مثل هلال وبلال وأميال» [٢] .

قال أبو عبدالرحمن : مضى من رسائل رسول الله ﷺ كذب الهمداني، وكل ما ذكره الهمداني مصادر وهمية مكذوبة، والتشويش بخط حمير زيادة فضول للتأنيس، وكم بين هذه الذرية البعيدة من قحطان وبين يوسف الذي عم أبيه إسماعيل عليهم السلام ، وكيف أدرك هؤلاء العماليقَ من البائدين ، وأقلُّ ما علَّق به مُحَقِّق كتاب الهمداني قوله: «وأكثر النسَّابين ينسبون تَبعاً الملك في بني الصوار بن عبد شمس الأصغر بن وائلة بن الغوث بن حيدان بن غريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير ، وانظر مادة علة في شمس العلوم لنشوان الحميري»[٣] .

قال أبو عبدالرحمن: هذا نموذج من أكاذيب الهمداني وتزييفه، وصورة لمذهبه: في تلفيق الأخبار الثابتة ، والدعاوى المكذوبة ، ونسبة الشعر إلى غير قائله لهذا الغرض ، وجعله في غير مناسبته .. ولقد تتبعت مادة كتب الهمداني في التاريخ فوجدتها لا تعدو ثلاثة أمور :

الأمر الأول : أسماء مواضع وبيان حدودها .

والأمر الثاني : أنساب قبائل تفريعاً وتأصيلاً .

والأمر الثالث : تاريخ أحداث وأخبار قبائل.

فأما الأمر الأول فهو حجة فيه؛ لأن الكلام عن أمر محسوس ماثل.. وليس

(١) قال أبو عبدالرحمن : لا تطابق في الرسم المذكور بين همدان وَمَنْ قبله ومن بعده .

(٢) **الإكليل** ١١/١٠ - ١٧ .

(٣) **الإكليل** ١١/١٠ [تحشية المحقق] .

وصف المواضع وتحديدها من أحداث التاريخ المسموعة غير المشهودة، ولأنه لا هوى له في هذا الفن، ولا قدرة له في جعل جبل أبي قبيس جنوب صعدة ، والطبيعة لا تُعطيك إلا ما فيها !.. وأما الأمر الثاني فهو متَّهم فيه إذا كانت المسألة مسألة قحطاني وعدناني، وهو معروف بتعصبه تعصباً سهَّل عليه الكذب .. وأما الأمر الثالث فقد تتبعته أيضاً فوجدته على أربعة أنحاء :

النحو الأول نقل تاريخي ينقله عن غيره من الكتب الموثَّقة والأعلام المعروفين ، وهذا أندر من الكبريت الأحمر في كتبه .. والنحو الثاني نقل أساطير وأكاذيب لم يضعها هو ، وإنما هي من سمر العصور قبله .. وفي حشو الأخباريين منذ كُتُبِ وهب ومروياته، وكتب ابن شرية ، ووصايا الملوك ، ومثالب القبائل التي اختلقها الشعوبيون مما يغثي ويؤذي من الكذب .. والنحو الثالث تصرُّف في النقل كأن ينسب بالتعمُّد الشعر المأثور إلى غير قائله ، ويحتج به في دعوى كاذبة يجعلها سبباً للشعر، وربما أضاف إلى الشعر المأثور شعراً مزوَّراً .. والنحو الرابع وهو الأكثر اختلاق حكايات وأخبار وأشعار وأعلام مما لا مصدر له غيره ، وأكثره نظم بارد متأخِّر لا يليق بشعر العرب المحكيِّ عنهم في تلك القرون، وقام المعارض الصحيح لأكثر تلك الأخبار[1]..

(١) قال أبو عبدالرحمن: ممن أحسن الظن بالهمداني بتسويغ لا علاقة له بالتوثيق ثريا منقوش عندما ذكرت سيف بن ذي يزن في التاريخ وسيفاً في الأساطير بكتابها (سيف بن ذي يزن) ص٤١-٤٢؛ فقالت : «إننا نميل لترجيح تعريفات المؤرخ اليمني الكبير الهمداني على غيره من التعريفات التي لن نرفضها؛ فليس من حقنا رفضها وليس لنا مصدر غيرها.. إلا أن ترجيحنا لتعريفات الهمداني تأتي من كونه المصدر الوحيد للتاريخ والمجتمع اليمني القديم .. أي فترة [الصواب : مدة] ما بعد النقوش في العهد الإسلامي الأول وهو كنسابة [الصواب بصفته نسابة] مجتهد أدرى بحقائق أنساب الأسر اليمنية الكبيرة ، وله في هذا المجال باع وذراع».
قال أبو عبدالرحمن : أعظم عوامل تكذيب الهمداني أنه المصدر الوحيد في العالم ؟!!.. مع ما أسلفته من عظائم .

وهناك أخباري يمني آخر اختُلف في اسم أبيه ؛ فقيل عبيد بن سَرْية، أو ابن سارية ، أو ابن شَرِيَّة الجرهمي ، أو عمير بن شَبْرُمَة الذي نُسب إليه (أخبار عبيد ابن شرية الجرهمي ، في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها) المطبوع مع كتاب (التيجان في ملوك حمير) .. وليس الكتاب المنسوب إليه هو الأسطورة ، بل تكاد تكون شخصيته أسطورية .. ذكره أبو الفتح محمد بن أبي يعقوب إسحاق الوراق النديم [- ٣٨٠هـ] فقال: «عبيد بن شرية الجرهمي في زمان معاوية [رضي الله عنه] ، وأدرك النبي عليه السلام ولم يسمع منه شيئاً ، ووفد على معاوية بن أبي سفيان[١] [رضي الله عنهما] ؛ فسأله عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسنة وأمْرِ افتراق الناس في البلاد (وكان استحضره من صنعاء اليمن ؛ فأجابه بما أمر) ؛ فأمر معاوية أن يُدوَّن ويُنسَب إلى عبيد بن شرية .. عاش عبيد بن شرية إلى أيام عبدالملك بن مروان.. وله من الكتب كتاب الأمثال، وكتاب الملوك وأخبار الماضين .. روى عبيد بن شرية عن الكيِّس النمري، وابنه زيد ابن الكيِّس، واللسين الجرهمي، وعبد وُدٍّ الجرهمي»[٢] .. وترجم له الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر ، وأطال ، وكان عمدته ابن الكلبي .. قال: «عُبيد بن سَرِيّة ، ويقال : بن سارية .. ويقال: ابن شَرِيَّة الجُرْهُمي .. وفد على معاوية [رضي الله عنهما]، وقيل: إنه لم يفد عليه ، وأنه لقيه بالحيرة حين توجَّه معاوية إلى العراق .. أَخْبَرَنَا أبو

(١) ذكر الأخباريون من وفد على معاوية رضي الله عنه من أجل عطاء أو مدح أو شفاعة ، وطبع بعضها ، ومنها كتابان مخطوطان للعباس بن بكر - وهو غير ثقة - ، وانظر عنهما **تاريخ التراث العربي التدوين التاريخي** م١ ج٢ ص١٣٨ ، فاستُغلَّت هذه الوفادات ، وَوُسِّعتْ إلى وفادات أسمار طويلة كأسطورة عبيد .. كأن معاويةَ الملك المحنَّك المشغول بتثبيت ملكه متفرغٌ للفضول !!.

(٢) **الفهرست** لابن النديم ص١٠٢ .

الحسَن عَلي بن المُسَلَّم الفقيه : نا عَبْد العزيز بن أحمَد : أنا أبُو نصر بن الجَبَّان: نا عَبْد الرَّحمن بن عمر: نا أبو سهل محمد بن محمد القاضي: نا أبو بكر الأنباري: عن أبيه: عن أحمد بن عبيد: نا هشام بن محمد الكلبي قال: عاش عبيد بن سرية الجرهمي ثلاث مئة سنة ، وأدرك الإسلام ؛ فأسلم، ودخل على معاوية بالشام ؛ فقال له معاوية : كيف رأيت الدنيا ؟ .. إلخ»[1] .. وقال: «أنبانا أبو الفرج الخطيب، وغيره : عن أبي بكر أحمد بن علي الخطيب : أنا أبومنصور محمد بن علي بن إسحاق الكاتب : أنا أحمد بن بشر بن سعيد : أنا أحمد بن محمد بن بكر : نا أبوحاتم سهل بن محمد السجستاني قالوا : وعاش عبيد بن سرية الجرهمي ثلاث مئة سنة .. وقال بعضهم مئتين وعشرين سنة .. إلا أنا نظن أنه عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام فأسلم ، وقدم على معاوية ابن أبي سفيان [رضي الله عنهما] ؛ فبلغنا أن معاوية قال له : كم أتى عليك ؟ .. قال : مئتان وعشرون سنة .. قال : ومن أين علمت ذاك ؟.. قال : من كتاب الله .. قال : ومن أيِّ كتاب الله ؟.. قال من قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [سورة الإسراء /١٢]»[2].

قال أبوعبدالرحمن : أبو حاتم لم يُسند شيئاً ، وإنما قال : (قالوا) و(قال

(١) **تاريخ دمشق** ٣٨ / ٢٠٢ .. قال أبو عبدالرحمن : إذن لماذا أهمل ذكره أو تحقيق وجوده مَن ألَّفوا عن الصحابة رضي الله عنهم وهم كثير ، وأين وجوده في كتب التراجم المعتمدة ؟.

(٢) **تاريخ دمشق** ٣٨/ ٢٠٣ ، وساق ياقوت الحموي [- ٦٢٦هـ] ترجمته عن ابن عساكر ، وابن النديم ، والمعمرين والوصايا لأبي حاتم ، وذلك بكتابه **معجم الأدباء** ٤/ ١٥٨١ - ١٥٨٣ بتحقيق الدكتور إحسان عباس رحمه الله ، وساق أبو الحسن علي بن محمد الجزري [٥٥٥ - ٦٣٠هـ] بعض خبره في **أُسد الغابة** ٣/ ٥٤١ - ٥٤٢ عن ابن الكلبي ، وانظر كتاب **المعمرين** لأبي حاتم ٣٩ - ٤١ .

بعضهم) و(بلغنا) ، وقد توفي أبوحاتم سهل بن محمد السجْستاني سنة ٢٥٥هـ فمصدره ابن الكلبي ، ولم يرويا تفاصيل كتاب عبيد بن شَرِيَّة ، وإنما رويا أخباراً أسطورية عامة .. ثم إننا لا ندري ما وجه الدلالة من الآية الكريمة على تحديد عمره إلا من جهة الشيب ، وقد يغمر الشيب ابن خميس سنة ؟!.. وخبر أبي حاتم من كتابه عن المعمرين ، وهو كتاب أدبي أخباري فيه تسامح في النقل .. وساق الحافظ ابن حجر [- ٨٥٢هـ] رحمه الله تعالى بعض خبره عن ابن الكلبي ، ثم عزا إلى كذاب آخر هو ابن الحائك الهمداني؛ فقال : «وقد ذكر الرَّشاطي : عن الهمْداني: أن معاوية [رضي الله عنه] كان مستشرفاً لأخبار حمير ؛ فقال له عمرو بن العاص [رضي الله عنه] : أين أنت عن عُبيد بن شَرِيَّة ؛ فإنه أعلم من بقي بأخبارهم وأنسابهم ؛ فكتب إليه يأخذ الأخبار ؛ فألَّفها كتاباً ، وقد زيد فيه ونُقِص ؛ فلا يُؤْخذ منه نسختان مستويتان !!»[(١)].

قال أبو عبد الرحمن: يظهر لي أن سبب ادعاء اختلاف النسخ أحد ثلاثة أمور:

أولها : أن يكون ابن الكلبي ناسج معظم الأسطورة ، ثم أتمها الحميري .

وثانيها - وهو الأرجح : - إن صح أن أحداً ذكر كتباً لعبيد بن شرية قبل ابن النديم ، وأن ابن هشام الحميري هو جامع الأسطورة - : أن الهمداني ادَّعى اختلاف النسخ ؛ ليروِّج ما أضافه من أساطير أخرى منسوبة إلى عبيد الشخصية الوهمية .. والإكليل نفسه (حسب الأجزاء التي وصلت إلينا منه ، وهي الجزء الأول والثاني والثامن والعاشر) في سلسلة الأساطير اليمنية ؛ فهو إكليل الأكاذيب ألَّفه من وقائع

(١) الإصابة في تمييز الصحابة [رضوان الله عليهم] ٥/ ٨٩ ، والإمام ابن حجر في دور الاستقصاء ، وقد حدَّد مصدره في ابن الكلبي والهمْداني .. قال أبو عبدالرحمن : أقل دلالة في هذا أن الهمداني عمَّق الأسطورة وأضاف إليها .

صحيحة محرَّفة، ومن أساطير مَن سبقه، ومن إضافاته هو.. وقد ادَّعى من المصادر فوق ما ادَّعاه ابن الكلبي كما سيأتي إن شاء الله ؛ فذكر من مصادره «شيخ حمير وناسبها أبا نصر[1] محمد بن عبدالله بن سعيد بن عبدالله بن وهب إلٍّ بن شرحبيل ابن شمر بن زُرعة بن شرحبيل بن وهب إلٍّ بن نوف بن يُعفر بن الحارث بن شرح إلٍّ ابن يُعفر ذي بهر بن الحارث بن سعد بن مالك بن زيد بن سُدَد بن زرعة بن سبإ الأصغر .. وشهرته في صنعاء أبونصر الحنبصي[2] .. كان بحاثة قد لقي رجالاً ، وقرأ زُبر حمير القديمة ومساندها الدهرية؛ فهذا علامة في الأنساب لا يعلم به أحد من الناس غير الهمداني !![3].. ومن مصادره سجل خولان القديم بصعدة[4] ، ومن مصادره سجل محمد بن أبان الخنفري المتوارث من الجاهلية»[5] ؛ فهذا نسابة آخر لديه سجل من عصر الجاهلية (!!؟؟) لا يعلم به أحد غير الهمداني .

وثالثها وهو المرجوح : أن الهمداني هو ناسج أسطورة أخبار عبيد بن شرية ؛ فأسَّسه على أسسٍ عامة من الأسطورية لدى ابن الكلبي ؛ فادَّعى اختلاف النسخ ؛ ليوهم بأن الكتاب ذو أصول ، وأن الاختلاف عن نسخ متعددٍة بأمالي جديدة من عبيد ؛ فيروِّج بذلك لما يذكره من زيادات خيالية مضافة إلى نسخة المشرق الأسطورية .. ويُرجِّح هذا أن الهمداني توفي ٣٣٦هـ ، وأول مَن ذكر كتباً لعبيد ابن

(١) قال أبو عبدالرحمن: انظر عنه **تاريخ التراث العربي** م١ ج٢ **التدوين التاريخي** م١ ج٢ ص٨٢، وأحال إلى ابن ماكولا والسمعاني، ويأتي إن شاء الله تحقيق القول في مصادر الهمداني .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : المصدر السابق أحال إلى **الإكمال** لابن ماكولا ، **والأنساب** للسمعاني ، ولم أجد الإحالتين في مظانهما ، والمصدر الهمداني بلا ريب .

(٣) **انظر الإكليل** ١/٩ -١٣ .

(٤) **الإكليل** ١/١٣ .

(٥) **الإكليل** ١/١٩٩ .

النديم المتوفى سنة ٣٨٠هـ ؛ فهو بعد الهمداني .. وفي الإكليل للهمداني نصوص طِبْق ما في نسخة عبيد بن شرية المطبوعة ، وفيه ما لا يوجد بها، وفيه ما يوجد بها باختلاف ؛ ويكون هو الذي ركَّب إسناد الكتاب .

وذكر الهمداني قصيدة طويلة وصفها بأنها ملحمة لعبيد بن شرية الجرهمي ضَمَّنها ما حفظه من أخبار حمير وأشعارهم .. ثم لم يذكر منها غير هذين البيتين :

ومن ركبان يركب الأرض عن يد

ودامغ أعني ذو الأدحة يعمر

فيطحنها طحن الرحى بثفالها

بجيش يضيق الحقل عنه ويقصر[1]

قال أبو عبد الرحمن: هذا بأسلوب ركيك مسلوب النعمة لغة وفناً، وهو كلام من المفردات العدنانية، ومع هذا جُعِل من شعر حمير في الجاهلية ؟!، وما هما إلا من وضع الهمداني، وقد سرق فيهما شطراً لزهير بن أبي سُلمى.. وأما بقية الملحمة فلا تزال في قبر الهمداني !!.. والتيجان وأخبار عبيد من بالوعة واحدة ، وبأسلوب واحد .. تحار فيهما : أهما من نسيج وهب أو من نسيج ابن هشام الحميري ، أو من نسيج كذوب لم يُكتشف بعد ، أو من نسيج الهمداني ، أو من نسيجهم جميعاً على مدى الأيام؟! .. ومن كلامِ منتحلِ شخصيةِ عبيدٍ وكتابهِ هذا النصُّ: «وذكر بعض أصحاب السير عن عبيد بن شرية بأمر هود [عليه السلام] .. قال: أخبرني البختري: عن محمد بن إسحاق: عن محمد بن عبدالله بن أبي سعيد الخزاعي : عن أبي الطفيل عامر بن واثلة الكناني : عن علي بن أبي طالب صلوات الله عليه : أن

(١) **الإكليل** ٨/ ٧١ -٧٢ .

رجلاً من حضرموت جاء يسأله العلم ؛ فقال له عليٌّ عليه السلام : يا حضرمي أرأيت كثيباً أحمر تخلطه مدرة حمراء فيه أراك وسدر في موضع كذا وكذا من بلدك .. هل رأيته قط أو تعرفه؟؟ .. قال الحضرمي : نعم والله يا أمير المؤمنين .. قال علي : فإن فيه قبر النبي هود عليه السلام» .. وقال المحقِّق عن قوله : (وذكر بعض أهل) : «ولعل هذه العبارة كانت حاشية فأدمجها بعض النساخ في الأصل[1] .. ومع ذلك فهذا عبيد بن شرية ليس له دخل في هذه القصة».

قال أبو عبد الرحمن : كلمة (بأمر هود) غير مستقيمة، والصواب (أمر) بلا باء قبل (أمر) .. وكلمة (قال) بعد (هود) [عليه السلام] عائد ضميرها إلى عبيد؛ فلعل عمره - حسب الأسطورة - كان ممتداً إلى البختري ، وليس في الرواة من اسمه البختري، وإنما هناك أبو البختري الذي قال عنه الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى في لسان الميزان ٩/ ٢٠ رقم ٨٧٦١ : «شيخ كان بصيدا لا يكاد يُعرف .. كذَّبه دحيم»[2] .. وهناك أبو البَخْتري القاضي وهب بن وهب بن وهب بن كبير القرشي المتوفَّى سنة ٢٠٠هـ أجمعوا على أنه كذَّاب وضَّاع .. قال فيه سويد بن عمرو بن الزبير :

إنا وجدنا ابنَ وهبٍ حين حدثنا

عن النبي أضاع الدين والورعا

يروي أحاديثَ من إفْكٍ مجمَّعةً

أُفٌّ لوهبٍ وما روى وما جمعا»[3]

(١) أخبار عبيد بن شَرِيَّة ص٦٣٦.

(٢) لسان الميزان ٩/ ٢٠ برقم ٨٧٦١ .

(٣) ترجمته المظلمة في لسان الميزان ٨/ ٤٠٠-٤٠٤ برقم ٨٣٩٦.

وابن إسحاق توفي سنة ١٥٠هـ ، والخزاعي غير معروف ، والأحرى أن يكون ضمير (قال) عائداً إلى ابن هشام الحميري ؛ فهو في طبقة تلاميذ أبي البَخْتري ، ويكون الكلام تم عند (هود) عليه السلام بمعنى أن الإحالة إلى عبيد بن شريَّة ، وفيما ذكره من بعد (علي) رضي الله عنه ما يدلُّ على أن أصل النسخة المشبوهة يمني ؛ إذْ هذا منهج الزيدية عند ذكر علي رضي الله عنه ؛ فهم يقولون : (عليه السلام) .. وقال ابن هشام الحميري : في التيجان ص٢١٩ : «قال أبومحمد [يعني ابن هشام] : حدثني أبو عبدالأيلي: عن ابن لهيعة أنه قال: إن آخر مال الحارث بن مضاض أصابه عبدالله بن جدعان التيمي من قريش .. حدثني مكحول: عن أبي صالح : عن عبيد بن شريَّة الجرهمي ، (وكان عبيد بن شرية معمراً .. أدرك حرب داحس ، وبلغ إلى أيام معاوية [رضي الله عنه] في الإسلام ، وكان مسامراً له) ..» ، ثم ذكر الأسطورة إلى ص٢٢١[١] .

قال أبو عبد الرحمن: أنوي إن شاء الله إفراد سفر عن شخصية عبيد الوهمية، وعن أسطورتها مفصلة منذ شذرات ابن الكلبي إلى تدوينها كاملة برواية ابن هشام إلى عهد الهمداني مع مقارنتها بأساطير التاريخ اليمني كالتيجان والإكليل، وترجمة ودراسة بعض النصوص الأجنبية مستفيداً من الشذرات عنه في هذا الكتاب ، ومن مراجع أخرى ، ويهمني ههنا التنبيه إلى ما ورد عند الدكتور فؤاد سزكين[٢] ؛ فهو

(١) وانظر **الإكليل** ٨/١٨٣-١٨٦ .. ونقل في **الإكليل** ٨/٢٣٢-٢٣٤ خبراً من أخبار عبيد ص٤٤٦-٤٤٧ مع اختصار وإضافة .

(٢) **تاريخ التراث العربي** للدكتور فؤاد سزكين / **التدوين التاريخي** م١ ج٢ ص٣٢-٣٣ ، وهو كذلك مترجم في دائرة المعارف الإسلامية .. قال أبو عبدالرحمن : مع الأسف أن المطبوع من دائرة المعارف غير تام وفي مختصرها ٦٨٣٩/٢٢ - ٦٨٤٤ لم يرد ذكر عبيد في مادة طرفة بن العبد .

مثل ما في ص٦٢ عن أبي نصر الحنبصي - الذي هو من اختراع الهمداني - ؛ فعبيد عنده:

١ - راوية الأعشى وقصائد لطرفة ، وجمهرة الشعر الذي أورده صحيح ثابت في ديوانيهما ، وبعضه منحول ؛ ولهذا رجَّح أنه هو نفسه عبيد الوارد في دائرة المعارف الإسلامية مادة (طرفة) .

٢ - أن نبيهة عبود نفت الشكوك حول أخباره في دراستها عن البرديات العربية .

٣ - الرد على كرنكو في قوله : (إن عبيداً شخصية خرافية وهمية اخترعها ابن النديم)؛ لأن أبا حاتم السجستاني عرف عبيد بن شرية وهو قبل النديم ، ونقل عن المجلد الرابع من مروج الذهب للمسعودي ملاحظته أن الكتاب متداول ، وأن كثيراً يرونه منحولاً ، وأن عبيداً مؤلف أقدم كتاب في الأمثال ، وأن زلهايم في كتابه عن الأمثال العربية ذكر إفادة الميداني منه .

قال أبو عبد الرحمن : ههنا أمور :

أولها : أن تأليف الأسطورة التاريخية أسهل بكثير من تأليف الرواية الأدبية المعاصرة، وما أكثر الروايات الأدبية؛ لأن الأسطورة تقوم على أسس من حقائق عن بعض الأعلام والقبائل والشعر ، وعلى المأثور القصصي الأسطوري، وعلى السهولة في نظم بارد، وتقوم على أسلوب ركيك، وخيال لا يقبله العقل ولا الفن القصصي إن قرب أو بعد.. والأغلب كون الأسلوب الأسطوري مجهول المؤلف، ومنها ما هو معروف المؤلف إلا أنه كذاب .. ومنها ما نُحِّلَ عدلاً، أو نُحِّل كذَّاباً؛ لاتحاد اللقب كرواية أخبار عبيد من طريق البرقي عن ابن هشام الحميري؛ للإيهام بأنه صاحب تهذيب السيرة .. ومن هذه الأساطير ماهو للمسامرة مثل سيرة عنترة ، ومنها ما يُراد به المسامرة

مع ميول عصبية مثل الزير سالم، وصورة مخطوط عندي عن حروب تغلب، وسيرة بني هلال (التغريبة) .. ومنها ما وضع عصبية ، ويُحْكم له بالصحة بإيراده على أنه حقيقة تاريخية ، وتُرَكَّبُ فيه الأسانيد على العلماء .. وفي حكم ذلك كتب المثالب وإن كان مؤلفوها علماءَ معروفين ؛ فهذه تجمع بين الأكاذيب من المأثور ومن إبداع المؤلف ، ويوجد فيها شيء من الحقيقة عن بعض المثالب يفعلها فرد واحد ؛ فَتُجْعَل عيباً للقبيلة كلها .

وثانيها : أن عبيداً شخصية وهمية ، ولا يصح أنه راوية لشعر الأعشى وبعض شعر طرفة ، وإن صح ذلك فهو بإسناد ابن الكلبي مخترع هذه الشخصية ، وأما روايته لقصائد طرفة فبناءً على قول متأخرين مثل ربشر وكرنكو على أن الأخير لم يصرِّح بأنه عبيد بن شريَّة ، وإنما قال عبيد .

وثالثها : أن كون الشعر منحولاً ومعه شيئ من الصحيح - إن صح أنه برواية ابن شرية - فالعبرة بالكذب ؛ لأن الصدق ما هو خال من الكذب ، والكذب قد يكون بحتاً وقد يكون مزيجاً .

ورابعها : أنه ليس في أخبار عبيد - لا شخصية ، ولا سنداً ، ولا متناً - ما يجلب الصدق ؛ فيكون لنبيهة عبود مجال لِنَفْي الشكوك .

وخامسها: لم يخطئ كرنكو في كون عبيد شخصية وهمية، وقد كتب بذلك إلى الزركلي فقال: «وكتب لي الأستاذ كرنكو المستشرق الألماني يقول: (إن عبيداً هذا من اختراعات محمد بن إسحاق وابن النديم كما بينته في أطروحة نشرتها عند طبع روايته، ولم يكن في أي وقت رجل بهذا الاسم وإن وردت ترجمة له في إرشاد الأريب لياقوت) .. قلت : ومن قرأ كتابه في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها ترجَّح عنده أن الكتاب من وضع أصحاب القصص، وليس

من السهل اتهام ابن النديم باختراع اسمه؛ فلعله أخذه عمن تلقَّفه من أفواه غير المتثبتين من الرواة»[1].

قال أبو عبد الرحمن: أكثر المعاصرين لا يفرقون بين تعدُّد المصادر عن عَلَم من الأعلام، وبين كون المصدر لتلك المصادر واحداً؛ ولهذا فدعوى كرنكو أنه شخصية وهمية دعوى صحيحة، وإنما الخطأ في جعل شخصية عبيد من اختراع ابن إسحاق أو ابن النديم ، وإنما هي من اختراع ابن الكلبي المتوفى عام ٢٠٤، وهو لم يروِ أخبار عبيد المطبوعة ، وإنما روى عنه أخباراً متناثرة ليس بعضها في المطبوع من أخبار عبيد .. ثم جاء من بعده قوم يذكرونه بإسنادهم إلى ابن الكلبي وبدون إسناد أحياناً ، ولا مصدر لهم إلا ابن الكلبي، ولقد عدَّ أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ بعض من نُسب إليه كتابٌ في الأنساب ؛ فعدَّ منهم ابن شَرِيَّة الجرهمي[2] ، وذكر في الحيوان (ابن شريَّة) ضمن النسابين الذين لا يعرف غيرهم : أن النبيت وغسان بن مالك بن عمرو بن تميم ذوو عجز وقلة[3] .. وذكر عبيد بن شريَّة الجرهمي من القدماء في الحكمة والرياسة والخطابة[4].. وذكر نسابين من ضمنهم ابن الكلبي وأبيه ، ثم قال عنهم: «قالوا منا في الجاهلية عبيد بن شريَّة ، ومنَّا شِقٌّ.. إلخ»[5].

قال أبو عبد الرحمن : فما لم يسنده الجاحظ عن عبيد فمصدره ابن الكلبي؛ لأنه لا يُعلم أن أحداً ذكره قبله ؛ لأن الجاحظ لم يدرك مدة زمانه المدَّعاة –

(١) الإعلام ١٨٩/٤ .
(٢) الحيوان ٢١٠/٣ .
(٣) الحيوان ٣٦٥/١ .
(٤) البيان والتبيين ٣٦٢/١ .
(٥) البيان والتبيين ٣٦١/١ .

إذ أدرك عبدالملك بن مروان فقط لا من قبله ؟! - ، ولأن الجاحظ لم يسند .. وأبوحاتم بعد ابن الكلبي والجاحظ.. والأسطورة يسرقها الكذبة مثل إسناد حفيد ابن المسيب رحمه الله تعالى .

وسادسها : أن ابن النديم أول من ذكر كُتب عبيد - لا مجرد شخصية عبيد - ، وهو بعد ابن الكلبي وابن هشام الحميري والهمداني؛ فوجد أساطير منسوبة إلى عبيد فأثبتها .

وسابعها : أن المسعودي متأخر عن كل من مرَّ ذكرهم ، وقد قال عن ابن الكلبي : (قد لخص عن ابن شرية ملوك اليمن)[1] .. على أن ذلك ليس في أخبار ابن شرية؛ وهذا يدل على أن ابن الكلبي ذكر كثيراً من الأخبار المكذوبة .

وثامنها : لو صح أن الميداني أفاد من أمثال عبيد فذلك زيادة خرافة، والميداني متأخر عن وضع هذه الأساطير بقرون ، وسأذكر إن شاء الله مثلاً مكذوباً من أخبار عبيد .

وتاسعها : أن كرنكو هو ناشر أخبار عبيد عام ١٣٤٧هـ بحيدر آباد الدكن .

وعاشرها : أن الدكتور المقالح بعد حكمه بأسطورية التيجان (والحكم يسري بالتبع إلى ملحقه ، وهو أخبار عبيد بن شرية) قال : «ولكن من القصور العربي إهمال نشر دراسة كرنكو مع الكتاب» .

وكتبه لكم :

أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري

- عفا الله عنه -

(١) انظر مروج الذهب ٢/٨٥ - ٨٧ .

(٣ - ١٠) التاريخ والمسؤولية الفكرية :

أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري*

* محمد بن عمر ابن عبدالرحمن العقيل .
- ماجستير من المعهد العالي للقضاء في التفسير، وله مشاركات كثيرة في التأليف والمقالة والإذاعة.
- عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- رئيس الشؤون الثقافية بجمعية الثقافة والفنون، ورئيس تحرير مجلة النوباد، وأول رئيس للنادي الأدبي بالرياض.
- رئيس تحرير مجلة الدرعية وصاحب امتيازها.

قال أبوعبدالرحمن: سبق الكلام عن شيئ من أسطورة عبيد ابن شريَّة ومن أعجب العجب أن يكون شخص باسم عبيد بن شَرِيَّة بهذا العمر أدرك قروناً، وكان بهذا المستوى من العلم، وقد أسلم، ووفد على معاوية رضي الله عنه، وأدرك زمان عبد الملك ابن مروان: ثم لا نجد خبره عند غير ابن الكلبي الكذاب ، ثم عند كذاب آخر بعده بأكثر من قرن ونصف وهو الهمداني .. وأما ابن النديم فلم يُسند ، وإنما عاش بعد ابن الكلبي بسنين ؛ فالمصدر ابن الكلبي ، وما وجده من أثر مخطوط مكذوب .. من العجيب أن تغيب هذه الشخصية التاريخية ، وذلك العلم التاريخي في عصر نشاط الرواية، وتحرُّك العلماء الثقات بجدٍّ لتدوينها: ثم لا يرووها، ولا يحققوا حياة عبيد العامرة المديدة، ولا يظهروا حكمهم في روايته تصحيحاً أو تمريضاً، وإنما تكون وقفاً على ابن الكلبي !! .. والمحقق عندي في أمر عبيد أحد أمرين أولهما أرجحهما :

الأمر الأول : أن يكون عبيد ذا وجود في الرواية التاريخية لدى الأخباريين قبل ابن الكلبي - سواء أصح هذا الوجود في الواقع، أو لم يصح - ، وأنه من المعمَّرين فحسب .. وعلى فرض صحة وجود

هذه الشخصية في الواقع فالأرجح أنه لم يدرك الإسلام ؛ لأنه لو أدرك الإسلام وهو بهذا العمر لكان مُقْتَضَى الغالب في العادة أن يروي عنه الثقات ؛ فكيف لا يروون عمن بلغ عمره ثلاثة قرون ؟! .. ثم وسَّع ابن الكلبي ذيول هذه الشخصية ، فزعم أنه نسَّابة ، وأنه كتب لمعاوية رضي الله عنه نسباً وتاريخاً وأدباً !! .

والأمر الثاني : أن تكون الشخصية وهمية مختلقة ابتدعها ابن الكلبي ، ولا وجود لها قبل ابن الكلبي لا واقعاً ولا في رواية مصطنعة من الأخباريين .

وأما الأثر الموجود المنسوب إليه فهو كتاب موضوع لا إسناد له لا إلى مؤلفه، ولا إلى ناسخه في زمنٍ العمدةُ فيه على الإسناد، ومتن الكتاب مملوءٌ كذباً وغثاثة لا ينطلي على عبقريٍّ مثل معاوية رضي الله عنه ، وأكتفي بهذا السياق من أوله المبتور من كل توثيق.. قال: «بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين .. الحمد لله حمد الشاكرين، وسبحانه تعداد الأيام والسنين ، وصلى الله على رسوله خاتم النبيين ، وخيرته من خلقه الأمين، وعلى آله الطاهرين، ورحمته وسلامه [هذا الاستفتاح من أساليب المتأخرين عن عهد البرقي الراوي، أو ابن هشام].. حدثنا[1] عبيد ابن شرية الجرهمي: عن البرقي يرفع الحديث: أن معاوية بن أبي سفيان [رضي الله عنه] كان أميراً لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب [رضي الله عنه] عشر سنين ، ووليها لعثمان أيضاً عشراً،

(١) كذا في نسختي الأصل (أ) و(ب) والصواب (حديث) وكأنه كان في الأصل الأول (حديث عبيد ابن شرية الجرهمي) عنواناً ثم ابتدأ فقال عن البرقي .. إلخ .. والبرقي تلميذ ابن هشام مؤلف التيجان، وقد استنتج المستر كرنكو من هذا ومن ذكر بعض مشايخ ابن هشام في هذا الكتاب أن الجامع له ابن هشام ، وكأن القائل عن البرقي أحد تلامذته - ح [الناشر] .. قال أبو عبدالرحمن : إذن تكون الرواية من صُنْع ابن هشام الحميري .
قال أبوعبد الرحمن : إن صح أنه من جمع ابن هشام أو تلميذه فحكمه حكم التيجان نقله عنهما من لا يُعتَدُّ به .. وابن هشام هو الحميري لا الذهلي كما سبق بيانه.

ثم وليها بنفسه عشرين سنة، ودانت له المشارق والمغارب، ونال رفاعة الملك - وهو أول من تملَّك واتخذ المقصورة، وَوُقف على رأسه إذا سجد، وجمع الأموال - ، وكانت أفضل لذَّاته في آخر عمره المسامرة وأحاديث من مضى ؛ فقال له عمرو بن العاص [رضي الله عنه] : لو بعثت إلى الجرهمي الذي بالرقة من بقايا من مضى؛ فإنه أدرك ملوك الجاهلية وهو أعلم من بقي اليوم في أحاديث العرب وأنسابها، وَأَوْصَفُه لما مر عليه من تصاريف الدهر.. فبعث إليه معاوية؛ فأتى[1] في محمل بعد أيام كثيرة وشِدَّة شوق من معاوية إليه؛ فدخل عليه شيخ كبير السن، صحيح البدن ، ثابت العقل، منتبه، ذرب اللسان كأنه الجذع؛ فسلم على معاوية بالخلافة؛ فرحب به معاوية، وقال له: إني أردت اتخاذك مؤدِّباً[2] لي وسميراً ومقوِّماً، وأنا باعث إلى أهلك، وأنقلهم إلى جواري، وكن لي سميراً في ليلي ووزيراً[3] في أمري.. قال: يا أمير المؤمنين: (رأيتني ورأيت رحلي)؛ فأرسلها مثلاً في العرب[4] !.. قال له معاوية: فذلك أخف لمؤونتك، وأحلى للزومك.. فأمر به معاوية فأنزله في قربه، وأخدمه، وأمر من يُجري وظيفته، ووسَّع عليه وألطفه؛ فإذا كان ذلك[5] في وقت السمر فهو سميره في

(١) لعلها : (أُتِيَ به) .

(٢) قال أبوعبدالرحمن : مرَّ أن معاوية رضي الله عنه كان في آخر عمره ؛ فكيف يكون مؤدباً له؟.. إنما المؤدبون للصبية ، وهو ذو سيادة مع أبيه رضي الله عنهما منذ الجاهلية ؛ فمثل هذا الجبهة يحتاج إلى مؤدِّب ؟.

(٣) قال أبو عبد الرحمن : من العجب أن يطلب معاوية رضي الله عنه وزارة شيخ كبير ليس عنده من المقوِّمات إلا السمر لو صحت القصة !! .

(٤) قال أبوعبدالرحمن : لا يُعرف هذا المثل عند العرب .. وإنْ عُرف - وهو لا يُعرف - فعن طريق هذه الأسطورة ، وقد راجعتُ عدداً من كتب الأمثال، وأوسعها كتاب (معجم الأمثال العربية) لخير الدين شمسي باشا ؛ فلم أجده .

(٥) قال أبو عبدالرحمن : أين المشار إليه في هذا الأسلوب الأعجمي ؟! .

خاصته من أهل بيته ، وكان يقصر عليه ليله، ويُذهب عنه همومه ، وأنساه على[١] كل سمير كان قبله، ولم يخطر على قلبه شيء قط إلا وجد عنده فيه شيئاً وفرحاً ومرحاً[٢]؛ فإذا به كان يحدثه وقائع[٣] العرب وأشعارها وأخبارها أمَر أهل ديوانه وكتَّابه أن يوقعوه ويدونوه في الكتب[٤] ؛ فبينما هو ذات يوم في مجلس لمعاوية وفيه عمرو بن العاص [رضي الله عنهما] وجماعة من قريش - وقد أخذوا في الحديث وعبيد بن شرية يحدثهم - قال له معاوية: كم أتى عليك من العمر يا عبيد؟.. قال : كثير يا أمير المؤمنين .. كفاك أنه لم يبق جرهمي غيري .. أتى عليَّ مئة سنة وخمسون سنة[٥].. قال له معاوية: هل شهدت دخول الحبشة ورجمها البيت الحرام ؟.. قال: نعم يا أمير المؤمنين، إنما كان ذلك بالأمس، ولقد أدركت عامة ملوك لخم وكندة وحمير وغسان[٦].. قال له معاوية: حدثني يا عبيد كيف كانت الجاهلية باليمن، ولم يكن لبني معد بن عدنان معهم ذكر، ولم يظفروا منها طائل ؟[٧].. قال: يا أمير المؤمنين:

(١) قال أبوعبدالرحمن : هذا أسلوب أعجمي ؛ لأن كلمة (على) حشو ، والفعل متعدٍّ بدونها .

(٢) قال أبو عبد الرحمن : مِن كَذِبِ هذه الأسطورة أن تمضي هذه المدة من السمر ولا يوجد خبرها إلا في هذا الكتاب المنتحل بعد قرابة قرنين من الزمان ؟!.

(٣) قال أبو عبدالرحمن : ورد في اللغة : حدَّثه الحديث ، وحدَّثه به ؛ فهو يتعدى إلى مفعولين مباشرة ، أو إلى المفعول الثاني بحرف الجر .. والتعدية مباشرة أبلغ في الاستقصاء .

(٤) قال أبوعبدالرحمن : إذن لماذا لم يُستخرج الكتاب من ديوان معاوية رضي الله عنه موثَّقاً بالإسناد والختم ؟! .. وفي هذه العجمة من عدم الترابط : (فإذا به) و(أمر) بدون رابطة.

(٥) كذا - وفي كتاب المعمرين - أن معاوية قال له : أخبرني كم أتى عليك؟.. قال: مئتان وعشرون سنة - ح [الناشر] .. قال أبوعبدالرحمن : هذه أسطورة أخرى عن قبيلة فنيت لم يبق منها غير واحد ؟! .

(٦) قال أبوعبدالرحمن: مع هذه الأهمية حُرِم جماهير الرواة، وخواص الثقات من الرواية عنه!!.

(٧) لعل في الأصل المخطوط لهذا الأثر المزور (على طائل) .

ومثلك يجهل هذا ؟!.. إنما كانت مضر بالأمس، وكانت اليمن وملكت[1]، ولم يكن مضر ولا معد ولا عدنان ولا إسماعيل؛ إنما اليمن من ولد هود [عليه السلام] ، واسمه بالسريانية عابر وبينه وبين إبراهيم عليه السلام [عليهما وعلى نبينا وجميع أنبياء الله ورسله أفضل الصلاة السلام] ثماني مئة سنة ، وعاش صلوات الله عليه مئتي سنة، وقيذار عاش مئة سنة وأربعين سنة، ومضر من ولد قيذار بن إسماعيل ابن إبراهيم؛ فكيف حتى[2] وُلِد عدنان ومعد ونزار ومضر، وكيف حتى شُعِّبت الآثار وانتشروا في البلاد ؟.. قال له معاوية: صدقت وبررت.. أخبرني عنك مالك إذا[3] ذكرت إبراهيم لم تملك أن تصلي عليه، وقد ذكرت والدكم هوداً نبي الله فلم تصلِّ عليه وهو نبي الله !.. قال : يا أمير المؤمنين والله لهو أحب إليَّ من أبي الذي حملني في صلبه، وأحب إليَّ من أمي التي أرضعتني، ولا أعدل بخليل الرحمن أحداً، ولا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، ولا هوداً[4] صلى الله عليه وعلى جميع الأنبياء.. قال له معاوية: إنك لمنصف؛ فخذ في حديثك يرحمك الله عن ملوك اليمن - وقد بلغني عن حمير وسَيْرها في البلاد وملكها في مشارق الأرض ومغاربها - ، وكيف كان ذلك تُسَخِّر العرب والعجم ؟[5] .. وعن افتراق ألسنة الناس، وعن أهل بابل ، ومتى كان ذلك ، وكيف كان ذلك ؟.. وسألتك ألا تمر بشعر تحفظه فيما قاله أحد إلا ذكرته؟؟.. قال : يا أمير المؤمنين : لك في غير هذا الحديث ما يقصر ليلك ،

(١) قال أبو عبدالرحمن : هكذا أيضاً في صورة المخطوط ، ولعل الكلمة في هذا الأثر المكذوب محرفة عن (وملوكها) .

(٢) قال أبوعبدالرحمن : هذا أسلوب أعجمي .

(٣) قال أبوعبدالرحمن : لعل الصواب (إذْ) ؛ لأنه لم يذكر إبراهيم عليه السلام سوى مرتين .

(٤) قال أبو عبدالرحمن : موقع الاسمين الكريمين الجر عطفا على (بخليل) ، فناسج الأسطورة شبه عامي .

(٥) قال أبوعبدالرحمن : كل هذا السياق أسلوب أعجمي هُلامي .

وتلذُّ به في نهارك ؛ فإن فيه ما تهوى وما لا تهوى ، ومغضبة وشغفاً للملوك، ونعش المودة .. قال : عزمت عليك إلا اتبعت هواي ، وحدثتني ما علمت مما أسألك عنه ، فأنت في جوار الله وذمته وأمان مني ومن غضبي ونعش مودتي .. قال جميع جلساء معاوية : ولك منا ذلك من جميعنا[١] .. وأمر معاوية كُتَّابه أن يدوِّنوا ما يتحدث به عبيد بن شرية في كل مجلس سمر فيه مع معاوية .. قال عبيد : سل يا أمير المؤمنين .. قال معاوية[٢]: فمن العرب العاربة ومن العرب المستعربة ؟.. قال : يا معاوية أتعلم أنت وغيرك من أولي العلم إنما هي عاد وثمود وطسم وجديس وإرم والعماليق وجرهم وقحطان بن هود ؛ فهم كانوا أوائل الناس منهم يعرب الذي تكلم بالعربية .. كلٌّ أخذه من يعرب بن قحطان بن هود ، وإليه تُنسب العربية[٣] ؛ فقيل : عربي .. لأن يعرب أول من نطق بها ، وليس أحد غيره تكلم قبله بها ؛ فهذه الأجناس التي سمَّيتُ لك تكلمت بكلام يعرب بن قحطان بن هود النبي ﷺ حتى كان

(١) قال أبو عبد الرحمن: وهذا عجب آخر، فجلساء معاوية رضي الله عنه يجيرون عليه!!.. وهذا السمر المنسوب إلى معاوية رضي الله عنه - ذي الجد والعزيمة - شبيه في أسلوب الحوار بما ينسب إلى هارون الرشيد رحمه الله من قضاء ليله بالسمر الأدبي، ثم إن (منا) حشو .

(٢) قال أبوعبدالرحمن : ولماذا لا يكون أمير المؤمنين ؟!.

(٣) قال أبو عبد الرحمن : إنما هي عرب بائدة عاربة كعاد ، وعرب باقية ، وهم المستعربون ، وهم قحطان وعدنان ، وهذا رأي أثبات النسابين من الفقهاء والمحدثين ، وعليه شواهد شرعية وتاريخية ، والعرب ليس نسبة إلى جد ، بل إلى الصحراء (عروبة) ، والعرب العاربة ذات لغة سامية اشتُقَّ منها لغة العرب الباقية ، ثم لما ذهب القحطانيون إلى اليمن اختلَّت لغتهم بالخلطة ؛ وإنما قربت لهجتهم من لهجات إخوانهم العدنانيين في الجاهلية المقدَّرة بحوالي قرنين قبل الإسلام ، ويدل على ذلك شعرهم الموثَّق في كتب المختارات .. والأسلوب بعد هذا أعجمي؛ وفي هذا الكذب محال؛ لأن الأجناس التي ذكرها بائدة ؛ وعلى هذا يكون البائدون تعلموا من يعرب ، وبقي يعرب وهم هلكوا ، فأين إذن اللغات السامية قبل أن تستقرَّ لغة العرب ذوي العرق في النسب؟ .

إسماعيل ، ونقله أبوه إبراهيم ﷺ من بلاده ؛ فأنزله بمكة ؛ فكنا نحن جرهم[1] أهل البلد الحرام ؛ فنشأ إسماعيل فينا ، وتكلم بكلام العربية ، وتزوَّج منا ؛ فجميع ولد إسماعيل من بنت مضاض بن عمرو الجرهمي ، وأبوه وإسماعيل منا ، وأنتم يا قريش منا ، والعرب بعضها من بعض.. ألم تعلموا أنكم من ولد إسماعيل بن إبراهيم ﷺ ، وإبراهيم ونحن ولدناه وأبوه آزر واسمه تارخ بن ناحور بن أرغو بن شارخ بن فالغ بن عابر (وهو هود)[2]؛ فهو أبونا وأبوكم ؛ فنحن ولدناكم، وأنتم منا ، ونحن

(١) إنما جرهم الأولى من العرب البائدة ، وجرهم الثانية من العرب الباقية من قحطان .. ونسب إبراهيم الخليل عند أهل الكتاب وفي كتب التاريخ جاء بصيغ مختلفة أشهرها إبراهيم [عليه السلام] بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام ابن نوح عليه السلام .. انظر قصص الأنبياء [عليهم السلام] والتاريخ للدكتور رشدي البدراوي ٢/٢١٦ و ٢١٩ .. والزعم بأن عابر هو نبي الله هود عليه السلام فرية ؛ لأن بينه وبين قوم نوح أمداً بعيداً في عهود المعمَّرين .. ثم كيف تكونت عادة الكبيرة العظيمة - والعظمة لله في قرن واحد لو كان عابر هو هود عليه السلام؟.

(٢) قال أبو عبدالرحمن : هذه دعوى كاذبة عمدتُها عند العرب هذه الأساطير، وللإمام أبو محمد كلام نفيس وإن كان أوله باطلاً أحببت سياقه ههنا .. قال رحمه الله تعالى في جمهرة أنساب العرب / دار المعارف ص٧ - ٨ : «وأما قحطان فمختلفٌ فيه من ولد من هو ؟ ؛ فقومٌ قالوا: (هو من ولد إسماعيل عليه السلام)، وهذا باطل بلا شك؛ إذ لو كانوا من ولد إسماعيل لما خص رسول الله ﷺ بني العَنبر بن عمرو بن تميم بن مرَّ بن أُدّ بن طابخة بن إلياس بن مُضَر بن نِزار بن معد بن عدنان بأن تَعْتق منهم عائشة [رضي الله عنها] وإذّ [ألواو مُقْحمة] كان عليها نَذْرُ عتق رَقبة من بني إسماعيل [عليه السلام] ؛ فصحَّ بهذا أنَّ في العرب من ليس من ولد إسماعيل [عليه السلام] ؛ وإذ بنو العنبر من ولد إسماعيل [عليه السلام] فآباؤه بلا شك من ولد إسماعيل ؛ فلم يبْقَ إلا قحطان وقضاعة .. وقد قيل : (إنَّ قحطان من ولد سام ابن نوح) والله أعلم ، وقيل : (من ولد هود عليه السلام) ، وهذا باطلٌ أيضاً بيقين قول الله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [سورة الأعراف / ٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [سورة الحاقة/ ٦ - ٨]، وهود عليه السلام من عاد، ولا ترى باقية ==

منكم - قليل في كثير - .. قال معاوية : كأنك تتحدث عن حديث الجاهلية ؟ .. قال عبيد : يا أمير المؤمنين : لك في الإسلام ما يغنيك عن ذلك ؛ فقد محق الإسلام ما كان قبله كما محق الشمس ضوء القمر .. قال: عزمت عليك إلا حدثتني عما أسألك عنه؟.. قال : يا أمير المؤمنين : كان من خبر أهل بابل ، وافتراق ألسنة الناس : أنه

== لعاد .. والذي في التوراة من أنه قحطان بن عامر [بل عابر] بن شالخ بن أرفخْشد بن سام بن نوح عليه السلام فقد بَيَّنَّا في كتابنا الموسوم بـ (الفِصَل) يقين فسادِ نقل التوراة عند ذكرنا ما فيها من الكذب الظاهر الذي لا مخرَج منه ، وأنها مصنوعة مولدةٌ ليست التي أنزل الله تعالى على موسى عليه السلام ألبتَّة .

وأما قُضاعة فمخْتَلَفٌ فيه فقومٌ يقولون : (هو قُضاعة بن مَعَد بن عدنان) ، وقومٌ يقولون : (هو قُضاعة بن مالك بن حِمْيَر) ؛ فالله أعلم .. ووجدنا في كتب بطليموس ، وفي كتب العجَم القديمة ذِكْرَ القُضاعيين ونُبْذة من أخبارهم وحروبهم ؛ فالله أعلم أهُمْ أوائل قضاعة هذه وأسلافهم ، أم هم غيرهُم .. وبلاد قُضاعة متَّصلة بالشأم ، وببلاد يونان والأمم التي بادت ممالكُها بغلبة الروم عليها، وببلاد بني عدنان ، ولا تتَّصل ببلاد اليمن أصلاً .. إلا أن الذي يُقطع به ، ويُثبت ، ويحقق ، ويوقن فهو أنه ليس على ظهر الأرض أحد يصل نسبه بصلة قاطعةٍ ونقل ثابت إلى إسماعيل ولا إلى إسحاق عليهما السلام .. نعني ابني إبراهيم خليل الله ، فكيف إلى نوح ، فكيف إلى آدَم عليهما السلام ؟.. هذا ما لا مرْية فيه» .

قال أبو عبدالرحمن : حديث عائشة رضي الله عنها مردودة طرقه المختلفة زيادة وسياقاً إلى رواية الصحيحين ، وإلى ما اتُّفق عليه من معانيه ؛ وذلك أن المسبيَّة عند عائشة رضي الله عنها - وكانت العرب يومها تُستَرَق (بالبناء على مالم يُسمَّ فاعله) حتى أبطل الشرع ذلك - من بني العنبر .. ولو كانت من أي حيٍّ آخر من العرب لكان الحكم واحداً ، وتحقيق ذلك في كتابي (العرب نسباً وشرفاً) ؛ فإن كنتَ مُسْتعجلاً فانظر فتح الباري / دار السلام بالرياض ٥/٢١٠ و٢١٣ - ٢١٤ (كتاب العتق/ باب من ملك العرب رقيقاً/ رقم الحديث ٢١٠)، و٦/١١١ و٢١٢ - ٢١٣ (كتاب الجهاد والسير / باب التحريض على الرمي / رقم الحديث ٢٨٩٩)، وص٥٠٠ - ٥٠١ (كتاب أحاديث الأنبياء/ باب قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ﴾ [سورة مريم/ ٥٤] رقم الحديث ٣٣٧٣)، وص٦٥٧ - ٧٥٩ (المناقب/ باب نسبة اليمن إلى إسماعيل [عليه السلام] رقم الحديث ٣٥٠٧)، و٨/١٠٥-١٠٦، و(كتاب المغازي / باب قال ابن إسحاق/ رقم الحديث ٤٣٦٦).

لما كثر ولد سام ويافث وحام أولاد نوح [عليه السلام] في بلاد الله ، وأراد الله أن يفرقهم في البلدان ويخالف بين ألسنتهم ؛ فبعث عليهم الأرواح الأربع .. قال معاوية: ما هذه الأرواح الأربع ؟ .. قال : الشمال والجنوب والصبا والدبور ؛ فضمتهم الأرواح الأربع من أربعة جوانب من كل ناحية كانوا بها ساقتهم ؛ فجمعتهم ببابل وكانوا بها ، ثم مكثوا بها ثلاثة أيام يموج بعضهم في بعض ، وعلموا أن ذلك أمر من السماء ولا يدرون ما يُراد بهم غير أنهم لا يشكُّون أن الله الذي فعل بهم ذلك والله مُظهرٌ إرادته؛ فلما كان اليوم الرابع سمعوا من قِبَلِ السماء صوتاً ينادي : ألا إن الله مفرِّق بين ألسنتكم ومسكنكم أطراف الأرض ؛ فأيُّما قومٌ توجهوا وجهاً فكلامهم ولسانهم واحد[1] .. قال معاوية : وما كان اللسان يومئذ ؟.. قال عبيد : سرياني أوله وآخره ، وهو لسان أبينا آدم عليه السلام ونوح وإدريس .. قال معاوية : كيف اختصت أرض بابل باجتماع الناس فيها ؟ .. قال عبيد : هي سرة الأرض[2] في فضلها، وأراد الله ذلك بها.. قال معاوية: ومن أول من أنطقه الله غير السريانية، وأول من توجه من بابل؟.. قال: أول من توجه من بابل يعرب بن قحطان بن عابر (وهو هود النبي عليه السلام) ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح .. توجه من بابل بجميع ولده ومن اتبعه ، ثم نادى: إني سائر في بلاد الله؛ فمن تبعني فله ما لي وعليه ما علي.. قال معاوية: بالعربية أم بالسريانية ؟.. قال عبيد : لم ينطق بغير اللسان السرياني حتى استقر به قراره في بلد سوى بابل .. قال معاوية : سألتك إلا أخبرتني بما تكلم يعرب أوَّلَ ما تكلم ؟.. قال : يا أمير المؤمنين ذكر اسم ربه عند

(١) قال أبو عبد الرحمن: معاوية رضي الله عنه أرجح عقلاً ، وأعلم بدين ربه ، وأن ما مضى ، ونزول صوت من السماء غيبٌ لا يُعلم إلا بخبر شرعي معصوم .

(٢) بل سرة الأرض ومركزها مكة المكرمة .

نزوله بالعربية ، وتكلم شعراً ، وتكلم بها بعده ولده .. قال معاوية : أُذْكر الشعر الذي قاله يعرب .. قال عبيد : قال يعرب :

أنا ابن قحطان الهمام الأقيل ... لست بنكال ولا مؤمل[١]

والمبتدي باللسان المسهل ... بالمنطق الأبين غير المشكل

برزتُ والأمة في تبلبل ... نحو يمين الشمس في تمهل

ونقهر الأمة في تفضل ... قد جاءنا نوح بقول فيصل

ونوح جد للجدود الأول ... لابد في عقب الزمان الأطول

غيركم ينطق بالمرسل ... بالنحو والإعراب والتنزُّل[٢]

وكل خير ما روى الرواة لي ... من الإله ذي الجلال المفضل

قال معاوية : فأين توجه ؟.. قال عبيد : لما خرج يعرب بجميع ولده (وكان أقوى ولد سام بن نوح وأعظمهم شأناً)[٣] لم يُقصِّر حتى نزل بأرض اليمن التي هم بها اليوم .. قال معاوية : فمن شخص بعد يعرب ؟.. قال : عاد بن عوص بن إرم بن سام ابن نوح حتى جاوره[٤] .. قال معاوية : فما صار إليه شأنه وبما أنطقه الله ؟.. قال عبيد لما توجه إلى ما قِبَل يعرب تكلم بكلام يعرب .. قال : فهل نطق بشيئ من

(١) تقدم ذكره فارجع إليه إن شئت - ح [الناشر] .. قال أبوعبدالرحمن : يعني مضى في كتاب التيجان لابن هشام الحميري ؛ لأنهما طُبعا معاً في مجلد واحد .

(٢) قال أبوعبدالرحمن : يذكر نحواً وإعراباً مما هو اصطلاح حديث .. ثم الشعر بعد هذا شعر ركيك بارد بلغة عدنانية إلا أن النظم هلامي ؛ فجعله من لغة العرب البائدة !!.. والشطر الثاني من البيت الذي قبل هذا لا معنى له .

(٣) قال أبو عبد الرحمن : من أين جاء لعبيد أو لابن هشام الحميري أو للبرقي - وهو العدل البريئ من هذه الرواية - هذا الوحي عن آلاف من القرون ، ومن قال : إن يعربَ أقوى من أقوياء عاد ، وأنه أعظم شأناً من هود وصالح عليهما السلام ؟.

(٤) على هذا الزعم الكاذب يكون سام الجد السادس ليعرب ، وهو الجد الرابع لعاد ؛ فصار المسبوق سابقاً !! .

الشعر ؟.. قال : نعم كثير .. قال : فاذكر بعض ما ذكره ، فإنا نرويه .. قال عبيد : سأذكر لك من كل شيئ سبباً .. قال عبيد : لما استقر بعاد قراره أنشأ يقول :

إني أنا عاد الطويل النادي ذو العز والقوة والسداد
والبطش والأموال والأولاد يا قوم أجيبوا صوت ذا المنادي
فقد سمعتموه إذ ينادي من غير ما شخص ترون بادي
ففيه عبرة لذي السداد فسرت بالطارف والتلاد
حتى حللت بالهمام عادي قد قال نوح خيركم أولادي
عاد المعادي غالب الأعادي من ولد عوص الغر ذي الميعاد»[1]

قال أبو عبد الرحمن: الاستفتاح من استهلال المتأخرين؛ فهو بعد القرن الأول بلا ريب، والسياق مدخل صريح للتعصب للقحطانية؛ مما يدل على أن الأثر وُضع بُعَيْدَ العصبية بين العدنانية والقحطانية التي أنتجت دماء ومنافرات ومفاخرات.. وإذا صح أن ابن هشام هو جامع الكتاب فقد توفي عام سنة ٢١٨ هـ ؛ فكم بينه وبين معاوية رضي الله عنه، وهو لم يذكر إسناده ؟.. هذا على الزعم من أنه هو مهذب سيرة ابن إسحاق ؛ فذلك ثقة ، ومن المؤكد أنه الحميري صاحب التيجان، وجامع أخبار عبيد، وهو غير ابن هشام مهذِّب السيرة ؛ فقد صحَّح الذهبي قول ابن يونس: إن

(١) أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن بآخر كتاب التيجان ص٣٢٥ - ٣٣٠ ، وهذا نظم بارد على لغة عدنان ، وإنما استقرت لغتهم الفصحى قبل الإسلام بقرنين تقريباً .. وبقية الكتاب تمضي على هذا النسق من الأكاذيب ، وحَشْوِيُّو التاريخ ينقلون أساطير التاريخ اليمني وغيره على علاتها ، وانظر على سبيل المثال النقل عن ابن شَرِيَّة في مروج الذهب للمسعودي ٢/٨٥-٨٧ بتحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ، ومنتهى توثيق المسعودي قوله ٢/٨٧ : «وإنما ذكرنا ما حكيناه عن عبيد بن شرية في ترتيب ملوكهم ، وتباين تواريخ سنيِّهم ؛ لنأتي على جميع ما قيل في ذلك من التنازع» .

مهذب السيرة ذهلي لا حميري[١]، وقد نقل القاضي ابن خلكان [٦٠٨ - ٦٨١هـ] عن تاريخ مصر لأبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس: إنه ذهلي ، والحميري غيره[٢].. قال أبو عبد الرحمن: هناك ذماري يقال له: (عبد الملك بن عبد الرحمن ابن هشام) روى عنه إسحاق بن راهويه بإسناده إلى وهب بن منبه ، وعدد رجال الإسناد بمقدار عدد رجال إسناد ابن هشام صاحب التيجان ، وقد التبس بعبد الملك ابن عبد الرحمن الشامي؛ فضعفوا الأخير، ووثق الذماريَّ الجمهورُ مع أنه لم يخل من نقد أيضاً، كما أن المترجمين لم يحسموا أمر التفريق بينهما على سبيل القطع، وأكتفي بكلام الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى.. قال «الأبناويُّ أبو هشام.. ويقال: أبو العباس .. ويقال: هما اثنان .. ذمار على مرحلتين من صنعاء .. روى عن

(١) تاريخ الإسلام بأحداث ٢١١-٢٢٠هـ ص٢٨٢، و٥/٣٨٧/ دار الغرب الإسلامي، وقال ص٣٨٧ - ٣٨٨: «وقد سمعت السِّيرة» من روايته ؛ فأخبرنا بها أبو المعالي الأبرقوهي (قرأتها في ستَّة أيَّام في النَّهار الطَّويل) قال : أخبرنا عبدالقوي بن عبدالعزيز السَّعْدي قال : أخبرنا عبدالله ابن رفاعة السَّعْدي قال : حدثنا عليّ بن الحسن الخِلعي قال : أخبرنا أبو محمد ابن النَّحَّاس قال : أخبرنا أبو محمد بن الورد قال: أخبرنا أبو سعيد عبدالرحيم بن عبدالله بن عبدالرحيم قال: حدثنا عبدالملك بن هشام قال : حدثنا زياد بن عبدالله : عن ابن إسحاق: فذكر الكتاب . وكان ابن هشام نَحوياً أديباً أخبارياً فاضلاً رحمه الله .. قال الدَّارَقُطْني : حدَّثني أبو العبَّاس عُبَيد الله بن محمد المُطَّلبي بالرَّملَة : عن زكريا بن يحيى بن حَيُّوية قال : سمعت المُزَني يقول: قَدِم علينا الشافعي وكان بمصر عبدالملك بن هشام صاحب (المغازي) ، وكان علاَّمة أهل مصر بالعربيَّة والشعر ؛ فقيل له في المصير إلى الشَّافعي ؛ فتثاقل ، ثم ذهب إليه ، فقال : ما ظننتُ أنَّ الله خلق مثل الشافعي».

قال أبو عبدالرحمن : أمثل هذا الإمام يكتب أساطير التيجان ؟!.. وساعَد هؤلاء الكَذَبة أن الإسناد إلى (عبدالملك بن هشام) ، ولا يُذكر الذُّهلي ؛ فكانت فرصتهم بجعله الحميري ، وكلاهما متعاصران في مصر .

(٢) وفيات الأعيان ٣/١٧٧.

إبراهيم بن أبي عبلة ، وخالد بن يزيد بن هريذ الصنعاني، والثوري، والأوزاعي ، والقاسم بن معن المسعودي، ومحمد بن جابر السحيمي، ومحمد بن رمانة وغيرهم.. وعنه أحمد بن حنبل، وأحمد بن صالح المصري وكناه أبا هشام، وإسحاق ابن راهويه، وعمرو بن علي الصيرفي، وأبو سلمة بن محمد بن عفان الهمداني الصنعاني الفقيه، وإبراهيم بن محمد بن عرعرة ، ونوح بن حبيب ونسباه إلى هشام، وغيرهم .. قال أبو زرعة : منكر الحديث .. وقال أبو حاتم: شيخ .. وقال في موضع آخر : ليس بالقوي .. وقال عمرو بن علي [هو الفلاس] : ثنا أبو العباس عبد الملك بن عبد الرحمن الذماري وكان ثقة .. وقال في موضع آخر : وكان صدوقاً .. وذكره ابن حبان في الثقات ، وقال أبو داوود : كان قاضياً فقضى بقود ؛ فدخلت عليه الخوارج فقتلته.. وقال ابن عدي : سمعت ابن حماد يقول : قال البخاري : عبد الملك بن عبد الرحمن أبو العباس الشامي نزل البصرة: عن الأوزاعي .. ضعفه عمرو بن علي منكر الحديث .. قال ابن عدي: وقد أخرجت له في حديث الأوزاعي أحاديث مناكير انتهى.. وقد فرق أبو حاتم والبخاري بين الشامي والذماري وكلاهما يروي عنه عمرو بن علي.

قلت: والصواب التفريق بينهما فأما الشامي: فهو المكنَّى بأبي العباس، وهو الذي يروي عن الأوزاعي وإبراهيم بن أبي عبلة، وهو الذي قال فيه البخاري: منكر الحديث.. وتبعه أبو زرعة ، وقال فيه أبو حاتم : ليس بالقوي.. وضعفه عمرو بن علي، وأما الذماري فهو المكنَّى بأبي هشام، واسم جده أيضاً هشام، وهو الذي قال فيه أبو حاتم: شيخ .. ولم يذكر فيه البخاري في التاريخ جرحاً ولا تعديلاً، وذكره ابن حبان في الثقات ، ووثقه عمرو بن علي ، وقال فيه أحمد بن حنبل فيما حكاه الساجي: كان يصحف، ولا يحسن يقرأ كتابه» .. وقال ابن حجر في تقريب التهذيب

عن الذماري : «صدوق كان يُصَحِّف من التاسعة»[١] .. وقال الحافظ ابن حجر: «قرأت على شيخ الإسلام أبي حفص بن أبي الفتح قلت له : أخبركم إبراهيم بن علي : أن أبا الفرج بن عبد المنعم أخبرهم .. وقرأت على عمر بن محمد الصالحي بدمشق قلت له: أخبركم علي بن أبي بكر الحراني: أن علي بن أحمد السعدي أخبرهم كلاهما [يعني : أن كُلاً من ابن عبدالمنعم والسعدي أخبرهما] : عن أبي المكارم اللبان: أن الحسن بن أحمد الحداد أخبره: أنا أحمد بن عبد الله أبو نعيم الحافظ: ثنا أبو أحمد محمد بن أحمد - زاد في رواية عمر الغطريفي -: ثنا عبد الله بن محمد بن شيرويه: ثنا إسحاق بن راهويه : ثنا عبد الملك بن محمد الذماري: أخبرني محمد ابن سعيد ابن رمانة: أخبرني أبي قال : قيل لوهب ابن منبه (فذكر مثله).. [يعني : أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة .. فقال وهب: بلى، ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان.. إلخ] .. إلا أنه قال: من أتى الباب بأسنانه فُتح له ومن لم يأت الباب بأسنانه لم يفتح له»[٢] .

قال أبو عبد الرحمن : لعل الذِّماريَّ حميريٌّ بالولاء ؛ لأن الأبناء ليسوا عرباً .. قال عز الدين ابن الأثير الجزري [٥٥٥ - ٦٣٠هـ] : «كل من ولد باليمن من أبناء فارس الذين وجههم كسرى مع سيف بن ذي يزن فليس من العرب، ويُسمُّونهم الأبناء؛ فممَّن ينسب هذه النسبة طاووس بن كيسان ، وهمام ووهب ابنا منبَّه»[٣] .. ولغياب نص ابن يونس عن محققي تهذيب سيرة ابن هشام الفضلاء ذهبوا في تقديمهم للتهذيب لابن هشام : إلى أن نسبة ابن هشام إلى حمير وذهل ، وجَعْلِ وفاته عام

(١) تقريب التهذيب ٣٥١/٦ - ٣٥٢ .

(٢) تعليق التعليق ٢/ ٤٥٣ ، وانظر تهذيب الكمال في أسماء الرجال ٣٣٥/١٨ - ٣٣٨ ، و لسان الميزان ٥/ ٢٦٧- ٢٦٨ .

(٣) اللباب في تهذيب الأنساب ٢٦/١ .

٢١٣ و ٢١٨هـ من باب الاختلاف [١] ، وما علموا أن ابن هشام شخصان لا شخص واحد .. وابن هشام الذي هذَّب سيرة ابن إسحاق بطرح الشعر المكذوب أجلُّ من أن يكون هو نفسه مؤلف التيجان .. ومثلهم الدكتور فؤاد سزكين ذو العمل الرائع في التعريف بالأعلام وتراثهم ؛ فقد جعل مؤلفات الحميري للذهلي[٢] مع أن في مصادرهم نص ابن يونس المفرِّق بينهما ، ولكنه سرعة النقل !.

والبَرْقي ثبت ثقة ، وهو أبو بكر أحمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن سعيد ابن أبي زرعة مولى بني زهرة ، والنسبة إلى بَرْقة من بلاد المغرب ، وقد حدث عن ابن هشام الثقة بالمغازي ، وتوفي عام ٢٧٠ هـ[٣] ، ولكن الإسناد ههنا مركَّب على ابن هشام الحميري غير الثقة ، ولا يوجد إسناد أخبار عبيد متصلاً إليه ألبتة ، ومعاذ الله أن يروي البرقي وابن هشام الذهلي هذه الأكاذيب .

قال أبو عبدالرحمن: استمرت الأسطورة اليمنية ؛ فرأينا كتاب (وصايا الملوك وأبناء الملوك من ولد قحطان بن هود) لدِعْبِل بن علي الخزاعي [١٤٨ - ٢٤٦ هـ] - وقد صدر عن دار صادر ببيروت بتحقيق الدكتور نزار أباظة - ، وهو على نسق التيجان وأخبار عبيد بن شرية، وهو معروف بتعصبه لليمنية، وهو صاحب القصيدة النونية في الانتصار للقحطانية نقضاً لنونية الكميت في افتخاره بالعدنانية[٤] .. قال ابن خلكان: «دِعْبِل بكسر الدال، وسكون العين المهملتين، وكسر الباء الموحَّدة، وبعدها لام.. وهو اسم الناقة الشارف.. وكان يقول: مررت يوماً برجل قد أصابه الصرع؛ فدنوت منه، وصحت في أذنه بأعلى صوتي : دعبل .. فقام يمشي كأنه لم

(١) تهذيب سيرة ابن إسحاق لابن هشام الذهلي [لا الحميري] ١٧/١.
(٢) تاريخ التراث العربي م١ ج٢ / التدوين التاريخي ص١٠٦-١١١
(٣) انظر الأنساب للسمعاني ٣٢٥/١ .
(٤) انظر على سبيل المثال مروج الذهب للمسعودي ٢٤٤/٣- ٢٤٦

يُصبه شيئ!!»[1].. قال الدكتور عبدالكريم الأشتر: «وقد ترددت طويلاً قبل أن أعزم على صنعة شعره صنعة جديدة .. كنت أقول : ليس لهذا العمل أصل مخطوط موثَّق برواية معروفة يُرجع إليها ؛ فكيف نزعم أنه شعر دعبل بن علي الخزاعي ؟.. وإذا كان بعضه نُقل إلينا في مصادره بإسناد نطمئن إلى رجاله (من حيث معرفتهم بالشعر أو اتصالهم بالشاعر) فكيف نصنع برواية لا نعرف شيئاً عن رجالها أو بعض رجالها ؟.. ثم إن شعراً كثيراً جاءنا في بعض مصادرنا الأدبية على غير رواية ولا سند، فماذا نقول فيه ؟.. لا يستطع أحدٌ أن ينكر أسباب العبث والتزوير والانتحال في أدبنا على اختلاف عصوره ، وقد جدَّت - فيما يتصل بأدب العصر العباسي - أسباب هيَّأ لها ما قام في حياة هذا العصر من صراع في السياسة والعقيدة والفكر؛ فإذا أضفنا إليها ما نعرف من أسباب النحل والتزوير التقليدية: العصبية على اتساعها واختلاف صورها (الفنية والفكرية والجنسية والقبلية) ، والمتاجرة بالرواية والوراقة والتأليف والتزيُّد في الحكايات والمحاورات أو وضعها ، والعبث الفني الذي يلجأ إلى الخيال والوضع : استطعنا أن نقرِّب منّا نصوصاً كثيرة شَكَّتْ فيها بعض مصادرنا الأدبية نفسها مما أصاب التدوين والجمع و الرواية من آفات .. ويصدق هذا الكلام فيما يتصل بدعبل - لسان العصبيات الكثيرة المحتدمة - صدقاً يجعله مثالاً فيه؛

(١) **وفيات الأعيان** ٢/٢٧١ .. قال أبو عبد الرحمن : وقد شكك الدكتور عبدالكريم الأشتر في نسبة الكتاب إلى دعبل الخزاعي ص٢٨٢ ، ورجَّح نسبته إلى أبي سعيد الخزاعي ، ولم يأتِ الدكتور نزار محقق وصايا الملوك ص١٣-١٥ بما يؤيد نسبته إلى دعبل، ولم تُذكر الوصايا في ترجمة دعبل ، ولا في كتب الفهارس .. والنسخة وحيدة عارية من الإسناد ، وتملُّكِ العلماء ، وتصحيحهم .. وعلى فرض صحة نسبة الكتاب إلى دعبل - وهو فرض لا يصح - فهو معروف بتعصبه للقحطانية ، وله كتاب المثالب - واسمه كما في ديوان دعبل شرح حسن حمد ص١٢(كتاب الواحدة في مثالب العرب ومناقبها) ، وهو من النوع الثاني من المثالب الذي يضعه عربي في مثالب بعض القبائل عصبية لا شعوبية .. ودعبل نفسه كُذب عليه.

فهو من ورائه اليمنيةُ والشيعة وأصحاب المذهب المحافظ في الشعر»[1].. وقال: وننتهي إلى أنه يصح لدعبل من هذا الشعر أكثر من ألف بيت تسلم لنا بعد أن نُسقط أكثر المشكوك فيه و المختلف عليه، وهذه الألف هي التي يصح أن تكون (على حذر) عمدة دراسة مختصرة عن الشاعر في حدود ما تُعين عليه الأخبار الموثوقة أيضاً»[2] .

قال أبو عبد الرحمن : وموجز القول : إن الأرجح عدم صحة نسبة وصايا الملوك إلى دعبل ، وأنه نسب إليه كثير من الشعر تعمُّداً ووضعاً ، وشيئ قيل من باب الخطإ ، ولا آمن أن يكون الهمداني وراء وضع هذا الكتاب ، وخير ما في كتاب الدكتور طه حسين عن الأدب الجاهلي إفاضته في الأسطورة اليمنية ، ثم جاء بعدهم الهمداني في الإكليل فاحتضن أساطيرهم وأضاف إليها من شعره وخياله ، وقد كتب ابن جرير وابن خلدون نقداً محقَّقاً لدعاوى تجاوز مُلْك التبابعة لليمن يأتي له مجال إن شاء الله في أسفار كتابي (العقل التاريخي) .

ومن التاريخ المكذوب المزوَّر تاريخ العرب قبل الإسلام المنسوب إلى الأصمعي رحمه الله تعالى ، وعنوانه في النسخة الخطية: (تاريخ ملوك العرب الأولية) ، وهو في أساطير التاريخ اليمني ذو نظم ركيك لا يرتقي إلى مستوى الشعر قبل الأصمعي ، وهو من نمط أخبار عبيد بن شريَّة ، والتيجان ، ووصايا الملوك ، وكتب الهمداني ؛ ولإبعاد التزوير كُتبتْ النسخة بخط من يحذق الخط الكوفي ، ونُسب الخط إلى ابن السِّكِّيت ؛ إمعاناً في التضليل ؛ فهو من الأساطير اليمنية المكذوبة المُحالِ احتمالُها المفتراةِ على إمام من أئمة المسلمين ثقة ثقة ثقة وهو الإمام عبدالملك بن قُريب الأصمعي [١٢٣ - ٢١٧هـ] رحمه الله تعالى (وهو معاصر للكذوب ابن هشام الحميري) طبع بمطبعة المعارف ببغداد عام ١٣٧٩هـ بتحقيق محمد حسن

(١) مقدمته لكتاب دِعبل (**وصايا الملوك**) ص١٥ - ١٦ .

(٢) وانظر المصدر السابق ص٣١ ، وانظر ص ١١-١٢ و ١٤-١٥ و ٢٩-٣٠ .

آل ياسين ، وقال بكلِّ جرأة وتجرُّدٍ من المسؤولية : «والنسخة التي طبع عليها الكتاب محفوظة بمكتبة الإمام الحسن (ع) [أي عليه السلام] العامة في الكاظمية ، وهي بدورها منقولة بطريق التصوير عن النسخة الأصلية المحفوظة بمكتبة باريس الوطنية تحت رقم (٦٧٢٦ كتب عربية) .. يبلغ مجموع أوراق الكتاب (٥٢) ورقة من الرَّق، كما أن عدد صفحاته كذلك أيضاً؛ لأنه مكتوب على وجهٍ واحد من تلك الأوراق، ويبلغ حجم كل صفحة ٣٨,٤×٢٦سم، ومعدل سطورها (١٧) سطراً.. والنسخة الأم نفيسة جداً ، بل لعلها من النماذج النادرة في العالم كله ، فقد كتبت بالخط الكوفي بخط عَلَمٍ من أعلام اللغة المبرَّزين هو أبو يوسف يعقوب بن السِّكيت، ولم يثبت ما يوجب الشك في ذلك ، وقد تم استنساخها في عاشر شوال سنة ٢٤٣هـ.. أي بعد وفاة الأصمعي بـ «٢٦» سنة .. وعلى الرغم من عدم الإشارة لهذا الكتاب في المصادر التي روت أسماء كُتب الأصمعي؛ فإن تاريخ النسخ وشخص الناسخ كافيان في إثبات نسبة المخطوط لمؤلفه من دون أي شك أو تردد .. خصوصاً وأن سائر المؤرخين الذين ترجموا للأصمعي لم يدعوا الاستقراء والاستيعاب في تعداد مؤلفاته ، بل كانوا يفتتحون حديثهم بكلمة «منها» أو يختمونه بعبارة «وغير ذلك» ؛ مما يُفْهم منه أن تلك الأسماء غير جامعة لكل مصنفات الأصمعي وأماليه»[١] .

قال أبو عبدالرحمن : كذب آل ياسين[٢] ، وصدَّق بالكذب ؛ فأما الكذب فمعاذ الله أن يكون ما نُسب إلى ابن السِّكيت الإمام (من كون النسخة بخطِّه) هي من خطِّه فعلاً ، وإن صَحَّ قِدمُ النسخةِ الأصلِ فلا يعني صحة الكتاب عن الإمام

(١) **تاريخ العرب قبل الإسلام** / المقدمة ص(ث - خ) .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : يس ليس من أسماء رسول الله ﷺ ، بل من الحروف المقطَّعة أوائل بعض السور ، وهكذا طه .. ومصطفى لا تليق اسمَ عَلَمٍ ؛ لأنها وصف لمن اصطفاهم الله من الرسل عليهم الصلاة والسلام .

الأصمعي ؛ لأن الكذب والكذبة أقدم من ذلك .. وأما تصديقه بالكذب فقوله : (ولم يثبت ما يوجب الشك في ذلك) ؟؟؟!!.. يقول ذلك عن كتاب خرافي ليس في ثناياه ما يحتمله العقل والعلم من جملةٍ واحدة !!.. ثم إن قِدم الخط بنسخ كوفي قابل للشك؛ إذْ أهمل علماء القرون النقل عنه ، كما أن الخط الكوفي قابل للمحاكاة ؛ فالمرجع إلى التحليل العلمي لتاريخ الخط ، فإن صح أنه كُتب بُعيد وفاة الأصمعي رحمه الله فالأمر كما ذكرتُ ، وقد أُخفي في عهد ابن السِّكيت الذي كُذِب عليه الخط حتى لا يفتضح أمره .. ثم إن آل ياسين لم يكلف نفسه عناء بإثبات خط ابن السِّكيت في المطبوع ؛ فخطه قد يكون معروفاً عند من حقق أحد كتبه الكثيرة ، أو اطلع على نُسخ كتبه الخطية الكثيرة جداً إن كان فيها شيئ بخطه .

قال أبو عبدالرحمن : وأقدم خطٍّ رأيته خط الحامض رحمه الله تعالى (وهو بعد ابن السِّكيت) بنسْخِه مسودة (الجيم) لأبي عمرو الشيباني رحمهم الله ، وذلك متداول لدى العلماء ، وليس كالخط الكوفي الذي كتبت به هذه الأسطورة .

وقال آل ياسين : «وعلى الرغم من عدم الإشارة لهذا الكتاب في المصادر التي روت كتب الأصمعي .. إلخ» .

قال أبو عبدالرحمن : نعم أهملته المصادر؛ لأنه ليس له كتاب بهذا الاسم ، بل له كتاب (جزيرة العرب) ، وهو كتاب علمي نقل عنه ياقوت كثيراً في معجم الأدباء ، وهذا نموذج من النقل عنه عند الزبيدي رحمهم الله تعالى .. قال رحمه الله : «وأنشد الأصمعي في كتاب جزيرة العرب (لِرَجُلٍ من طَيِّئ يُقَالُ له الخليل بن قروة ومات ابنه زَافِرٌ بالشام بدمشق :

ولا آبَ رَكْبٌ من دمـــــشق وأهلـه

ولا حِمْصَ إذْ لم يأتِ في الرَّكْبِ زافِرُ

ولا من شُبَيْثٍ والأَحَصِّ ومُنْتَهَى

[م] المطايا بقنَسْرين أو بخُناصرِ

وفيه إقواءٌ»[١] .

قال أبو عبدالرحمن: نَقْلُ الزبيدي عن ياقوت رحمهما الله، وليس شيئ مما نقله الجغرافيون عن كتاب الأصمعي موجوداً في هذا الكتاب الخرافي المكذوب ، كما أن كتاب الأصمعي الصحيح عنه في المواضع والمياه ومن يسكن الموضع على نهج كتاب لغدة وكتاب الزمخشري عن المياه ، وهذا الكتاب المكذوب عن أنساب مكذوبة ومطولات أشعار ركيكة مصنوعة ، وليس في الكتاب المكذوب سماع ، وليس له إسناد.. وجاء في آخر هذا الكذب المصنوع المتضمِّن لأشياء لا تصح من تاريخ الأصمعي رحمه الله قَوْلُ الناسخ الكذَّاب «قال أبو يوسف يعقوب بن السكيت : هذا آخر ما وصل إليَّ من تاريخ ملوك العرب الأولية من بني هود وغيرهم لأبي سعيد عبدالملك بن قُرَيْبٍ البلعكي الأصمعي ، الذي أقطعه عليه المأمون أراضي أميرية الكرخ الغربية، وقد تم استنساخاً في عاشر شوال سنة ثلاث وأربعين ومئتين، ويتلوه كتابه في الخيل»[٢] .

قال أبو عبدالرحمن : يا معشر المؤرخين : أفيدونا عن الأراضي الأميرية التي كانت مكافأة عن هذا الكتاب المكذوب ، وعن اصطلاح (الأميرية) هل كان موجوداً في عهد ابن السِّكِّيت ؟؟.. والأصمعي رحمه الله توفي عام ٢١٦هـ ، والمأمون الذي أقطعه أراضي أميرية تولى عام ٢١٨هـ ؛ فسبحان من جعل على كلِّ خَيِّنةٍ بيِّنة !!..

(١) **تاج العروس** ٥١٩/١٧ / الكويت .. وللأصمعي **مياه العرب** ، ولا عناية للأصمعي بالأنساب ؛ وإنما يذكر اسم القبيلة ذات العلاقة في أخباره .

(٢) **تاريخ العرب** ص٣ .

وَلِوَرَعِ الأصمعي ، وصدقه وعروبته كان الشعوبيون يزاحمونه على البلاط بالشعوبي المنتن أبي عبيدة معمر بن المثنى .. ومنهم من يذكر وفاة الأصمعي قبل ذلك ، ولم يذكر مترجموه أي علاقة له بالمأمون، ولا أدري من أين جاءت كلمة (البلعكي) !!.. ولست أدَّعي العصمة للأصمعي رحمه الله من كل شائبة ؛ وإنما أنقل عن العلماء ما أجمعوا عليه من صدقه وعلمه وورعه واعترافه بما فيه من نقصٍ إنصافاً ، وميله إلى الإطراب بما يرويه من أدب (ما كان منه محل شك فالعهدة على من روى عنه الأصمعي ، وما كان فيه الأصمعي شاهد عيان فهو صدق إذا صح النقل عنه) ، وكذلك ما عِيْبَ على بعض علمه فهو من ناحيةٍ فنيَّة لا من جهة الصدق والأمانة .. قال الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القِفطي [٥٦٨-٦٢٤هـ] رحمه الله تعالى : «عبدالملك بن قُرَيب بن عبدالملك بن علي بن أصمع بن مُظَهِّر بن رباح بن عمرو بن عبد شمس بن أعيا بن سعيد بن عبد بن غَنْم ابن قتيبة بن معن بن مالك ابن أَعْصر بن سعد بن قيس عَيْلان أبو سعيد الأصمعي صاحب اللغة والنحو والغريب والأخبار والمُلَح .. سمع شُعبة بن الحجاج والحمَّادَين ومِسْعر بن كِدام وغيرهم .. روى عنه ابن أخيه عبدالرحمن بن عبدالله ، وأبو عُبَيد القاسم بن سلام ، وأبو حاتم السِّجِستاني ، وأبو الفضل الرِّياشي ، وأحمد بن محمد اليزيدي وغيرهم .. وكان من أهل البصرة ، وقدم بغداد في أيام هارون الرشيد .. قال عمر بن شبَّة: سمعت الأصمعي يقول: أحفظ ست عشرة ألف أرجوزة .. قال الأصمعي: بعث إليَّ محمد الأمين - وهو وليُّ العهد يومئذ - ، وقال: إن أمير المؤمنين قد استدعاك على دوابِّ البريد (وبين يديه السندي بن شاهك)؛ فقال: خذه وسر ؛ فسرت ، فلما وصلت إلى الرَّقَّة أحضرني الفضل بن الربيع إلى الرشيد وهو منفرد ، وسلَّمت ، فرد واستدناني وقال : أُهديتْ إليَّ جاريتان ، وأردت أن تختبرهما .. وأمر بإحضارهما وهما أحسن

شيئ ، فسألتُ إحداهما عن كل فن من فنون الأدب ، فأجابت بجواب حسن ، فاستنشدتها فأنشدت :

يا غياثَ البلادِ في كل مَحْلٍ ما يريد العبادُ إلاّ رضاكا

لا ومن شرَّف البلادَ وأعلى ما أطاع الإلهَ عبدٌ عصاكا(١)

واختبرتُ الأخرى فوجدتها دونها ؛ فقلت : ما تبلغ منزلة هذه ، وإذا رُوِّضتْ بالتعليم جادتْ .. فأمر بتجهيز الموصوفة وتحسينها ؛ لينال منها ، ثم قال : أخبرني بشيئ من أعاجيب ما سمعتَ من أخبار الناس ؛ فقلت : صاحب لنا في بَدو بني فلان قد أتت عليه ست وتسعون سنة (وهو أصحُّ الناس ذهناً ، وأجودهم أكْلاً ، وأقواهم بدناً) غبت عنه مدَّة وعدت إليه ؛ فوجدته من سوء الحال على خلاف ما وصفت ؛ فسألته : (ما الذي نزل به؟) .. فقال : (لمحتُ جارية قد لاثت رأسها ، وطلت بالورس ما بين قدميها إلى رأسها ، وعليها قميص وقناع مصبوغان ، وفي عنقها طَبْل تُوقِّع عليه ، وتنشد هذا الشعر :

محاسنُها سهامٌ للمنايا مريَّشةٌ بأنواع الخطوب

بَرَى ريبُ المنون لهنَّ سهما تُصيبُ بنصلهِ مُهَجَ القلوب

فأجبتها :

قفي شفتي في وضع الطَّبْل تَرْتعي

كما قد أبحتِ الطَّبْلَ في جيدِك الحسن

هبيني عوداً أجوفاً تحت شَنَّةٍ

تَمتَّعُ فيها بين نحرك والذَّقَنْ

فلما سمعت الشعر مني نزعت الطبل فرمت به في وجهي ، وبادرت إلى

(١) قال أبو عبدالرحمن : كتب آخر الشطرين على هذه الصفة : رضاكَ ، وعصاكَ .. وهذا غير جائز في الشعر ، والعرب لا تقف على متحرك .

الخِباء ؛ فدخلت ، فلم أزل واقفاً إلى أن حميت الشمس على مفرق رأسي لا تخرج إليَّ ؛ ولا ترجع جواباً ؛ فقلت : أنا والله معها كما قال الشاعر :

فـو الله يا سَلمى لطال قـيـامـتي

على غـيـر شـيءٍ يا سُلـيـمى أراقـبُـهْ

ثم انصرفتُ قريح العين سخينها ؛ فهذا الذي ترى من التغير لعشقي لها) .. فضحك الرشيد ، ثم قال : يا عباسيُّ أعط عبدالملك مئة ألف درهم ، ورُدَّه إلى مدينة السلام ؛ فقبضتها، وأتتني صلة الجارية التي وصفتها ألف دينار مع خادم ، وأمر لي الفضل بن الربيع من ماله بعشرة آلاف درهم»[1] .

قال أبو عبدالرحمن : مثل هذه الخبر من جوانب معارف الأصمعيَّ ؛ ولهذا وصفوه كما سيأتي : بأنه يُغنيهم غناء البلبل .

وقال القفطي في الموازنة بين الأصمعي وغيره : «وأخبار الأصمعي كثيرة مدوّنة .. قال المبرِّد : كان أبو زيد الأنصاري صاحب لغة وغريب ونحو ، وكان أكثر من الأصمعي في النحو .. وكان أبو عبيدة أعلمَ من أبي زيد والأصمعي بالأنساب والأيام والأخبار ، وكان الأصمعي بحراً في اللغة لا يُعرف مثله فيها وفي كثرة الرواية، وكان دون أبي زيد في النحو .. وقيل لأبي نواس : قد أُشْخِصَ أبو عبيدة والأصمعي إلى الرشيد .. قال : أما أبو عبيدة فإنهم إن أمكنوه من سفره قرأ عليهم أخبار الأوَّلين والآخرين ، وأما الأصمعي فبلبل يُطربهم بنغماته[2] .

قال الأصمعي : حضرتُ أنا وأبو عبيدة عند الفضل بن الربيع ؛ فقال لي : كم

(١) **إنباه الرواة** ١٩٧/٢ - ٢٠١ ، والمحقق لا يضع الهمزة تحت ألف إنباء مع أنه رباعي ، وصحة الخبر يتوقَّف على صحة الرواية عن الأصمعي .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : أبو نواس وأبو عبيدة شعوبيان معاً .

كتابُك في الخيل ؟ .. فقلت مجلد واحد .. فقال لأبي عبيدة عن كتابه في الخيل فقال : خمسون مجلداً[١] .. فقال له : قم إلى هذا الفرس وأمسك عضواً عضواً منه واذكره .. فقال : لست ببيطار ؛ وإنما هذا شيئ أخذته عن العرب .. فقال لي : قم يا أصمعيُّ : وافعل ذلك .. قال : فقمت وأمسكت ناصيةَ الفرس ، وشرعت أذكر منه عضواً عضواً ويدي على ذلك العضو، وأُنشِد ما قالته العرب إلى أن فرغت منه.. فقال : خذه .. فكنت إذا أردت أن أغيظ أبا عبيدة ركبته إليه»[٢] .

ومن إنصافه رحمه الله - إن صحَّ الخبر عنه، وكثيراً ما يُكذب عليه -[٣] ما ذكره القفطي قال : « قال الأصمعي : بعث إليَّ محمد بن هارون ؛ فدخلت عليه وفي يده كتاب يُديم النظر إليه ، ويتعجب منه ، ثم قال : يا عبدالملك : أما تعجب من هذا الشاب وما يجيئُ به ؟!.. فقلت : من هو ؟.. فقال : عباس بن الأحنف ، ثم رمى بالكتاب إليَّ فإذا فيه شعر .. قال عباس :

إذا ماشِئت أن تصنع (م) شيْئاً يُعجب الناسا
فصوِّر ههنا فوزاً وصوِّر ثَمَّ عباسا
ودع بينهما شبراً وإن زدت فلا باسا
فإن يَدْنُوا حتى ترى رأسيهما راسا
فكذِّبها بما قاست وكذبه بما قاسى

(١) قال أبو عبدالرحمن: هذا كذب، ولا يتحمل ٥٠ كراسة، وقد طبع بالقاهرة عام ١٤٠٦هـ بتحقيق محمد عبدالقادر أحمد ط م النهضة العربية، ويبدأ متن الكتاب بص ١٠٧، وينتهي بص ٣٢٣.

(٢) إنباه الرواة ٢/٢٠١ - ٢٠٢ .

(٣) جرت عادة الكذبة أن ينسبوا إلى كل شخص ما تميَّز به ؛ فكلُّ طَمَعٍ يُنسب إلى أشعب ، وكل حكمٍ غَبيٍّ غير عادل إلى قراقوش ، وكل كرم إلى حاتم ، وكل مضحكٍ إلى جحا ، وكل مجون إلى أبي نواس .. إلخ .. وذكر القفطي ص٢٠٣ كتاب جزيرة العرب للأصمعي .

قال الأصمعي : وكان بيني وبين عباس شيئ؛ فقلت : مُسْتَرقٌ يا أمير المؤمنين.. فقال : مِمن ؟.. قلت : من العرب والعجم .. قال : ما كان من العرب ؟.. قلت : رجل يقال له عُمَرُ هَوِيَ جارية يقال لها قمر ؛ فقال :

إذا ما شئتَ أن تصنع (م) شيئاً يُعجب البَشَرا
فصوِّر ههنا قمرا وصوِّر ههنا عُمَرا
فإن لم يَدْنُوَا حتَّى تَرى بشريهما بَشَرا
فكذِّبْها بما ذكرتْ وكذِّبه بما ذَكَرا

قال : فما كان من العجم ؟.. قلت : رجلٌ يقال له (فَلْقاء) هَوِيَ جارية يقال لها (زورق)، فقال :

إذا ما شئتَ أن تصنع (م) شيئا يُعجب الخلْقا
فصوِّر ههنا زورقْ وصوِّر ههنا فَلْقا
فإن لم يَدْنُوَا حتى ترى خلقيهما خَلْقا
فكذِّبها بما لاقَت وكذِّبه بما يَلْقى

قال الأصمعي : فبينا نحن كذلك إذا جاء الحاجب ؛ فقال : عباس بالباب .. فدخل فقال : يا عباس : تسرق معاني الشعر وتدَّعيه ؟ .. فقال : ما سبقني إليه أحد.. فقال محمد : هذا الأصمعيَّ يحكيه عن العرب والعجم ، ثم قال : يا غلام : ادفع الجائزة إلى الأصمعيِّ .. فلما خرجا قال العباس : كذَّبتني، وأبطلت جائزتي؟!.. فقلت له : أتذكر يوم كذا .. وأنشأت أقول :

إذا وَتَرْتَ امرأً فاحذر عداوتَه
ومَنْ يزرع الشوك لا يحصد به عنبا»[1]

(١) إنباه الرواة ٢/٢٠٤ - ٢٠٥ .

قال أبو عبدالرحمن: إذا صح الخبر عن الأصمعي فهو دليل على صدقه وإنصافه؛ لأنه اعترف بسبب إفساده على عباس، بل جاء في مصدر أقدم أن العباس لما أقسم أنه لم يسمع هذا الشعر قال الأصمعي: «فلما خشيت أن يحرمه [أي يحرمه الرشيدُ العطية] قلت: «صدق والله يا أمير المؤمنين .. أنا عملتُ البيتين الساعة.. فأمر له بجائزة، ولي بضعفها»[1].. وهكذا إنصافه لخصمه اللدود الشعوبي أبو عبيدة .. قال عبدالواحد بن علي أبو الطيب اللغوي: أخبرنا جعفر بن محمد قال: أخبرونا عن أبي حاتم قال: أَمْلَى علينا أبو عبيدة بيتَ عبد مناف بين رِبْعيّ الهُذَليّ:

(١) **مراتب النحويين** لأبي الطيب ص٩٤، وقال ص٨٣ -٨٤: «ولم يرَ الناسُ أحضَرَ جواباً، وأتقن لما يحفظ من الأصمعيِّ، ولا أصدق لهجةً منه، وكان شديد التأَلُّه .. كان لا يفسّر شيئاً من القرآن، ولا شيئاً من اللغة له نظيرٌ أو اشتقاق في القرآن، وكذلك الحديث؛ تحرُّجاً، وكان لا يفسِّر شعراً فيه هجاءٌ، ولم يَرفع من الحديث إلاَّ أحاديث يسيرة، وكان صدوقاً في كل شيئ، من أهل السنة» .. وقال في الرد على ابن أخي الأصمعي ص٨٤: «فأما ما يحكيه العوامّ وسُقّاط الناس من نوادر الأعراب ويقولون: (هذا مما افتعله الأصمعيّ)، ويحكون: (أن رجلاً رأى عبدالرحمن [بن عبدالله بن قريب] ابن أخيه، فقال: (ما فعل عمُّك؟) .. فقال: (قاعدٌ في الشمس يكذب على الأعراب): فهذا باطل ما خلقَ الله منه شيئاً، ونعوذ بالله من معرّة جَهلِ قائليه، وسقوط الخائضين فيه .. وكيف يقول ذلك عبدالرحمن ولولا عمُّه لم يكن شيئاً، وكيف يكذِّب عمَّه وهو لا يَرْوِي شيئاً إلا عنه، وأنَّى يكون الأصمعيُّ كما زعموا ولا يُفْتي إلا فيما أجمع عليه العلماء، ويقف عمَّا يتفرَّدون به عنه، ولا يُجَوِّز إلا أفصح اللغات، ويَلِجُّ في دفع ما سِواه».

قال أبو عبدالرحمن: أسلفت أن من اشتهر بشيئ كحاتم في الكرم يضع عليه الأخباريون أساطير في الكرم، والأصمعي الإمام الثقة بَزَّ أقرانه في الرواية؛ ولشهرته بسعة الرواية وضعوا عليه الأساطير.

حـــتى إذا أسلَكوهم في قُـــتـــائدة
شَـلاً كمـا تَطْـرُدُ الجَمَـالَـة الشُـرُدَا[1]

وقال : هذا كلام لم يجئ له خبر ، وهذا البيت آخر قصيدة .. قال : قول الله عز وجل : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ [سورة الرعد/ ٣١] .. قال : فجئتُ إلى الأصمعيِّ فأخبرتُه بذلك ، فقال : أخطأ ابن الحائك[2] ؛ إنما الخبر في قوله : «شَلاً» كأنه قال : شلُّوهم شَلاً .. قال : فجعلتُ أكتبُ ما يقول ؛ ففكَّر ساعةً ثم قال لي : اصبر ؛ فإني أظنّه كما قال ؛ لأن أبا الجُودِيّ الراجز أنشدني :

لو قد حداهُنَ أبو الجُودِيّ
برَجـزٍ مُسْحَنْفِـرِ الـــرَوِيّ
مستويـات كنَـوَى البَرْنِـيّ[3]

فهذا كلامٌ لم يجئ له خبر.. فانظر إلى هذا الإنصاف بينهم مع شدة المنافَسة، ثم لا يتَّهم أحدُهم صاحبَه بالكذب ، ولا يَقْرِفه بالتزيُّد ؛ لأنهم يَبعُدون عن ذلك»[4] .

وعن عدالته قال الإمام جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي [٦٥٤ - ٧٤٢هـ] رحمه الله تعالى: ««قال عباس الدُّوْرِيُّ : عن يحيى بن مَعِين: سمعتُ الأصمعي يقول: سَمِعَ مني مالك بن أنس .. وقال أبو عَوَانة الإسفراييني : عن أبي أُمية الطَّرَسُوسيّ:

(١) قتائدة موضع، والجمالة أصحاب الجمال كالبغالة والحمارة، وانتصاب شَلا على المصدر، ودل على فعل مضمر يحصل بظهوره جواب: (حتى إذا أسلكوهم)، وتلخيص الكلام: (حتى إذا أسلكوهم هذا الموضع شلوهم شلا)، والبيت في ديوان الهذليين ٤٢/٢ [محمد أبو الفضل إبراهيم].

(٢) قال أبو عبدالرحمن : لعل أبا عبيدة والهمداني يحوكان الكذب !!؟.

(٣) المسحنفر الممتد ، والبرني ضرب من التمر أصفر مدور ، وهو من أجود التمور .. واحدته برنية [أبو الفضل] .

(٤) **مراتب النحويين** ص٨٥ - ٨٦ .

سمعتُ أحمد بن حنبل، ويحيى بن مَعين يُثْنيان على الأصمعي في السُّنَّة .. قال: وسمعتُ عليَّ بن المديني يثني عليه .. وقال الرِّياشيُّ: عن الأصمعيِّ : قال لي شعبة : لو أتفرغ لجئتكَ .. وقال أيضاً: حَدَّث شُعبة يوماً بحديث قال فيه: (فَذَوَى السواكَ): فقال له رجل حضره: إنما هو (فَذَوِيَ) ؛ فنظر إليَّ شُعبة، وأومأ بيده .. فقلت له: القول ما تقول .. فَزجَر القائل.. وقال أبو سليمان الخَطّابيُّ: عن محمد بن يعقوب المَتُّوْثيِّ: عن أحمد بن عمرو الزئبقي: عن أبيه: عن الأصمعيِّ : قال لي شُعبة: إني وصفتُكَ لحَمَّاد بن سَلَمة، وهو يحب أن يراك .. قال: فوعدته يوماً، فذهبتُ معه إليه، فسلَّمتُ عليه، فحيا ورَحَّبَ ، فقال له شعبة : يا أبا سَلَمة هذا ذاك الفتى الأصمعي الذي ذكرتُهُ لك .. قال : فَحيَّاني بعدُ وقَرُب ، ثم قال لي : كيف تنشد هذا البيت :

أولئك قومٌ إن بنوا أحسنوا البِنا

وإن عاهدوا أوفوا وإن عَقَدوا شدُّوا

- يعني بكسر الباء - فقال لي : انظر جيداً .. فنظرت ، فقلتُ : لست أعرفُ إلا هذا .. فقال : يا بني : (أولئك قومٌ إن بنوا أحسنوا البُنا) .. القومُ إنما بنوا المكارم ولم يبنوا باللبن والطين .. قال : فلم أزل هايباً لحماد بن سلمة ، ولزمته بعد ذلك» .. وقال أبو سليمان الخطّابيُّ: قال أبو العباس محمد بن يزيد (يعني المُبَرِّد): واحدتها بِنية وبُنية ، وجمعُ بِنية بِنى مثل كِسْرة وكِسَر ، وجمع بُنية بُنَى مثل ظُلْمة وظُلم ؛ فأمَّا المصدر من بنيت بناءً فممدود ويُشْبِهُ أن يكون حَمّاد اختار الضَّمَّ وأنكرَ الكَسْرَ فيها ؛ لئلا يلتبس بالبِناء الذي هو باللبن والطِّين ؛ إذ كان من مَذْهَبهم أن يستجيزوا قَصْرَ الممدود في الشِّعْر.

وقال ثعلب : عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي : دخلتُ على الأصمعي أعودُه وإذا قِمَطْر [أي موجود عنده] ؛ فقلت : هذا عِلْمكَ كُلّه ؟.. فقال : إنَّ هذا من حقٍّ

لكثيرا .. قال ثعلب : وقيل للأصمعي : كيف حفظت ونسي أصحابك ؟.. قال : درستُ وتَركُوا .. وقال عمر بن شَبَّة : سمعتُ الأصمعيَّ يقول : أحفظُ ستة عشر ألف أرجوزة .. وقال أحمد بن عبيد : سمعتُ ابن الأعرابي قال : شهدتُ الأصمعيَّ وقد أنشد نحو مئتي بيت ما فيها بيت عرفناه .. وقال الرَّبيع بن سليمان : سمعتُ الشافعيَّ يقول : ما عَبَّر أحدٌ عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعيَّ .. وقال محمد ابن أبي زُكير الأسوانيِّ : سمعت الشافعيَّ يقول : ما رأيتُ بذلك العَسْكر أصدق لهجةً من الأصمعيِّ .. وقال أبو بكر بن أبي خَيْثَمة : عن يحيى بن مَعين : الأصمعيُّ ثِقَةٌ .. وقال أبو مَعين الحُسين ابن الحسن الرَّازيُّ : سألت يحيى بن مَعين عن الأصمعيِّ فقال : لم يكن ممن يَكْذِب ، وكان من أعلم الناس في فَنِّه .. وقال أبو عبيد الآجُريُّ : سُئل أبو داود عن الأصمعيِّ فقال : صدوقٌ .. وقال إبراهيم الحربيُّ : كان أهل البصرة أهل العربية منهم أصحاب أهواء إلا أربعة فإنَّهم كانوا أصحاب سُنَّة : أبو عمرو بن العلاء ، والخليل ابن أحمد ، ويونُس بن حبيب ، والأصمعي .. وقال أبو العَيناء : قال الجاحظ : كان الأصمعي مَنانياً .. فقال له العباس بن رستم : لا والله ، ولكن تَذْكُر حين جلست إليه تسأله فجعل يأخذ نَعْلَهُ بيده وهي مخصوفة بجريدة ويقول : نِعم قِناع القَدَري ، نعم قناع القَدَري ؟.. فعلمتَ أنَّه يَعنيكَ ، فقمتَ .. وقال أبو داود السِّنَجيُّ : سمعتُ الأصمعيَّ يقول : إنَّ أخوف ما أخاف على طالب العِلْمِ إذا لم يَعْرف النَّحو أن يَدْخلَ في جُملة قولِ النبي ﷺ : (من كَذَبَ عَليَّ مُتَعَمِّداً فليتبوأ مَقْعده من النَّار) ؛ لأنه لم يكن يلحن؛ فمهما رويتَ عنه ولحنتَ فيه كذبتَ عليه [قال أبو عبدالرحمن : آخر سورة البقرة ينفي ذلك] .. وقال أيضاً : سمعتُ الأصمعيَّ يقول : من لم يحتمل ذُل التَّعلم ساعةً بقي في ذُل الجَهْل أبداً .. وقال نصر ابن عليّ الجهضميُّ : سمعتُ الأصمعيَّ يقول لعفان وجعل يعرضُ عليه شيئاً من

الحديث : (اتق الله يا عفان ولا تُغَيّر حديثَ رسول الله ﷺ بقولي) .. قال نصر بن عليّ : وكان الأصمعيُّ يتقي أن يُفَسِّرَ حديث رسول الله ﷺ كما يتقي أن يُفَسِّرَ القُرآن .. وقال أبو العَيناء : سمعتُ إسحاق الموصلي يقول : لم أرَ الأصمعيَّ يَدّعي شيئاً من العلم فيكون أحدٌ أعلم به منه .. وقال الرِّياشيُّ : سمعتُ الأخفش يقول : ما رأينا أحداً أعلم بالشِّعر من الأصمعيِّ وخَلَف .. فقلت له : فأيُّهما كان أعلم ؟.. فقال: الأصمعيُّ ؛ لأنه كان معه نحو .. وقال أبو العَيْناء ، حدثني كَيْسان قال: قال لي خَلَف الأحمر : ويلك الْزم الأصمعيَّ ، ودع أبا عُبيدة؛ فإنّه أفرس الرَّجلين بالشِّعر .. وقال محمد بن يزيد المُبَرِّد : كان أبو زيد الأنصاري صاحب لُغةٍ وغَريب ونحو ، وكان أكثر من الأصمعيَّ في النَّحو ، وكان أبو عبيدة أعلم من أبي زيد والأصمعيِّ بالأنساب والأيام والأخبار[١] ، وكان الأصمعيِّ بَحْراً في اللُّغة لا يُعرف مثلُهُ فيها وفي كثرة الرِّواية ، و كان دون أبي زيد في النَّحو»[٢] .

قال أبو عبدالرحمن : هذا كلام الأئمة العدول الفحول عن عدالة الأصمعي وصدقه ؛ فهل يليق به هذا الكتاب الذي أُتحفكم بشيئ من نصوصه لتعجبوا .. قال الكذوب فيما نسبه إلى الأصمعي : «والذي وقع عليه إجماعهم يا أمير المؤمنين : أنَّ أوَّل ملك تتوَّج من العرب هو قحطان بن هود النبي عليه السلام ، وهود هو أوَّل نبيّ مرسل بعد نوح عليه السلام .. ونسبه لي عامرة الصعصعي : أنه قحطان بن هود بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح .. ولمَّا انقرضت بكثرة الحروب قبائل

(١) قال أبو عبدالرحمن : ولكنه غير مُؤتمن لشعوبيته ، ومذهبه الديني ، وموقف العلماء العدول منه .. وهو مستوعب لمذهب البصريين في النحو ، وذو علم في اللغة والنسب والتاريخ ، وكل ذلك هو أداته في الشعوبية وسعة الخيال في الكذب.

(٢) **تهذيب الكمال** ١٨/٣٨٥ - ٣٩٠ ، وانظر ص٢٩٣ - ٢٩٤ عن الاختلاف في وفاته ، وانظر **تهذيب التهذيب** ٦/٣٦٤ .

طسم وجديس قالوا : لا بدَّ أن ننظر في أمرنا ، ونهيب بعضنا[1] ، ونملِّك أمرنا شريفاً لا نجد من طاعته بُدّاً ؛ فأجمع رأيهم على قحطان بن هود [عليه السلام] ، وهو ثالث من أنشد شعراً يُسَلِّي به بعض ما كان بأبيه هود عليه السلام من الكآبة والجزع والغمِّ والارتماض والحزن على قومه عاد ؛ فقال :

إني رأيت أبي هوداً يؤرِّقه
حزنٌ دخيل وبلبالٌ وإسهادُ
لا يحزننَّك أن طاحتْ بداهيةٍ
عادُ بن لاوي فعادٌ بئسما عادُ
هم عصوا ربَّهم واستكبروا وعَتَوْا
عمَّا نُهوا عنه لا سادوا ولا قادوا
بُعْداً لعادٍ فما أوْهى حلومَهمُ
في كلِّ ما ابتدعوا أو كل ما اعتادوا
غَدَوا يُعَدُّون عنهمْ من سفاهتهمْ
ريحاً بها أُهلكوا إبَّان ما بادوا
ألا يظنّون أنَّ الله خالقُهمْ
وإنَّ كلّاً لأمر الله منقادُ
يا ليت شعري وليت الطيرَ يخبرني
أسالمٌ ليَ لقمانٌ وشدادُ؟»[2]

قال أبو عبدالرحمن : أول مفتاح لبالوعة الأساطير اليمنية تجرُّد الأصمعي

(١) الصواب لغة في هذا الكذب : (ونهيب ببعضنا) .

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ص٣ - ٥ .

العدناني في هذه الدعوى الكاذبة للعصبية لقحطان ، وطغَتْ هذه الدعوى فجعلت قحطان أول ملك عربي متوَّج ؛ فأين ملوك عاد قبله لو صح أنه ابن هود عليه السلام ؟.. وجعلت قحطان ابناً لهود حسب الترويج الهودي لدى القحطانية بأكذوبة التعريب ليقطان ويقطين في العهد القديم ، وبينه وبين قحطان العربي نسباً ولغةً أحقابٌ بعيدة سحيقة مجهولة لا تُقبل فيها الدعوى إلا بنصٍّ معصوم ، ومهما أمعن الهمداني في زيادة أجداد القحطانية فلن يصل إلى عهد هود عليه السلام.. وأنبياء الله ورسله غير مُحْصَوْن في ديننا ؛ فمن أين جاءت دعوى أن هوداً عليه السلام أول نبي مرسل بعد نوح عليه السلام ؟.. و(عامر الصعصعي) لا يعرفه أحد من البشر !!.. ثم من الشاعران العربيان قبل هود ، وبأي إسناد صحَّ هذا النظم الركيك المنسوب إلى قحطان ، وهل تكوَّنت لغة العرب المعروفة الآن إلا بعد إسماعيل عليه السلام ؟؟!!.. ثم هو شعر عدناني ولكنه مباشر لا روح فيه لبلاغة أو لغة ، بل هو لسذاجته مما يقدر عليه كل ناظم فارغ محروم الفكر والخيال .. وههنا الخبر بأن قحطان ساد بعد طسم وجديس ، وفي موضع آخر أن يشجب بن يعرب بن قحطان ساد أقاربه من طسم وجديس[1] ، وقد قيل : (إذا كنتَ كذوباً فكن ذَكُوراً) ، ثم نجد منهج الهمداني نفسه في انتحال الشعر على حسان رضي الله عنه .. قال الكاذب على الأصمعي : «وبلغني يا أمير المؤمنين أنَّ يعرب بن قحطان حفظ وصيَّة أبيه ، وثبت عليها ، وعمل بها ، وبلغني أنَّه أوَّل من سجع في العربية الواسعة ؛ ونطق بأفصحها وأبلغها وأوجزها ، والعربيَّة منسوبة إليه ، مشتقَّة من اسمه ، وهو الذي ذكره حسان بن ثابت الأنصاري [رضي الله عنه] : في الذي يقول فيه [أي في شعره الذي يقول فيه] :

تعلمتمُ من منطق الشيخ يعربٍ

أبينا فصرتمْ مُعْربين ذوي نفر

(١) انظر ص ١١.

وكنتمْ قديماً مالكم غير عجمةٍ
كلامٌ وكنتمْ كالبهائم في القفرِ
تقولون ما نوحٌ وهودٌ وكنتُمُ
إذا ما التقينا كالرصاص على الجمرِ
منازلكمْ كأباءُ منها درجتمُ
إلينا كأفراخ درجْنَ من الوكرِ
فنحن وأنتم كالذي قال آزلٌ
أُعلِّمهُ رمياً ليمنع لي ظهري
فلمّا رمي واشتدَّ ساعده رمى
فلم يُخْطِ ظهري فيهِ كلاً ولا صدري
وليس بغاث الطير مثل عتاقها
ولا الذهب الإبريزُ يُعدل بالصفر»[1]

قال أبو عبدالرحمن : حسان رضي الله عنه يمني الأجداد السحيقة ، شمالي المنشأ أباً عن جد ، عدناني اللغة ، وشعره محفوظ عند الشماليين ، وديوانه برواية العلماء ، وما نَدَّ عنه أُحصي من المصادر الأخرى وليس هذا الشعر الركيك موجوداً في نُسخ ديوانه .. وهذا فخر على العدنانية ولم تَقُمْ بعد العصبية بين القحطانية والعدنانية في جاهليتهم ، وإن مدح بعض آل جفنة فمدح غير العدنانيين شيئ ، وثلْب العدنانيين شيئ آخر .. وحسان في الإسلام مع رسول الله ﷺ وقومه ، وهذا الشعر ركيك جداً، وهو مع هذا مليئ بسرقات مُحَوَّرة - وما أحرى الهمداني بجنايته ؛ فهذا نهجه، ولا سيما حول شعر حسان والنعمان بن بشير رضي الله عنهما - .. ثم كيف

(١) تاريخ العرب ص ٧ - ٩ .

يكون يعرب أول ملكٍ سجع بينما أبوه قحطان ثالث واحد قال شعراً ؟.. أليس السجع قبل الشعر ؟.. والعرب البائدة بما فيهم عاد قوم هود عليه السلام لا خبر عنهم إلا من الشرع أو دلالة صحيحة من الآثار والحفريّات، وعُروبتهم وصف من البداوة والصحراء التي هي عَرُوبة ، وعُروبة العرب الباقين عُروبة عِرْق ؛ فعدنان وقحطان معاً من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام ، ولا يحتمل شرعنا المطهر من القرآن والسنة غير هذا ؛ فهل خرج القحطانيون من فضيلة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [سورة آل عمران/ ٦٨] .. هذا من جهة الدين الإسلامي، ومن جهة النسب قوله تعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [سورة الحج/ ٧٨] ، أو ليس الخطاب لرسول الله ﷺ وخيار الأمة وقت التنزيل من المهاجرين والأنصار الذين هم قحطانيون ، ونزلت الآية في الحج الذي تأخَّر إيجابه ، وقد قام الدين بالله ثم بالمهاجرين والأنصار قبل نزول هذه الآية الكريمة ؟.. ونصوص فضل العرب جاءت على أنهم أمة واحدة ؛ فكيف يُؤْخذ بعضهم ويلحق بالعرب البائدة ويحرم من فضل العرب ؟.. ومذهب هؤلاء أن قحطان أقدم من إبراهيم عليه السلام ، وأن أباه أحد أجداد إبراهيم ؛ فيكون العدنانيون أبناء عمِّ القحطانيين !!.. ولتقرير هذا مجال أرحب بكتابي (العرب نسباً وشرفاً) ، ويا ليت شعري من يتلو علينا الآن لغة عاد وثمود ونصوص آدابهم ؟!.. والكتاب المكذوب كله عن قحطان ليس فيه للعدنانيين ذكر إلا بالتعريض والسبِّ، كما في القصيدة المكذوبة على حسان رضي الله عنه ، ثم يكون الكتاب من تأليف الأصمعي العدناني الثقة ؟.

قال أبو عبدالرحمن: ثم نعود إلى الشعر المكذوب على حسان ؛ فنحلِّله بناء على ما نعرفه من شعر حسان رضي الله عنه وشعر بني عصره ؛ فنجد: (ذوي نَفْرِ)، ولا علاقة لتعلم اللغة بكثرة النفْر ، ونجد هجاء إسماعيل وأبيه عليهما السلام في

هذا الشطر (وكنتمْ قديماً مالكم غير عجمة) ، ثم بعده مباشرة (كلام) ؛ فكيف نوجِّه إعرابها ؟.. ووصفهم بالبهائم في القَفْر ، ولا علاقة لا ختلاف اللغة بغباء البهائم .. وهل أنكر بنو عدنان هذين النبيين الكريمين في هذا التعريض الأسطوري (تقولون ما نوحٌ وهودٌ) .. ومتى كان اللقاء مع العدنانيين في عهد حسان وقبله ، وهل تشبيه العدنانيين بالرصاص على الجمر من معاني ذلك العصر .. وأين منازل العدنانيين الكأباء ، وفي أي مكان درجوا إلى القحطانيين ، وهل للعدنانيين موطن قبل جزيرة العرب إلا على أخبار أسطورية أن مَعَدّاً عاش عند بني إسائيل ؟.. ثم بعد ذلك ضاق عطن صاحب الأسطورة فسرق أشطراً من الشعر الصحيح المأثور بأسلوب عظيم التَّدَني .. إن حساناً رضي الله عنه فوق هذا الشعر لغة وبلاغة وسموَّ أخلاق ومعانيَ.

قال أبو عبدالرحمن : ولقد وجدتُ نصّاً نفيساً لحمزة الأصفهاني [٢٨٠ - ٣٦٠هـ] رحمه الله تعالى يُحقِّق الوعي بوضع الأساطير ، ويذكر بعض حيل الأسطوريين ؛ فقد ذكر هذه الأسطورة عن حروف (أبجد هوز .. إلخ : «رووا أن أول من وضع الكتابة العربية قوم من الأوائل نزلوا في عدنان بن أُدّ بن أُدد ، فاستعربوا ، ووضعوا هذه الكتابة على عدد حروف أسمائهم وكانوا ستة نفر أسماؤهم : أبجد ، هوز ، حطي، كلمن ، سعفص ، قرشت .. وأنهم كانوا ملوك مدين ورئيسهم كلمن ؛ فهلكوا يوم الظُّلَّة مع قوم شعيب ؛ فقالت أُختُ كلمن ترثيه :

كَلَمونٌ هدَّ ركني ... هلكهُ وَسْطَ المَحَلَّةْ

سيدُ القوم أتاه (م) ... الحتفُ ناراً وسطَ ظُلَّه

جُعلت ناراً عليهمْ ... دارهم كالمضمحلَّة»[1]

(١) **التنبيه على حدوث التصحيف** ص١٥ ، وانظر **المزهر** للسيوطي ٣٤٨/٢، نقلاً عن المسعودي ، وأحال المحقق إلى الفهرست لابن النديم

ثم قال بعد ذلك : «هذا الخبر صادر عن رجل كان يُولّد الأخبار على الأمم الذين بادوا كعادٍ وثمود وطسم وجديس وأضرابهم ؛ فإذا احتاج إلى توليد أشعار يؤكد بها تلك الأخبار خرج إلى ظاهر المدينة لامتحان الأعراب ملتمساً من يحسن قول الشعر؛ فإذا عثر على واحد عَدَلَ به إلى منزله ؛ فغدّاه وكساه وحباه ، ثم سأله أن يقول شعراً من جنس ما يريده فكانوا يعملون له مثل :

كَلَمونٌ هـدَّ رُكني هلكه وَسْط المحلة

وهذا الرجل هو الذي ادَّعى على آدم عليه السلام أنه كان شاعراً وروى له :

تغيرت البلادُ ومن عليها فوجهُ الأرض مغبرٌّ قبيحُ
تغَيَّرَ كلُّ ذي طعمٍ وريحٍ وقلَّ بشاشةُ الوجه المليح
وبُدِّل أهلُها أثلاً وخَمْطاً بجناتٍ من الفردوس فيحِ
وجاوَرَنا عدوٌ ليس ينأى لعينٌ ما يموت فنستريحُ
فلولا رحمةُ الخلاق أضحى بكفِّي من جناب الخلد ريحُ
فيا أسفي على هابيلَ ابني قتيلاً قد توسدَ في الضريحِ

فنسب بغباوته إلى نبيٍّ من أنبياء الله شعراً ركيكاً ، واهي الركن ، ضعيف الأسر، ذا إقواء .. ولم يعلم أن الإقواء من أكبر عيوب الشعر ، وليت شعري ما معنى قوله : (تغيرت البلاد) ، وأين رقاع هذه البلاد ، ومن كان بانيها ، وماذا أراد بقوله : ومن عليها ؟؟؟»[١] .

ولقد تسرَّع الأستاذ محمد أسعد طلس محقق التنبيه ؛ فنسب خبرَ أختِ كلمن إلى حماد الراوية [- ١٨٠هـ][٢] رحمه الله تعالى ، ولا حجة له في ذلك ، بل كان

(١) التنبيه على حدوث التصحيف ٢/٣٤٨ .
(٢) التنبيه ص١٧ [حاشية] .

حماد يضع الشعر الجزل فينطلي على فحول النقاد ، وقد اعترف رحمه الله قبل وفاته بما وضع من شعر على سبيل التظرُّف ، وأما هذا الشعر الهلامي فدون مستوى حماد ، وأدنى ما رأيته من الشعر الذي صنعه حماد - وهو فوق هذا الشعر الهلامي على الرغم من تدنِّيه - هذه الأبيات :

«قل لعَمْرٍ يابن هندٍ ... لو رأيت القومَ شُنَّاً[1]

لرأَتْ عيناكَ منهمْ ... كلَّ ما كنت تَمَنَّى

إذْ أتتنا فَيْلَقٌ (م م) ... شَهْبَاء من هَنَّا وهَنَّا[2]

وَأَتَتْنا دَوْسَرُ المَلْحاء ... (م م م) سَيْراً مُطْمئِنَّاً[3]

ومضَى القومُ إلى القوم ... (م) آحادَ وأثنا

وثلاثاً ورُباعاً ... وخماساً فأطَعْنا

وسُداساً وسُباعاً ... وثماناً فاجْتَلَدْنا

وتُساعاً وعُشَاراً ... فأُصِبْنا وأَصَبْنا

لا ترى إلاّ كَمِيَّاً ... قاتِلاً مِنْهُم ومنّا»[4]

وأما شعر آدم عليه السلام وإبليس لعنه الله فقد تواطأ الكذبة على وضعه ؛ بناء على طريقتهم في سرقة الأسانيد ، وسرقة المتون نصّاً أو بتصرُّف ، وهذا بيِّن من قول الإمام الذهبي رحمه الله تعالى : «أحمد بن محمد المخزومي : عن عبدالعزيز بن الرماح : عن ابن عُيينة : عن ابن أبي نجيح : عن مجاهد : عن ابن

(١) قال أبو عبدالرحمن : شُنّاً بمعنى منصبِّين صبّاً .

(٢) الفيلق كصيقل: الجيش وجمعه فيالق ، والشهباء من الكتائب العظيمة الكثيرة السلاح [محققو المزهر] .

(٣) قال أبو عبدالرحمن : في كل المصادر : (وَأَتَتْ) ولا يستقيم الشعر وزناً ولا معنى إلا بما أثْبتُّه.

(٤) المزهر ١/١٧٨ - ١٧٩ .

عباس [رضي الله عنهما] قال : لما قَتَل ابنُ آدم أخاه قال آدم عليه السلام :

تَغيَّرت البلادُ ومَن عليها ... فوَجْهُ الأرضِ مُغْبَرٌّ قَبيح

تَغَيَّر كلُّ ذي طَعْمٍ ولَوْنٍ ... وقَلَّ بشاشةُ الوَجْهِ المليح

قَتَلَ قابيلُ هابيلاً أخاه ... فواحرَبا مضى الوَجْه الصبيح

فأجابه إبليس :

تَنَحَّ عن البلاد وساكنيها ... فبي في الخلد ضاقَ بك الفَسيحُ

رواه عنه أبو البَخْتري عبدالله بن محمد بن شاكر ، وسمعه ابن أبي البختري إسماعيل ابن العباس الوراق ؛ فالآفة المخزومي ، أو شَيْخُه»[1] ، وأضاف الإمام ابن حجر قوله : «وهذا الحديث أخرجه الطبري : عن محمد بن حُميد : عن سلمة بن الفضل : عن غياث بن إبراهيم : عن أبي إسحاق الهَمْداني قال : قال علي بن أبي طالب [رضي الله عنه] لما قَتَل ابنُ آدم أخاه بكى آدمُ ، فقال (فذكر البيتين) ، وزاد فقال : فَأُجِيبَ آدمُ:

أبا هابيلَ قد قُتِلا جميعاً ... وصار الحيَّ بالمَيْتِ الذَّبيحُ

وذكر بيتاً آخر ، وغياثٌ تالف .. ونَقَل عن الثَّعلبي : من طريق أبي جعفر النُّفَيلي : عن النَّضْر بن عربي : عن ميمون بن مِهْران : عن ابن عباس [رضي الله عنهما] قال : من قال : (إن آدم قال شِعْراً كذب على الله ورسوله ، ورَمَى بالمأثم .. إن محمداً والأنبياء كلُّهم في النهي عن الشعر سواء .. لكن لما قَتَل قابيلُ هابيلَ رثاهُ آدم وهو سُرْياني ؛ وإنما يقول الشعرَ مَنْ يتكلم بالعربية ؛ فقال لشِيْث : احْفَظْ هذا الكلام لِيُتوارثَ فيرقّ الناسُ عليه ، فلم يزل يُنْقَل إلى أن وصل إلى يَعْرُب بن قَحْطَان ، وكان يتكلَّم بالعربية والسُّريانية ، وكان يقول الشعرَ ؛ فنظر في المَرْثية فإذا هي

(١) ميزان الاعتدال ١/١٥٤ - ١٥٥ مع بعض التصحيح ، وانظر تاريخ بغداد ٦/٣٢٧ .

سَجْع ، فقال : إن هذا لَيُقَوَّمُ شِعْراً ، فردَّ المقدَّم إلى المؤخَّر ، فوَزَنه شِعْراً ؛ فخرج منه الأبياتُ وهي ثمانية ، وذكر أبياتاً نحوها في الوَزن والرَوِيِّ ثلاثة، ولإبليسَ أوَّلها : (تَنَحَّ عن البلاد) وهي أربعة»[1].

قال أبو عبدالرحمن: كل رجال إسناد الثعلبي إما أئمة، وإما ممن يُحتجُّ بروايته.. إلا أن الإسناد منقطع؛ لأن الثعلبي المتوفى سنة ٤٢٧هـ لم يدرك أبا جعفر عبدالله بن محمد بن علي بن نُفيل النُّفَيْليَّ القضاعي المتوفى سنة ٢٣٣هـ رحمهم الله

(١) لسان الميزان ٦٦٥/١ - ٦٥٦ عن الكشف والبيان لأبي إسحاق الثعلبي [- ٤٢٧هـ] رحمه الله تعالى، وهذا التفسير منه نسخ بأحاديث وآثار مسندة ، ومنه نسخ بغير إسناد ، وفي المطبوع (٥١/٤) عن نسخة غير مسندة ؛ وإنما فيها (روى ميمون) ، وهذا نص القصيدة عند الثعلبي في الكشف والبيان ٥٢/٤ :

«تغيّرت البلاد ومن عليها ... ووجه الأرض مغبرٌّ قبيح
تغير كل ذي طعم ولون ... وقلّ بشاشة الوجه الصبيح
وقابيل أذاق الموت هابيل ... (م) فواحزني لقد فُقد المليح
ومالي لا أجود بسكب دمع ... وهابيل تضمَّنه الضريح
بقتل ابن النبي بغير جرم ... قلبي عند قلبه جريح
أرى طول الحياة عليَّ غمّاً ... وهل أنا من حياتي مستريح
فجاورنا عدوّاً ليس يفنى ... عَدُوّاً ما يموت فنستريح
دع الشكوى فقد هلكا جميعاً ... بهالك ليس بالثمن الربيح
وما يغني البكاء عن البواكي ... إذا ما المرء غُيِّبَ في الضريح
فَبَكِّ النفسَ منك ودع هواها ... فلست مخلّداً بعد الذبيح

فأجابه إبليس في جوف الليل شامتاً :

تنحّ عن البلاد وساكنيها ... فَبِيْ في الخلد ضاق بك الفسيح
فكنت بها وزوجك في رخاء ... وقلبك من أذى الدنيا مريح
فما انفكت مكايدي ومكري ... إلى أن فاتك الخلد الرّبيح
فلولا رحمة الجبّار أضحى ... بكفك من جنان الخلد ريح»

وانظر تفسير الطبري ٢٠٩/١٠ - ٢١٠ ، وغياث اتفقوا على أنه كذاب وضاع .

تعالى؛ فلا تقوم به حجَّة ، ولو رواه مَنْ تُقبل روايته بإسناده إلى الثقات لطُعن فيه بروايته هذا الإفك .. والمخزومي ضُبط في إحدى نسخ ميزان الاعتدال هكذا (المُخَرِّمي) - وهي نسبة إلى مُخَرِّم محلة ببغداد (بضم الميم ، وفتح الخاء ، والراء المهملة المشدَّدة بالكسر) ، وهذا هو الأصح ، ولهذا ذكره البغداديُّ في تاريخ بغداد[١] .

وقال أبو الحسن علي بن محمد بن عَراق الكناني تعليقاً على قول الذهبي : (الآفة المُخَرِّمي أو شيخه) : «قال الحافظ برهان الدين الحلي : الظاهر [من] قولهم : (أن آفته فلان) كناية عن الوضع ، ويحتمل أن يكون المراد آفته في رده أو نكارته ، أو غير ذلك .. وأقول : إن قالوا موضوع أو باطل آفته فلان فهو كناية عن الوضع ، وإن قالوا (منكر آفته فلان) فمرادهم آفته في نكارته وإن قالوا : (آفته فلان) فقط فهذا محل التردد والله أعلم»[٢] .

قال أبو عبدالرحمن : اتفاق المحدثين ههنا على أنه موضوع ؛ فمراد الذهبي آفة وضعه ، ولا مجال لما ذكره من احتمالات ههنا .. ثم قال ابن حجر رحمه الله تعالى في سياق نقله عن حمزة الأصفهاني عن الرجل المبهم الوضاع : «وهو الذي اختلق قولَ المنتصر المَدْيَني في هَلاك قومه من آل مَدْين :

(١) هكذا هو في كل المصادر ، وانظر **الكشف الحثيث** ص٥٧ رقم ٩٣ (حاشية المحقِّق) ، وقد وعد بترجمة شيخه عبدالعزيز الرماح ، ولم أجدْ ذكراً له .. ومحقق **لسان الميزان** هو شيخي عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله ، وهو محقِّق مدقِّق ؛ فالعجب كيف فاته هذا الضبط ، وأثبت المخزومي !؟ .

(٢) **تنزيه الشريعة** ١/٣٤ ، وروى هذا الإفك ابن هشام الحميري في **التيجان** ص٢٤ - ٢٥ ، وحشويُّو الأخبار كالمسعودي .

ألا يا شُعيبٌ قد نَطَقْتَ مقالةً سَلَبْتَ بها عَمْراً وحَيَّ بني عَمْرِو»(١)

وما أملح هذه الكلمة لمحمد بن سلاَّم الجُمَحي [١٣٩-٢٣١هـ] رحمه الله تعالى: «وكان ممَّن أفسد الشعرَ وهجَّنهُ وحمل كل غُثَاءٍ منه محمد بن إسحاق بن يَسَار - مَوْلَى المَخْرَمة بن المُطَّلب بن عبد مناف، وكان من علماء الناس بالسِّيَرِ .. قال الزُّهْريّ: لا يزال في الناس علمٌ ما بقي مولَى آل مَخْرَمة ، وكان أكثرعلمه بالمغازي والسِّيَر وغير ذلك - ؛ فقبل الناسُ عنه الأشعارَ ، وكان يعتذر منها ويقول : (لا علم لي بالشعر، أُتينَا به فأحمله)، ولم يكن ذلك له عذراً، فكتب في السِّيَر أشعارَ الرجال الذين لم يقولوا شعراً قطُّ ، وأشعارَ النساء فضلاً عن الرجال .. ثم جاوز ذلك إلى عادٍ وثمودَ؛ فكتب لهم أشعاراً كثيرة وليس بشعر؛ إنما هو كلامٌ مؤلّف معقود بقَوَافٍ.. أفلا يرجع إلى نفسه فيقول: من حمل هذا الشعر، ومن أدَّاه منذ آلاف من السنين؟.. والله تبارك وتعالى يقول : ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [سورة الأنعام / ٤٥] .. أي لا بقيَّة لهُمْ ، وقال أيضاً : ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾ [سورة النجم / ٥٠ - ٥١] ، وقال في عادٍ : ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [سورة الحاقة / ٨]

(١) لسان الميزان ٦٥٦/١، وقد نقله السيوطي في المزهر ٣٤٨/٢-٣٤٩ عن المسعودي بهذا النص:

ألا يا شعيب قد نطقتَ مقالةً أتيتَ بها عَمْراً وحيَّ بني عمرو
همُ ملكوا أرض الحجاز بأوجهٍ كمثل شعاع الشمس في صورة البدر
وهمْ قطنوا البيت الحرام وزيَّنوا قطوراً وفازوا بالمكارم والفخر
ملوك بني حُطِّيْ وَسَعْفَصَ في الندى وهوزٌ أرباب الثَّنِيَّةِ والحجر

قال أبو عبدالرحمن : تبارك الله أحسن الخالقين ؛ فمن أيِّ وحي جاء هذا النظم الممسوخ من اللغة العدنانية بنظام شعر حدث في عهد شعيب عليه السلام ولم تستقرَّ الفصحى بعد ، أو بأي تواتر ، أو بأي إسناد متَّصل بالعدول ؟!.. ومعد بن عدنان في عهد شعيب عليه السلام ، ولم تتكون العدنانية الفصحى بَعْدُ ، وهذا النظم الركيك بعد فساد السليقة مع تبلُّد موهبة الناظم .

وقال : ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [سورة الفرقان/ ٣٨]، وقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [سورة إبراهيم/ ٩]»[١]، ثم قال : «ولا نجدُ لأوَّليَّة العربِ المعروفين شعراً ؛ فكيف بعادٍ وثمود ؟.. فهذا الكلامُ [أي : فهذا الكلام هو] الواهنُ الخبيثُ ، ولم يَرْوِ قطُّ عربيٌّ منها بيتاً واحداً ، ولا راويةٌ للشعر .. مع ضَعْفِ أَسْره وقلَّة طُلاوته .. وقال أبو عمرو بن العلاء في ذلك: (ما لسانُ حِمْيرَ وأقاصي اليمن اليوم بلساننا، ولا عربيَّتهم بعربيَّتنا) فكيف بما على عهد عادٍ وثمود مع تداعيه ووَهْيِه ؟.. فلو كانَ الشعرُ مثلَ ما وُضِع لابن إسحاق ، ومثلَ ما رَوَى الصُّحُفِيُّون : ما كانت إليه حاجة ، ولا فيه دليلٌ على علم»[٢] .

وكثير من الكذبة يأتون بمحالات ، ولا يقابلها العلماء إلا بالنقل المجرَّد كالساحر عبدالله بن هلال صديق إبليس ؛ فإننا نؤمن بالسحر ، وأن له أثراً بإذن الله ، ولكنه علناً أمام الناس مجرَّد تخييل ؛ لهذا أسوق قصته مكتفياً بإحالة قصته العلنية مع الحجاج ، ولم يقابلها الإمام ابن حجر بغير النقل المجرَّد ، وهكذا فعل شيخي عبدالفتاح أبو غدة رحمهما الله ؛ فلم يُعَلِّق .. قال رحمه الله : «قال أبو عبدالرحمن محمد بن المنذر الهروي المعروف بشَكَّر[٣] في كتاب العجائب له : حدثني محمد بن إدريس : سمعت محمد بن عِصْمة - وكان صاحب حديث - يقول : سمعت شيخاً من بغداد يقول : كان من أمر عبدالله بن هلال : أنه مرَّ يوماً في بعض أزقَّة الكوفة ، وقد أُهْراق عسلٌ لرجل ، وقد اجتمع الصِّبيان يَلْعقُونه ويقولون : أخزى الله إبليس، أخزى الله إبليس .. فقال لهم عبدالله بن هلال : لا تقولوا هكذا ،

(١) **طبقات فحول الشعراء** ١/٧ - ٩ ، وانظر **المزهر** /١٧٣ - ١٧٤.

(٢) **طبقات فحول الشعراء** ١/١١.

(٣) قال أبو عبدالرحمن : هو إمام ثقة عدل. توفي سنة ٣٠٣هـ ، ولكن إسناده لا تقوم به حجة، ويكفي أنه عن مجهول ، وانظر عن الهروي **سير أعلام النبلاء** ١٤/٢٢١ - ٢٢٢ .

وقولوا : جزى الله إبليس عَنّا خيراً ، فإنه أراق العَسَل حتى صِرْنا نلعقه .. قال : فجاء إبليس إلى عبدالله بن هلال[1] ، فقال له : إن لك عندي يداً ؛ إذ نَهَيتَ الصبيان عن سَبِّي ، وأنا أكافئك عليها ؛ فدفع إليه خاتَماً وقال : كل حاجة تبدو لك مَقْضِيَّة .. فكان إذا أراد شيئاً تهيَّأ له في الحال .. وكان للحجاج جاريةٌ يحبها ، فعَمِل رجل يوماً في قصر الحجاج ، فنظرها فأحبَّها ، فجاء إلى ابن هلال (وكان يخدُمه) فشكا إليه حاله ، فقال : الليلة آتيك بها ، فجاءه لما جَنَّ الليل والجاريةُ معه ، فباتَتْ عنده إلى الصباح ، ثم صار يأتيه بها كلَّ ليلة .. فاصفَرَّ لون الجارية من الخوف والسَّهَر ، فشكت إلى الحجاج ؛ فقالت : إنه إذا نام الناس يأتيني آت فيذهبُ بي إلى بيت فتىً شاب ، فأكون فيه إلى الصباح، فإذا أصبحتُ أرى نَفْسي في القَصْر .. قال: فأمر بطَشْتٍ من خلُوق ؛ فقال لها : إذا وصلت بيت الرجل فلطِّخي بابه .. ففعلَتْ ، وبعث الحَرَس، فأتوه بالرجل ، فقال له الحجاج : لك الأمان فأخبرني بقضيتك .. فأخبره ، فطلب عبدالله بن هلال فقال[2] : يا أبا عبدالله تركتَ أهل الدنيا، وعامَلْتني بهذا ، ودعا بالسَّيف والنطع .. قال : فأخرج عبدالله كبة غزل ، فأعطى طَرَفها للحجاج ، وقال أمسك بهذا حتى أريك عَجَباً قبل أن تقتلني .. ورمى الكبة إلى الهواء ، وتعلَّق بالخيط فارتفع ، فلما صار في أعلى القصر قال : يأمرُ الأمير بشيئ ؟.. ثم ذهب .. قال : وقبض عليه الحجاج مرةً غير هذه فسجنه ، فقال لأهل السِّجْن : من شاء أن ينحدر معي إلى البصرة فليركب هذه السَّفينة ، وخَطَّ مثل السفينة ، فدخل معه فيها بعضهم ، وامتنع آخرون ، ونجا هو ومَنْ معه .. وقد قال محمد بن إسحاق النديم في «الفهرست» في الفن الثاني من المقالة الثامنة: وأمّا المعزِّمون

(١) قال أبو عبدالرحمن : مرَّت الإشارة إليه في جمهرة أنساب العرب للإمام ابن حزم .

(٢) قال أبو عبدالرحمن: لست أعلم من القائل إلا أن يكون حرف النداء (يا) زلة قلم ؛ فيكون القائل الحجاج.

ممن ينتحل الشرائع ، فيزعمون أن ذلك يكون بطاعة الله، وأما غيرهم فهو من السِّحر ، قال : وممن كان يعمل الطريقة المحمودة بأسماء الله ونحو ذلك ، ابنُ الإمام في زمان المعتَضِد ومِنْ قبلهم عبدالله بن هلال !؟»»[١] .. ثم نقل عن كتاب العجائب: أن ابن هلال صديق إبليس كان يترك لأجل إبليس صلاة العصر[٢].

قال أبو عبدالرحمن: تراجم الأعلام جزء من التاريخ، وإيراد الترجمة بهذا التسامح إلغاء لمسؤولية الفكر؛ فهل ما حصل يُعقل، وهل له أمثال صحيحة في الواقع، وهل قضى إبليس حاجته من أجل العسل أو من أجل صلاة العصر ، وهل شيطان الساحر لا يعلم بالخلوق على الباب، ثم هذا الحدث الجلل في عهد عنفوان الرواية لم يعلم به المؤرخون والرواة غير (شيخ من بغداد !!) ، وإذا كان ابن هلال لا يصلي العصر فهل الساحر يحافظ على بقية الصلوات ؟!!.

وقريب من هذا إيراد الحسيني وابن حجر رحمهما الله خبراً عن أبي الحسن علي بن أيوب القدسي [- ٧٤٨هـ] رحمه الله تعالى أنه حدَّث بصحيح البخاري عن مؤلفه البخاري رحمه الله تعالى، وأنه لقيه في الجنة ، وأنه أجاز له روايته عنه[٣].

قال أبو عبدالرحمن : أقلُّ ما في المسؤولية الفكرية أن يذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى احتمال أنه قال ذلك بعد أن فسد دماغه ؛ فقد فسد دماغه رحمه الله آخر عمره .

قال أبو عبدالرحمن: لا أحب أن يملَّ القارئ؛ فسأنتقل به إلى عناصر أخرى من المسؤولية الفكرية وعلى بالي إن شاء الله العودة إلى هذه الأساطير، وإلى ضبط أعلام صحيحة وأعلام مُختلفة في سلسلة الأنساب دخلها التحريف والتصحيف .. وهذه النقلة

(١) لسان الميزان ٥/ ٣١ - ٣٢ .

(٢) لسان الميزان ٥/ ٣٢ .

(٣) لسان الميزان ٥/ ٥٠٣ برقم ٥٣٣٦ .

إلى عنصر الفطنة الذهنية تجاه مادتين من مواد التاريخ ادَّعَى جمهور من الباحثين أنهما حِياديَّتان لا دخل لأهواء المؤرخ فيهما؛ ولذا فهما قطعيتان .. المادة الأولى موجودات الطبيعة الحسية المشاهدة .. قال الدكتور محمد فتحي عثمان: «الصخور الصلدة - التي تعمل فيها عوامل الطبيعة بالالتواء والانكسار والخفض والرفع والتعرية والتَّحاتِّ .. إلخ - شواهد محايدة؛ لأنها سلمت من أيدي الإنسان ، وأهواء الإنسان»[1].

قال أبو عبد الرحمن: هذا صحيح لو كان الغرض وصف الطبيعة كما هي عليه، وإنما الغرض تفسيرُ نشأتِها وتدرُّجها ، والتأريخ لها بآلات تقدير الأعمار؛ فهذا عمل بشري يدخله الخطأ والهوى ؛ لهذا يؤخذ من تقرير عالم الجيولوجيا ما كان يقينياً أو رجحانياً ليس له معارض مُعْتَدٌّ به، ونتوقَّف في الاحتمالي مستوي الطرفين.. وقد ثبت علمياً - وألَّف الدكتور إحسان حقي في ذلك كتيِّباً علميّاً نفيساً[2] - : أن التزوير كثر واشتهر في المتحجِّرات القِرْديَّة التي ادُّعي أنها أصل الإنسان ، وَقُدِّر لها ملايين السنين .. وأن آلات تقدير الأعمار (باعتراف العلماء أنفسهم) لا تُحدِّد من العمر أكثر من خمسمئة سنة لا ثلاثة آلاف ظنية ، ولا تُحدِّد آلافاً من السنين[3] ، وهي مع ذلك الزمن القصير ظنية .. كذلك الطرق الأخرى لتقدير أعمار بعض الموجودات المحسوسة بملايين السنين كتقدير عمر البحر من تحليل نسبة ملوحة البحر وَفْق الطريقة التي ذكرها أحمد زكي في كتابه[4] ؛ فلو صحت هذه الطرق في تحديد عمر البحر مثلاً علمياً بيقين لا يشوبه شك لما كانت دليلاً على أن البحر خُلق

(١) **المدخل إلى التاريخ الإسلامي** ص ٣٣ ، وقال : «الجيولوجيا مادتها الصخر ، والصخر لا يكذب» ، والله سبحانه هو المدبِّر للطبيعة وما فيها .

(٢) هو كتاب بعنوان (**خلق لا تطور** / الإنسان ابن آدم وليس ابن قرد) جمعه من كلام فريق من رجال العلم المادي الحديث، وانظر على سبيل المثال عن التزوير في المتحجرات ص١١٠-١١٦.

(٣) انظر المصدر السابق ص١١٨-١٢٣ .

(٤) انظر كتابه **مع الله في السماء** ص١٠٥-١٠٦ .

بهذا التدُّرج في العمر حتى بلغ هذه النسبة من الملوحة ؛ بل إجماع الأديان الربانية على أن الله خلق البحر بهذه الكثافة من الملوحة دون تدرُّج؛ لتعيش أحياؤه ، وكان ذلك خلال ستة أيام خلق الله فيها السموات والأرض .. ومهما كان مقدار اليوم فالأيام المقدَّرة في الشرع - إذا أخذنا أكثرها مدة - لا تتجاوز ستة آلاف سنة .. ومع التسامح بأن خمسين ألف سنة أحد مقادير أيام الله ، وليس هو لبعد مسافة عروج الملائكة عليهم السلام ؛ فلا يتعدى خلق الأرض مئتي ألف سنة ؛ لأن الله خلق الأرض في أربعة أيام .. وظنون تقدير عمر البحر إن قامت على بواعث مشهودة فهي لا تملك العلم بالموانع من إرادة للخالق سبحانه ألغت هذه البواعث المشهودة ؛ فلم تكن بواعث في الواقع المغيَّب ، بل مقتضى الخالق إيجاده بكثافته من أول خلْقته ؛ لتحفظ الأملاح حياة أحيائه .. وكل علم للبشر لما يُتَوَقَّع حدوثه ، أو تفسير ما حدث فهو مبنيٌّ على ما يغيب عن علمهم من موانع تطْرأ ، أو بواعث أكثر .

ومادة التاريخ الثانية الوثيقة - من ورقة مسجَّلة ، أو كتابةٍ في حجر أو مَعْدِن - ؛ فهذه أيضاً مادة محايدة ارتبطت بتصحيح أو تفسير حدث تاريخي مصادفة، ولم تُكتب من أجله ؛ حتى تكون مُتَّهمة بالهوى .

قال أبوعبدالرحمن : هذه المأثورات لا يجوز تسميتها وثائقَ ابتداءً ؛ بل هي وِجادات ؛ فإذا أنتجت دراستُها يقيناً أو رجحاناً على صحتها في ذاتها دون أخطاء أو أهواء ، وصحَّتْ دلالتها : أصبحت حينئذ وثيقة .. والوثائق - بعد انتقالها من الوجادة إلى هذا المفهوم - هي مادة التقويم الصحيح ، وأفدت منها كثيراً في تصحيح تاريخنا المحلي ، وكنتُ أنشر منها نماذج محقَّقة بمجلة الدرعية ، ثم توقفتُ لعوارض صحية ، وعوارض أشغال ، وقد أعود إلى ذلك إن شاء الله .. ووجدت وجادات مزوَّرة ليست وثائق كنهب اللصوص لعبدالعزيز أبا بطين مندوب الإمام عبدالله بن فيصل رحمهما الله لمدحت باشا ، ووجدت في التاريخ الكويتي عن حرب

الإمام سعود بن فيصل رحمهما الله للترك بالدمام والقطيف والأحساء أحداثاً تنافيها وثائق نافذ باشا الذي يكتب لمرجعه عن كل حدث خلال أيام معدودة .. وأصح الوثائق ما كُتب لغرض معيَّن ؛ فَوُجِدتْ فيه دلالة تاريخية مصادفة غير مقصودة .. وحسبي ههنا ذكر أربعة نماذج لوجادات لم تكن توثيقاً صحيحاً لما دلَّت عليه .. النموذج الأول : أننا قد نجد كتابة ثمودية على حجر في أقصى بلاد الشام ؛ فلا نحكم بأن تلك الديار ثمودية ؛ لوجود الاحتمال المقتضي نفي ذلك ، وهو احتمال أن ثمودياً عابراً كتب هذه الكتابة ، أو أن خالِفاً بعد بُيُوْدِ ثمود يجيد كتابتها ؛ فرسم هذا الخط على الحجر .. ولوجود المانع من ذلك ، وهو المعرفة التاريخية المحقَّقة بحدود ديار ثمود .. والنموذج الثاني ما ذكره الدكتور محمد فتحي عثمان عن نقشٍ معدني .. قال : «إن العملة المصرية الحديثة كلها مهما كان تاريخها منقوش عليها (ضُرِبَ في مصر) .. إن القطع المعدنية لم تضرب في مصر أبداً ، وضربت في لندن مثلاً»[1]؛ فلولا العلم بأن دارَ سكٍّ النقود لم تفتتح في مصر لكان النقش المعدني شاهداً ولو بعد ألف عام على أن مصر كان فيها دار سك نقود في ذلك التاريخ الذي لم تُنْشأْ فيه الدار بعد .. والنموذج الثالث تقريرات قنصل روسيا في البصرة (آداموف) عن معركة الصريف ، وأن مبارك ابن صباح احتلَّ الرياض ، وعيَّن فيها عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود أميراً[2] ؛ فهذه اعتُبرتْ وثائق ، وما هي إلا وجادات كاذبة كانت تصل إلى القنصل من إشاعات الشيخ مبارك ، وقد نفت حقائق معركة الصريف الإشاعات الكاذبة فيما سُمِّي وثائق ، وشارك الشعر العامي المعاصر للحدث في نفي إشاعات التقرير ؛ فقال أبو جراح السبيعي يخاطب الشيخ مباركاً :

فوَّهتْ باخْذهْ نجد والعلم عمَّن تفلج وخصمك ما حضر للطلابة

(١) **المدخل إلى التاريخ الإسلامي** ص ٣٤ .

(٢) انظر كتابي **مسائل من تاريخ الجزيرة العربية** ص ١٣٩ - ١٤٠.

والنموذج الرابع وِجادة خطيَّة وجدها ياقوت الحموي [٥٧٤ - ٦٢٦هـ] رحمه الله تعالى ، وكل رجال إسنادها ثقات ، وتناقلها المترجمون على أن الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى لا يحسن الصلاة على الجنازة وعمره ست وعشرون سنة .. قال ياقوت : «قرأت بخط أبي بكر محمد بن طرخان بن بلتكين بن بجكم قال : ولد الشيخ الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بقريته (وهي من غرب الأندلس على خليج البحر الأعظم) في شهر جمادى الأولى من سنة ٣٨٤هـ ، والقرية التي له على بعد نصف فرسخ من أونبة يقال لها : (متليجم)، وهي ملكه ، وملك سلفه من قبله .. قال : وقال لي أبو محمد ابن العربي : إن أبا محمد بن حزم ولد بقرطبة ، وجده سعيد ولد بأونبة ، ثم انتقل إلى قرطبة ، وولي فيها الوزارة ، ثم ابنه عليٌّ الإمام ، وأقام في الوزارة من وقت بلوغه إلى انتهاء سنه ستاً وعشرين سنة .. وقال : إنني بلغت إلى هذا السن وأنا لا أدري كيف أجبر صلاة من الصلوات.. قال : قال لي الوزير أبو محمد ابن العربي : أخبرني الشيخ الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم : أن سبب تعلمه الفقه أنه شهد جنازة لرجل كبير من إخوان أبيه ؛ فدخل المسجد قبل صلاة العصر والحفل فيه ؛ فجلس ولم يركع ؛ فقال له أستاذه (يعني الذي رباه) بإشارة : أن قم فصل تحية المسجد .. فلم يفهم ؛ فقال بعض المجاورين له : أبلغت هذا السن ولا تعلم أن تحية المسجد واجبة ؟!.. وكان قد بلغ حينئذ ستة وعشرين عاماً .. قال : فقمت ، وركعت ، وفهمت إذن إشارة الأستاذ إليَّ بذلك .. قال : فلما انصرفنا من الصلاة على الجنازة إلى المسجد (مشاركةً للأحياء من أقرباء الميت) دخلت المسجد؛ فبادرت بالركوع ؛ فقيل لي: اجلس اجلس.. ليس هذا وقت صلاة .. فانصرفت عن الميت وقد خزيت ، ولحقني ما هانت عليَّ به نفسي ، وقلت للأستاذ : دلني على دار الشيخ الفقيه المشاوَر أبي عبدالله بن

دحّون[1] .. فدلني؛ فقصدته من ذلك المشهد، وأعلمته بما جرى فيه، وسألته الابتداء

(١) قال أبوعبدالرحمن : لم أجد معاصراً للإمام ابن حزم يُكنى أبا عبدالله بن دحُّون ، وإنما وجدت أبا محمد عبدالله .. قال ابن بشكوال [٤٩٤-٥٧٨هـ] في الصلة ٢٦٠/١ رقم ٥٨٩ : «عبدالله بن يحيى بن أحمد الأموي .. يعرف بابن دحُّون من أهل قرطبة .. يُكنى أبا محمد .. أخذ عن أبي بكر بن زرب ، وأبي عمر الإشبيلي وغيرهما من جلة العلماء ، وكان من جلة الفقهاء وكبارهم ، عارفاً بالفتوى ، حافظاً للرأي على مذهب مالك وأصحابه ، عارفاً بالشروط وعللها ، بصيراً بالأحكام مشاوَراً فيها .. وكان صاحباً للفقيه أبي محمد بن الشقاق ومختصاً بصحبته ، وعُمِّر وأسنَّ وانتفع الناس بعلمه ومعرفته .. قال لي أبوالحسن ابن مغيث: توفي أبومحمد ابن دحون في سنة إحدى وثلاثين وأربع مئة .. زاد غيره في المحرم ليلة الجمعة خلون منه وصلى عليه مكي المقرئ» .

قال أبوعبدالرحمن : وصَفَه ههنا بأنه مُشَاوَر ، وقال القاضي عياض بن موسى اليحصبي في ترتيب المدارك ٢٩٨/٧-٢٩٩ : «أبو محمد عبدالله بن يحيى ابن دحون أحد جلة شيوخ المفتين بقرطبة، وكبار أصحاب ابن المكوي وابن زرب .. صحبهما ، وتفقه بهما وبغيرهما .. قال ابن حيان : لم يكن في أصحاب ابن المكوي بإجماع أفقه منه ، ولا أغوص على الفتيا ، ولا أضبط للروايات .. مع نصيب من الأدب والخبر ، ولم يكن معه كتب إلا يسيراً من الأصول ، وكان بقيةَ علماءِ وقته بقرطبة ، وعاش بعد قرنائه ؛ فانفرد بالرئاسة بقية مدته .. وكان فكه المجلس ، جمّ الإفادة ، شديد التواضع مع رفعة حاله وتقديم الناس له .. يشتري جميع ما يحتاج إليه في الأسواق بنفسه ، حسن الرَّأيّ .. أنشد بعض الأدباء لابن دحون، وزعم أنها من قوله ، وهي تنشد لابن الرَّومي في زهر الخيري :

عجبتُ من الخيري أينع بالدجا ... وأصبح ريّاه مع الصبح يُحْجَبُ

فخلت الرُبا طبعٌ له فكأنه ... فقيه يرائي وهو بالليل يشرب

قال ابن حيان : وكان يُرخِّص في السماع ، ويجادل فيه عن مذهبه .. وسئل عن حاله ؛ فقال : ما حال من يعثر في ثوبه ، ويلقط الحيوان في جسمه ؟ .. وتوفي في صدر المحرم سنة إحدى و ثلاثين وأربع مئة وسِنُّه تسع وثمانون» .. ونقل عنه ابن حيان نصّاً تاريخياً في نفح الطيب ٥٦٧/١ .. وانظر عنه تاريخ الإسلام للذهبي المجلد الخاص بأعوام ٤٢١-٤٤٠ ص٣٤٤ ، والديباج المذهب لابن فرحون ص٢٢٧ ، وشجرة النور الزكية ص١٦٩ .. وهذا هو المعنيُّ بيقين، وأما «أبو عبدالله» فمن بلايا النص أيضاً ، وقد اكتفى أستاذي الدكتور إحسان عباس رحمه الله في تعليقه على النص من ترجمة ابن حزم في معجم ياقوت بقوله : «إنه مضطرب» ..

بقراءة العلم، واسترشدته؛ فدلني على كتاب الموطإ لمالك بن أنس رضي الله عنه؛ فبدأت به عليه قراءةً من اليوم التالي لذلك اليوم، ثم تتابعت قراءتي عليه وعلى غيره نحو ثلاثة أعوام، وبدأت بالمناظرة.. قال: وقال لي الوزير الإمام أبو محمد ابن العربي: صحبت الشيخ الإمام أبا محمد علي ابن حزم سبعة أعوام، وسمعت منه جميع مصنفاته حاشى المجلد الأخير من كتاب الفصل ، وهو يشتمل على ست[1] مجلدات

وما دام أُموياً ، وهو ابن دحون فهو بلا ريب حبيب بن الوليد .. قال المقَّري عن الداخلين في الأندلس في نفح الطيب ٢/٥٠٢-٥٠٤ : «حبيب بن الوليد بن حبيب (الداخل إلى الأندلس) بن عبدالملك بن عمر بن الوليد بن عبدالملك بن عمر بن الوليد بن عبدالملك بن مروان من أهل قرطبة ، ويُعرف بدحون .. رحل إلى المشرق أيام عبدالرحمن بن الحكم ، وحج ، ولقي أهل الحديث فكتب عنهم ، وقفل بعلم كثير .. وكانت له حلقة بجامع قرطبة يُسْمِع الناس فيها ، وهو يلبس الوشي الشامي إلى أن أوصى إليه الأمير عبدالرحمن بترك ذلك ؛ فتركه ، وتوفي بعد المئتين .. ومن شعره قوله :

قال العذول وأين قلبك كلما ... رُمتُ اهتداءك لم يزل متحيِّراً
قلتُ اتئد فالقلب أول خائن ... لما تغيَّر من هويتُ تغيَّرا
ونأى فبان الصبر عني جملة ... وبقيتُ مسلوب العزاء كما ترى

ومن ولده سعيد بن هشام، وكان أديباً عالماً فقيهاً رحم الله تعالى الجميع.. ودخل دحُّون دمشق وطنهم الأقدم وعاملها يومئذ للمعتصم بن الرشيد عمر بن فرح الرُّخجي ؛ فوافق دخوله إياها غلاء شديداً ومجاعة أشكت أهلها ؛ فضجوا إلى الرُّخجي أن يخرج عنهم مَن عندهم من الغرباء القادمين عليهم من البلاد ؛ فأمر بالنداء في المدينة على كل مَنْ بها من طارئ وابن سبيل ليخرجوا عنا ، وضرب لهم أجلاً ثلاثة أيام أوعد من تخلَّف منهم بعدها بالعقاب ؛ فابتدر الغرباء الخروج عنها ، وأقام دحُّون لم يتحرك ؛ فجيئ به إلى الرُّخجي بعد الأجل؛ فقال له: ما بالك عصيت أمري ، أوَما سمعت ندائي ؟.. فقال له دحون: ذلك النداء الذي وقفني.. فقال له: وكيف ؟.. فانتمى له؛ فقال له الرخجي: صدقتَ والله إنك لأحقُّ بالإقامة فيها منَّا ، فأقم ما أحببتَ ، وانصرف إذا شئتَ .. وكان لدحون هذا ابنٌ يُقال له بشر بن حبيب، ويُعرف بالحبيبي، وهو من المشهورين بقرطبة .. وأمه المدنية الراوية عن مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه، وبنته عبدة بنت بشر مشهورة، ولها رواية عنه رحم الله تعالى الجميع».

(١) قال أبو عبدالرحمن : الصواب ستة ؛ لأن الوصف للأجزاء أو الأسفار .

من الأصل الذي قرأنا منه ؛ فيكون الفائت نحو السدس .. وقرأنا من كتاب الإيصال أربع[1] مجلدات من كتاب الإمام أبي محمد ابن حزم في سنة ٤٥٧ ، ولم يفتني من تأليفاته شيئ سوى ما ذكرته من الناقص ، ومالم أقرأه من كتاب الإيصال»[2] .

قال أبوعبدالرحمن : الإسناد صحيح عن رجال عدول ، ولكن وقائع التاريخ اليقينية تنفي مضمون هذه الوثيقة ؛ فكيف نسقطها وهي صحيحة الإسناد ؟.. وابن طرخان الذي كان الخط بيده شهدوا له بصحة النقل ، وبالصلاح والزهد والعبادة والأمانة والصدق[3] .. وشيخ ابن طرخان أبو محمد ابن العربي - تلميذ ابن حزم - ثقة ، وياقوت ثقة .. إلا أن كل ما رواه ابن طرخان عن ابن العربي في هذه الترجمة ليس بصحيح ، والخطأ فيه من وجوه :

أولها : أنه حدد تاريخ وفاة أبي محمد بسنة ٤٥٧هـ ، والمتفق عليه أن وفاته سنة ٤٥٦هـ.

وثانيها: أن أبا محمد تولى الوزارة في أوقات بين عامي ٤٠٧ و٤٠٨هـ .. والمحقَّق تاريخياً أنَّ أول ما ولي أبو محمد الوزارة للمرتضى في حدود سنة ٤٠٧هـ وعمره يقارب ثلاثة وعشرين عاماً، ولم يبق فيها إلا شهوراً، وهذا باتفاق المؤرخين .. وقد قال أبومحمد عن إقامته بالمريَّة فيما بين ٤٠٤-٤٠٧هـ: «وفي أثر ذلك [أي حين قتل سليمان الظافر[4] ،

(١) انظر التعليقة السابقة .

(٢) **معجم الأدباء** ٨٨/٥ - ٨٩ ط م هندية بالموسكي بمصر عام ١٩٢٨م ، ودار الغرب الإسلامي ببيروت بتحقيق الأستاذ الدكتور إحسان عباس / طبعتهم الأولى عام ١٩٩٣م .

(٣) انظر عنه **الوافي** للصفدي ١٦٩/٣ - ١٧٠ .

(٤) هو سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر قام سنة ٣٩٩هـ ، وتولى قرطبة سنة ٤٠٠هـ ، ثم أخرج منها في نفس العام ، وظل يتجول ويفسد في الأندلس حتى استولى على قرطبة عام ٤٠٣هـ ، وحصلت في ولايته فتنة البربر، وكان شؤماً على الأندلس كما ذكر الإمام أبومحمد في جمهرة النسب ص١٠٢ .. قُتل سليمان الظافر سنة ٤٠٧هـ قتله علي بن حمُّود بن ميمون.. انظر **جذوة المقتبس** ص١٩-٢٢ .

وظهرت دولة بني حَمُّود الطالبية] : نكبني خيرانُ صاحبُ المريَّة؛ إذ نقل إليه مَن لم يتقِ الله عز وجل من الباغين - وقد انتقم الله منهم - عني وعن محمد بن إسحاق صاحبي أنَّا نسعى في القيام بدعوة الدولة الأموية ؛ فاعتقلنا عند نفسه أشهراً ، ثم أخرجنا على جهة التغريب؛ فصرنا إلى حصن القصر ، ولقينا صاحبه أبو القاسم عبدالله بن محمد بن هذيل التجيبي المعروف ابن المقَفَّل؛ فأقمنا عنده شهوراً في خير دار إقامة، وبينَ خير أهل وجيران ، وعند أجلِّ الناس همةً، وأكملهم معروفاً ، وأتمهم سيادة .. ثم ركبنا البحر قاصدين بلنسية عند ظهور أمير المؤمنين المرتضى عبدالرحمن بن محمد وساكنَّاه بها»[1].

قال أبوعبدالرحمن : ابن حزم أُموي النزعة ؛ لأنهم ولاة الأمر ، وعليهم اتحدت الأمة ؛ فلا يظهر لي أن ابن حزم ينفي سعيه لقيام الدولة الأموية ، ولكنه يرى نفسه مُحقّاً في ذلك ؛ ولا يشي بالمحق مَنْ يتقي الله .. ووزَرَ له منذ عام ٤٠٧هـ قبل أن يلي الأمر ؛ وإنما كان له أتباع ، وقد رجف على قرطبة ، وأراد في طريقه أخذ غرناطة من زاوي بن زيري ، فانهزم أتباع المرتضى وقتل ، واسمه عبدالرحمن ابن محمد بن عبدالملك بن الناصر .. ووزر ابن حزم أيضاً للمستظهر عبدالرحمن بن هشام الناصري مدة خلافته سبعة وأربعين يوماً فقط عام ٤١٤هـ، ووزَرَ للمعتدِّ بالله هشام بن محمد عام ٤١٨هـ ، وقد قال عنهم : «وأما جماعة خلفاء بني مروان رحمهم الله (ولا سيما ولدُ الناصر) منهم فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة لا يختلف في ذلك منهم مختلف ، وقد رأيناهم ورأينا من رآهم من لَدُن دولة الناصر إلى الآن فما منهم إلا أشقر ، نُزَّاعاً إلى أمهاتهم ، حتى قد صار ذلك فيهم خلقةً حاشا سليمان الظافر رحمه الله ؛ فإني رأيته أسود اللمَّة واللحية .. وأما الناصر والحكم المستنصر رضي الله عنهما فحدَّثني الوزير أبي رحمه الله وغيره أنهما كانا

(١) مختصر طوق الحمامة بتحقيق الشيخ عبدالحق التركماني، طبع دار ابن حزم ببيروت ص٣٣٨.

أشقرين أشهلين .. وكذلك هشام المؤيَّد ، ومحمد المهدي ، وعبدالرحمن المرتضى رحمهم الله ؛ فإني قد رأيتُهم مراراً ، ودخلت عليهم ، فرأيتُهم شُقراً شُهلاً .. وهكذا أولادهم وإخوتهم وجميع أقاربهم ؛ فلا أدري أذلك استحسان مركَّبٌ في جميعهم ، أم لرواية كانت عند أسلافهم في ذلك فجَرَوْا عليها ؟ .. وهذا ظاهرٌ شعر عبدالملك بن مروان بن عبدالرحمن بن مروان بن أمير المؤمنين الناصر وهو المعروف بالطليق ، وكان أشعر أهل الأندلس في زمانهم وأكثر تغزله بالشُّقر ، وقد رأيته وجالسته»[1].. وقال أبو محمد رحمه الله تعالى خلال استشهاده بأبيات من قصيدته الرائية :

فلا تيأسي يا نفس على زماننا ... يعودُ بوجهٍ مقبل غير مُزْوَرِّ

كما صرف الرحمن مُلك أُمَيَّةٍ ... إليهم ولوذي بالتجمُّل والصبر

وفي هذه القصيدة أمدحُ أبا بكر هشام بن محمد أخا أمير المؤمنين عبدالرحمن المرتضى رحمه الله[2].

قال أبوعبدالرحمن : فتلخَّص الأمر في أن ولايته الوزارة كانت وعمره ثلاث وعشرون سنة ، وآخر وزارته كان عمره أربعاً وثلاثين سنة .

وثالثها : أنه ذكر أن أبا محمد كان وزيراً وهو في السادسة والعشرين ، وأن مربيه كان معه ، وأنه لا يعرف ما يعرفه العوام من أحكام الصلاة ؟!.. وأن قراءة أبي محمد الفقه واسترشاده إلى طلب العلم كان حسبما رواه ياقوت سنة ٤٠٩هـ ، وعمر أبي محمد ست وعشرون سنة .

قال أبو عبد الرحمن : هذا خطأ ؛ لأن أبا محمد قرأ الحديث والفقه على المشايخ سنة ٣٩٩هـ ، ومن مشايخه الذين يروي عنهم بإكثار ابن الجسور وابن وجه

(١) رسائل ابن حزم ١/١٣٠-١٣١ .

(٢) رسائل ابن حزم ١/١٣٠-١٣١ .

الجنة ، وكلاهما مات في سنتي ٤٠١ - ٤٠٢هـ، وقد قال أبو محمد عن ابن الجسور: «أول شيخ سمعت منه قبل الأربع مئة»[١].

(١) **جذوة المقتبس** ص١٠٧ ، وفي **سير أعلام النبلاء** ١٨/١٨٥ : وسمع في سنة ٤٠٠هـ .. وقال في **العبر** ٢/٣٠٦ : «وأول سماعه سنة ٣٩٩هـ» .

قال أبوعبدالرحمن: هذا على المشايخ، وقبل ذلك قال عن صباه في مختصر طوق الحمامة ص٢٢٧ : «ولقد شاهدت النساء وعلمتُ من أسرارهن ما لا يكادُ يعلمه غيري ؛ لأني رُبِّيتُ في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حدِّ الشباب، وحين تبقَّل وجهي .. وهنَّ علمنني القرآن ، وروينني كثيراً من الأشعار ، ودرَّبنني في الخط ، ولم يكن وَكْدِي وإعمال ذهني مذ أول فهمي - وأنا في سن الطفولة جداً - إلا تَعَرُّفَ أسبابهنَّ، والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك .. وأنا لا أنسَى شيئاً مما أراه منهن ، وأصلُ ذلك غيرةٌ شديدة طُبعتُ عليها، وسوءُ ظن في جهتهن فُطرتُ به ، فأشرفت من أسبابهن على غير قليل».

قال أبوعبدالرحمن : هذه نشأة علمية بلا ريب ؛ فعنهنَّ في طفولته تعلَّم القرآن ، وروى الأشعار ، وقال الشعر قبل أن يبلغ الحلم .. قال في مختصر طوق الحمامة ص١٦٥ : «وفي المذهب الذي عليه الناس أقول من قصيدة قلتها قبل بلوغ الحلم أولها :

دليل الأسى نارٌ على القلب تلفح ودمعٌ على الخدين يهمي ويسفحُ
إذا كتم المشغوف سرَّ ضلوعه فإن دموعَ العين تبدي وتفضح
إذا ما جفون العين سالت شؤونها ففي القلب داءٌ للغرام مُبرِّح

وقال أبومحمد ابن حزم في مختصر طوق الحمامة ص٣٧٥ : «حدثنا الهمداني في مسجد القمري بالجانب الغربي من قرطبة سنة ٤٠١هـ» .. وما كان تلميذاً عادياً ، بل كان ابن وزير معه مؤدِّبه ومعلِّمُه .. قال في مختصر طوق الحمامة ص٣٥٢-٣٥٣ : «وكان السبب فيما ذكرته أني كنتُ وقت تأجُّج نار الصبا، وشِرَّةِ الحداثة ، وتمكُّن غرارةِ الفتوة : مقصوراً ، محظراً عليَّ بين رقباء ورقائب: فلمَّا ملكتُ نفسي ، وعقلت : صحبتُ أبا علي الحسين بن علي الفاسي في مجلس أبي القاسم عبدالرحمن بن أبي يزيد الأزدي شيخنا وأستاذي رضي الله عنه .. وكان أبو علي المذكور عاقلاً عاملاً عالماً ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح في الزهد في الدنيا والاجتهاد للآخرة ، وأحسبه كان حصوراً ؛ لأنه لم تكن له امرأةٌ قط ، وما رأيتُ مثله جملةً علماً وعملاً ديناً وورعاً ؛ فنفعني الله به كثيراً، وعلمتُ موقعَ الإساءة ، وقبح المعاصي.. ومات أبوعلي رحمه الله في طريق الحج» .. وقال في مختصر طوق الحمامة ص٢٦٤-٢٦٥ : «وأذكر في مثل هذا أني كنت مجتازاً في بعض الأيام بقرطبة من مقبرة باب عامر في لمَّةٍ من

الطلاب وأصحاب الحديث (ونحن نريد مجلس الشيخ أبي القاسم عبدالرحمن بن أبي يزيد المصري بالرصافة أستاذي رضي الله عنه) ومعنا أبوبكر عبدالرحمن بن سليمان البلوي (من أهل سبتة ، وكان شاعراً مفلقاً) وهو ينشد لنفسه في صفة متجنٍّ معهود أبياتاً له ، منها :

سريع إلى ظهر الطريق وإنه إلى نقض أسباب المودة أسرع

يطـول علينـا أن نرقّـع ودَّه إذا كـان في ترقيعـه يتقطّـع

فوافق إنشادُ البيت الأول من هذين البيتين خُطورَ أبي علي الحسين بين علي الفاسي رحمه الله (وهو يؤمُّ أيضاً مجلس ابن أبي يزيد) ؛ فسمعه فتبسم رحمه الله نحونا ، وطوانا ماشياً وهو يقول : بل إلى عقد المودة إن شاء الله .. هذا على جِدِّ أبي علي رحمه الله وفضله وتقرُّبه [يعني إلى ربه سبحانه بقُرُبات الطاعات] وبراءته ونسكه وزهده وعلمه ؛ فقلت في ذلك :

دع عنك نقض مودتي متعمداً واعقد حبال وصالنـا يا ظالـمُ

فلترجعـن أردته أو لـم تُـــردْ كرهـاً لما قـال الفقيـه العالـمُ»

وقد تأدَّب على والده المتوفى سنة ٤٠٢هـ .. قال أبو عبدالله الحميدي تلميذ ابن حزم رحمهما الله تعالى في جذوة المقتبس ص٤٤ : «سمعت أبا محمد علي ابن الوزير أبي عمر أحمد بن سعيد بن حزم يقول : سمعت أبا عبدالله محمد بن إسحاق بن عبيد الله بن إدريس بن خالد يقول للوزير أبي رحمه الله على سبيل الوعظ في بعض مناجاته إياه : احرص على أن لا تعمل شيئاً إلا بنية ؛ فإنك تُؤْجَرُ في جميع أعمالك .. إذا أكلت فانوِ بذلك التقوِّي لطاعة الله ، وكذلك في نومك، وتفرجك ، وسائر أعمالك ؛ فإنك ترى ذلك في ميزان حسناتك .. قال لي أبومحمد : وما زلتُ منذ سمعت ذلك منتفعاً به ، كما أني انتفعت بما رويت عن الخليل رحمه الله من قوله : ينبغي للمرء أن يستشعر في أحواله كلها أن يكون عند الله عز وجل من أرفع طبقته ، وأن يكون عند الناس من أوسط أهل طبقته ، وعند نفسه من أقلهم ، وأدناهم ، فبهذا يصل إلى اكتساب الفضائل» .. وقال الحميدي في جذوة المقتبس ص١٢٦ : «أنشدني أبومحمد علي بن أحمد قال : أنشدني الوزير أبي في بعض وصاياه :

إن شئت أن تحيا غنياً فلا تكن على حالة إلا رضيتَ بدونها»

وقال الحميدي عن أبي العلاء صاعد بن الحسن الربعي وعن المنصور ابن أبي عامر في جذوة المقتبس ص٢٤٠-٢٤١ : «ومما أُلِّف له : كتاب الفصوص على نحو كتاب النوادر لأبي علي القالي ، وكتاباً آخر على مثال كتاب الخزرجي أبي السري سهل بن أبي غالب سماه (كتاب الهجفجف بن عَدَقان بن يثربي مع الختوت بنت مخرمة بن أنيف) ، وكتاباً آخر في معناه سماه

.....

(كتاب الجواس ابن قعطل المذحجي مع ابنة عمة عفراء) .. قال لي أبومحمد علي بن أحمد : وهو كتاب مليح جداً ، وكان المنصور أبوعامر كثير الشغف بكتاب الجوَّاس حتى رتَّب له من يخرجه أمامه في كل ليلة ، ويقال إن أبا العلاء لم يحضر بعد موت المنصور مجلس أُنْسٍ لأحد ممن ولي الأمور بعده من ولده ، وادَّعى وجعاً لحقه في ساقه لم يزل يتوكأ به على عصا ، ويعتذر به في التخلُّف عن الحضور والخدمة إلى أن ذهبت دولتهم ، وفي ذلك يقول في قصيدته المشهورة في المظفر أبي مروان عبدالملك بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر (وهو الذي ولي بعد أبيه) وأولها :

إليك حدوتُ ناجية الرِّكاب ... محمَّلة أمانيَ كالهضاب
وبعت ملوك أهل الشرق طُرًا ... بواحدها وسيدها اللباب

وفيها :

إلى الله الشكيةُ من شكاة ... رمت ساقي وجلَّ بها مصابي
وأقصتني عن الملك المرجَّى ... وكنت أرمُّ حالي باقترابي

ومما استُحسن له قوله فيها :

حسبت المنعمين على البرايا ... فألفيت اسمه صدر الحساب
وما قدمته إلا كأني ... أقدِّم تالياً أم الكتاب

وأخبرني أبو محمد علي ابن الوزير أبي عمر أحمد بن سعيد بن حزم : أنه مع أبا العلاء صاعد بن الحسن ينشد هذه القصيدة بين يدي المظفر في يوم عيد الفطر سنة ست وتسعين وثلاثمائة .. قال أبومحمد : وهو أول يوم وصلت فيه إلى حضرة المظفر ، ولما رآني أبو العلاء أستحسنها وأُصغي إليها : كتبها لي بخطه وأنفذها إليَّ» .

قال أبوعبدالرحمن : أهذه نشأة من لم يُحسن الصلاة إلا وهو ابن ستٍّ وعشرين سنة ؟! .. وبعد هذا فقد ألَّف طوق الحمامة عام ٤١٨هـ على أكثر تقدير وعمره أربع وثلاثون سنة ، وهو يومها محدِّث فقيه من أئمة المسلمين ؛ أفيكون بهذا المستوى العلمي عام ٤١٨هـ وهو لا يحسن الصلاة عام ٤١٠هـ ؟! .. وقد قال أبو محمد في مختصر طوق الحمامة ص٢٠٢ ذاكراً شهادة أهل عصره له بالعلم :

يلومُ رجال فيك لم يعرفوا الهوى ... وسَيَّان عندي فيك لاح وساكتُ
يقولون جانبتَ التصاون جملةً ... وأنت عليم بالشريعة قانتُ
فقلت لهم هذا الرياء بعينه ... صُراحاً وزِيٌّ للمرائين ماقِتُ

متى جاء تحريم الهوى عن محمد ... وهل منْعُهُ في محكم الذكر ثابتُ
إذا لم أواقع محرماً أتقي به ... مجيئيَ يوم البعث والوجهُ باهتُ
فلستُ أبالي في الهوى قولَ لائم ... سواءٌ لعمري جاهرٌ أو مُخافتُ
وهل يلزمُ الإنسانَ إلا اختيارُه ... وهل بخبايا اللفظ يُؤخذ صامتُ

ومن وصايا والده ، ومن ملازمته مؤدبه - بعد عصمة الله وتوفيقه - أمسك عن الحرمات ؛ فقال خلال كلامه عن تدقيقه في أمور الحب في مختصر طوق الحمامة ص٣٥٠-٣٥١ : «ولقد اطلعتُ من سر مُعتقد الرجال والنساء في هذا على أمر عظيم ، وأصل ذلك أني لم أُحسن قط بأحدٍ ظناً في هذا الشأن ، مع غيرةٍ شديدة رُكِّبتْ فيَّ .. وحدثنا أبوعمر أحمد بن محمد بن أحمد قال : حدثنا محمد بن عيسى بن رفاعة قال : حدثنا علي بن عبدالعزيز قال: حدثنا أبوعبيد القاسم بن سلاَّم: عن شيوخه : أن رسول الله ﷺ قال : «الغيرة من الإيمان»؛ فلم أزل باحثاً عن أخبارهنَّ ، كاشفاً عن أسرارهنَّ .. وكنَّ قد أنسنَ مني بكتمان ؛ فكنَّ يُطلعنني على غوامض أمورهنَّ .. ولولا أن أكون منبِّهاً على عوات يُستعاذُ بالله منها لأوردت من تنبههنَّ في الشر ، ومكرهنَّ فيه عجائب تُذهلُ الألبَّاء .. وإني لأعرف هذا و أُتقنه، ومع هذا يعلم الله وكفى بالله عليماً : أني بريء الساحة ، سليم الأديم ، صحيح البَشَرة ، نقيُّ الحُجزة.. وإني أقسم بالله أجلَّ الإقسام أني ما حللتُ مئزري على فرج حرام قط ، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا مذ عقلت إلى يومي هذا .. والله المحمود على ذلك، والمشكور فيما مضى ، والمستعصَم فيما بقي» .. وقال في مختصر طوق الحمامة ص٤٠٤-٤٠٧ معتذراً عن التأليف في الحب : وأنا أستغفر الله تعالى مما يكتبه الملَكَان ، ويُحصيه الرقيبان من هذا وشبهه .. استغفارَ من يعلم أن كلامه من عمله ، ولكنه إن لم يكن من اللغو الذي لا يؤاخَذُ به المرء فهو إن شاء الله من اللَّمَم المعفو ، وإلا فليس من السيئات والفواحش التي يُتوقَّع عليها العذاب .. وعلى كل حالٍ فليس من الكبائر التي ورد النص فيها .. وأنا أعلم أنه سينكر عليَّ بعض المتعصبين عليَّ تأليفي لمثل هذا ، ويقول : خالف طريقته ، وتجافى عن جهته .. وما أحلُّ لأحد أن يظنَّ بي غير ما قصدته .. قال الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [سورة الحجرات /١٢] .. وحدثني أحمد بن محمد بن الجسور قال : حدثنا ابن أبي دليم قال: حدثنا ابن وضاح : عن يحيى بن يحيى: عن مالك بن أنس : عن أبي الزناد : عن الأعرج: عن أبي هريرة [رضي الله عنهم] : عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إياكم والظن فإنه أكذب الكذب».. وبه إلى مالك : عن سعيد بن أبي سعيد المقْبري : عن أبي شُريح

ورابعها : أن ابن العربي يذكر أن الفِصَل ستة أجزاء قرأ منها على أبي محمد خمسة وفاته السادس .. ومن هذا النص استدل بعض المتأخرين على أن كتاب الفصل المطبوع حالياً ينقص منه الجزء السادس .

قال أبوعبدالرحمن : الفِصل خمسة أجزاء فقط والدليل على ذلك أن أبا محمد بن حزم قال : «وقد أحكمنا هذا غاية الإحكام والحمد لله رب العالمين في باب أفردناه لهذا المعنى في آخر كتابنا الموسوم بالفصل ترجمته باب الكلام على من قال بتكافؤ الأدلة»[1] ، وتكافؤ الأدلة من المباحث الأخيرة في الجزء الخامس ؛ فدلَّ ذلك على أن الفصل خمسة فقط.

الكعبي : عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» .. وحدثني صاحبي أبوبكر محمد بن إسحاق قال : حدثني عبدالله بن يوسف قال : حدثنا يحيى بن عائذ قال : حدثنا أبوعديٍّ عبدالعزيز بن علي بن محمد بن إسحاق بن الفرج الإمام بمصر قال : حدثنا أبو علي الحسن بن قاسم بن دحيم المصري قال : حدثنا محمد بن زكريا الغلابي قال : حدثنا العباس قال : حدثنا أبوبكر : عن قتادة : عن سعيد بن المسيب أنه قال : وضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه للناس ثماني عشرة كلمة من الحكمة منها : احْمِل أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك على ما يغلبك عليه ، ولا تظنَّ بكلمة خرجت من في امرئٍ مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً .. فهذا أعزَّك الله أدبُ الله ، وأدبُ رسوله ﷺ ، وأدبُ أمير المؤمنين .. وبالجملة فإني لا أقول بالمراءاة ، ولا أنسُكُ نسكاً أعجمياً .. ومن أدَّى الفرائض المأمور بها ، واجتنب المحارم المنهي عنها ، ولم ينسَ الفضل فيما بينه وبين الناس فقد وقع عليه اسمُ الإحسان ، ودعْني مما سوى ذلك ، وحسبي الله» .. والعجيب أن أبا محمد رحمه الله روى أثر عمر رضي الله عنه وفيه أبوبكر الهذلي المصري وقد حكم عليه في المحلى بأنه كذاب مشهور .

قال أبوعبدالرحمن : وأما استحضار نية العبادة ـ كزيادة أجرة الحمَّال احتساباً لا تمظهراً ـ في كل عمل صالح فقد طبقته بدقة ؛ لكثرة ما قرأته عن نية العبادة ، ولأن كثرة ما عندي من اللمَّم أحوجني إلى ذلك ، وسأروض نفسي إن شاء الله على إحضار نية العبادة في كل شيْ.

(١) **الإحكام لأصول الأحكام** ١٦/١ .

وخامسها : أن دراسة أبي محمد كانت في المسجد (مسجد الجامع ، ومسجد القمري ، ومسجد بالرصافة) وكل ذلك منذ سنة ٣٩٩هـ قبل أن يبلغ ستّاً وعشرين بعشر سنوات ؛ فكيف لا يعرف ما يعرفه العامي من أحكام الصلاة وهو ابن وزير يدرس في المساجد على مشايخ الفقه والحديث ؟!.

وسادسها : أن هذه القصة التي رواها ياقوت توحي بأن صلاته على الجنازة وهو ابن ست وعشرين هي أول صلاة يحضرها على الجنائز ؟!.. وهذا غير صحيح؛ فقد أخبرنا أبو محمد رحمه الله أنه صلى على الجنائز قبل ذلك بأحد عشر عاماً (أي وعمره خمس عشرة سنة) عندما حكى صلاته على المؤيد هشام[1] .

وسابعها: يُفهم من حديث ابن حزم المزعوم لابن العربي في هذا الخبر أن ابن حزم لا يجيز الركعتين بعد العصر، وإنما أراد أن يصليهما في طفولته جهلاً بذلك .

قال أبوعبدالرحمن : مذهب أبي محمد استحسان صلاة ركعتين بعد العصر ، وقد نصر هذا المذهب بأبلغ ما عنده من احتجاج[2] .

وثامنها : يُفهم من هذا الخبر المكذوب أن ابن حزم بعدما كبر يرى أن تحية المسجد غير واجبة !.

(١) قال أبومحمد في الفِصَل ٧٦/١ - دار الكتب العلمية : «وقد شاهدنا نحن مثل ذلك ؛ وذلك أننا أُندرنا للجبل ؛ لحضور دفن المؤيد هشام بن الحكم المستنصر ؛ فرأيت أنا وغيري نعشاً فيه شخص مكفَّن ، وقد شاهد غسله رجلان شيخان جليلان حكيمان من حكام المسلمين ومن عدول القضاة في بيتٍ ، وخارجُ البيتِ أبي رحمه الله وجماعة عظماء البلد ، ثم صلينا في ألوف من الناس عليه ، ثم لم يلبث إلا شهوراً نحو السبعة حتى ظهر حيّاً ، وبُويع بعد ذلك بالخلافة ، ودخلت عليه أنا و غيري وجلست بين يديه ورأيته وبقي ثلاثة أعوام غير شهرين وأيام» . وانظر طبعة دار الجيل ١٢٤/١-١٢٥ .. قال أبوعبدالرحمن : تولى هشام ١٢/٧/ ٤٠٠هـ ، وقد صلى عليه خلال ذلك العام ؛ فعمر أبي محمد حينئذٍ ١٥ عاماً.

(٢) انظر المحلى ٢٦٤/٢ - ٢٧٥ و ٢/٣ ط م المنيرية .

قال أبوعبدالرحمن : وهذه طامة أخرى ؛ لأن تحية المسجد عند ابن حزم في آخر مؤلفاته سنة مؤكدة وليست واجبة[١] ؛ فاتضح أن الخبر منتفٍ بيقين بقواطع تاريخية .. كما أن هذا الخبر المكذوب يعتمد على دعوى الرواية عن ابن حزم ، بينما الثابت من كلام ابن حزم في كتبه ينفيه .. وبعد هذا كله فابن حزم كثير الخصوم ، وقد كذبوا عليه في حياته كما بيَّن ذلك في ردِّه على ابن العتقي وابن البارية ، وكذبوا عليه بعد مماته كما في كتابات ابن زرقون وغيره ؛ فهذه كلها في آن واحد موانع تمنع من ثبوت ما في هذه الوِجادة ، ومقتضِياتٌ تقتضي أن الوجادة صادرة عن هوى ؛ فتبقى الوجادة غير وثيقة ، وتبقى على أحد ثلاثة احتمالات : فإما أن يكون ابن طرخان سمع كلاماً من ابن العربي لم يُدوِّنه إلا بعد سنين فَوَهِمَ ، وإما أن يكون ياقوت قرأ خط رجل غير ثقة وكان يحسبه خط ابن طرخان ، وإما أن يكون لا يعرف خط ابن طرخان ؛ فَغُشَّ بخط غيره .. ولست أزعم بأن النص محرف من ست عشرة إلى ست وعشرين - كما قال الشيخ أبو زهرة رحمه الله تعالى - ؛ لأن دعوى التحريف لا ترفع جميع بلايا النص .. ومن نماذج الكذب على أبي محمد ابن حزم رحمه الله تعالى - وهو تاريخ غير محايد - ما ذكره علي بن محمد بن علي الرعيني [من أبناء القرن السابع الهجري] .. قال : «أخبرني [يعني أبا الحسين محمد بن محمد بن زرقون] قراءة عليه وسماعاً من لفظه قال : حدثني الحافظ أبو بكر بن الجد قال: حدثني أبوالحسن بن الأخضر قال: حدثني أبوالحجاج الأعلم: أنه لقي ابن حزم ؛ فقال له مكان التحية : يا أستاذ : هل تجمع العربُ فاعلاً على فُعلان ؟ .. قال : فقلت له : نعم .. وأخذت أورد له أمثلة على جهة البيان ؛ فطفق يركض دابته غير مصيخ للجواب وهو يقول : أرحتني من سبحان ، أرحتني من

(١) انظر المحلى ٢/٢٣١ .

سبحان !.. قلت: وقد ذكر نحو هذا عنه القاضي أبو الأصبغ بن سهل في كتابه الذي سماه بالتنبيه على شذوذ ابن حزم، وقال : إن الأديب أبا بكر محمد بن أغلب المَرْسي حدثه : أن الأعلم ذكر ذلك في نحو ما تقدم إلا أنه قال : إن ابن حزم قال له عندما أجابه عن سؤاله : فما يمنع أن يكون سبحان جمع سابح ؟ .. قال الأعلم : فعجبت من جهله»[١].. وذكر عن شيخه أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر بن عصفور العبدري أنه قرأ على المحدِّث العباس أحمد بن سلمة الأنصاري كتاب حجة الوداع لابن حزم[٢]، وذكر أنه قرأ على أبي الحسين محمد بن القاضي أبي عبدالله محمد بن سعيد بن زرقون كثيراً من تأليفه الكبير الذي سماه (المعلى في الرد على المحلى والمجلى)[٣] .

قال أبوعبدالرحمن: ابن زرقون ولد سنة ٥٣٩هـ وتوفي سنة ٦٢١هـ .. ذكر ابن الأبار أنه متعصب للمذهب المالكي، وشيخه في هذه الرواية أبوبكر محمد بن عبدالله بن يحيى بن فرج بن الجد سمع أبا الحسن بن الأخضر وبحث عليه سيبويه وأخذ عنه اللغات .. توفي سنة ٦٨٥هـ، وأبوالحسن بن الأخضر هو علي بن عبدالرحمن بن مهدي التنوخي من أهل إشبيلية ، توفي سنة ٥١٤هـ، وأبو الحجاج الأعلم هو يوسف بن عيسى بن سليمان النحوي .. ولد سنة ٤١٠هـ وتوفي سنة ٤٧٨هـ بإشبيلية، وقد كان رحل إلى قرطبة سنة ٤٣٣هـ وأقام بها مدة .. ولعل هذا الخبر بهذا الإسناد مما ساقه ابن زرقون في كتابه المعلى الذي رد به على المحلى لأبي محمد ابن حزم، وأبو الأصبغ هو عيسى بن سهل بن عبدالله الأسدي .. ولد سنة ٤١٣هـ، وتوفي سنة ٤٨٦هـ ، وقد ذكر هذا الخبر في كتابه التنبيه على شذوذ ابن حزم[٤].

(١) **الإيراد** ص٣٣-٣٤ .

(٢) **الإيراد** ص١٧٢ .

(٣) **الإيراد** ص٣٢ .

(٤) انظر في الكلام عنه مقدمتي **لرسالة التلخيص** ص٥٤-٥٨ .

قال أبوعبدالرحمن: عندي يقين أن هذا الخبر منتحل مكذوب لعدد من الأمور:

أولها : أن مُورِدي الخبر خصمان لابن حزم متعصبان عليه ، وأبوالأصبغ الذي كفَّر ابن حزم وفسَّقه لا آمن أن يكذب عليه .

وثانيها : ربما صح الخبر عن الأعلم إلا أنه نحوي أديب ، وهؤلاء غير رجال الشريعة .. ربما ملَّحوا مجالسهم ببعض الكذبات تباهياً بالعلم وافتخاراً بلقاء ابن حزم وتجهيله ، وعلى أي حال فليس الأدباء كحال العلماء في الثقة .

وثالثها : أن الخبر متناقض يكذِّب بعضه بعضاً ؛ فرواية أبي الأصبغ أن ابن حزم قال للأعلم عندما أجابه عن سؤاله : فما يمنع أن يكون سبحان جمع سابح ؟ .. وفي رواية ابن زرقون : فطفق يركض دابته غير مصيخ للجواب وهو يقول : أرحتني من سبحان ! .. فأي هاتين الكذبتين نصدق ؟! .

ورابعها : في سياق هذا الخبر روح العداء والتعصب ؛ لأنه ذكر فيه أن ابن حزم قال للأعلم مكان التحية : يا أستاذ ! .

قال أبوعبدالرحمن: محال أن يترك إمام المسلمين أبومحمد ابن حزم تحية الإسلام، ومستبعد أن يسأل الأعلمَ وهو صبيٌّ ويلقبه بالأستاذ ، ومحال أن يجهل أبومحمد بداءة التصريف وهو إمام في العربية قبل أن يكون إماماً في الفقه ؛ ومستبعد أن يصح هذا الخبر فلا يتناقله الناس الذين يفرحون بكل طريفة ظريفة عن ابن حزم ويكون هذا الخبر وقفاً على خصْمَي ابن حزم ابن زرقون وابن سهل المتأخِّرين عنه زماناً، ثم مع هذا لا تشتهر القصة في ترجمة الأعلم بكتب الأعلام .. ومع هذه البلايا في هذا الخبر فإن ابن الجد كما قال ابن الأبار: يحدث من حفظه بأشياء غريبة[1].

(١) التكملة ٢/٥٤٢ .

وقال ابن خليل العبدري رحمه الله عن خصوم ابن حزم غير المحايدين : «والإمام أبومحمد قد تكلم فيه أقوام من الجهال، ونسبوه إلى أشياء هم أحق بها، والله حسيبهم ومسائلهم عليها، وقد أربى بعض المتأخرين في سوء الثناء[1] عليه حتى نسب إلى معتقده سوءاً[2] هو بما نسبه إلى أبي محمد رحمة الله عليه أليق.. وربما كذبوا عليه في أشياء نسبوها إليه إفكاً وزوراً[3]، ثم إنهم لعنوه عليها إفكاً منهم وغروراً وبهتاناً ومحض تقوُّلٍ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .. وقد أثنى عليه جِلَّة[4] من أهل الفضل والخير والدين من علماء المشرق والمغرب، وليس هذا موضع البسط لأقوالهم ، وبالجملة فإنه إذا تأمل العاقل النبيه السالم الفطرة من التعصب والهوى حال الإمام أبي محمد رحمه الله، وتأمل أقوال الناس فيه : وجدهم على قسمين : إما جاهل مفرط الجهل يسبه ولا يدري ما كان عليه من الشدة في الدين، والمحافظة على اتباع السنن، والحضِّ على ذلك ؛ فهو يسبه ولا يدري ما يلزمه في دينه من ثلب امرئ مسلم من أكابر أهل العلم قد لحق بربه .. وإما رجل رقيق الحياء ، قليل الدين .. ينال منه تعصباً لأهل مذهبه أو غير ذلك ؛ لينال من دنياه ما أحب .. قد باع[5] آخرته بدنيا قد ضمنت له ما

(١) قال أبوعبدالرحمن : الثناء يكون بالخير والشر .. ومن هؤلاء المتأخرين الذين يشملهم ما ذكره ابن خليل: القاضي ابن العربي، وعيسى بن سهل ...، وهؤلاء يَردُّون بوجهة نظر أشعرية.

(٢) قال أبوعبدالرحمن : نعم له أخطاء في المعتقد عن اجتهاد لم يُوفَّق فيه .

(٣) كما في رده على العتقي، وكما في رسالته الرد على الهاتف من بعد، وكما في الأكاذيب التي نقلها ابن زرقون.

(٤) قال في تاج العروس ١١٣/١٤: «قوم جِلَّة بالكسر : عظماء سادة خيار ذوو أخطار.. قال الصاغاني: جمع جليل مثل صبيٍّ وصِبْيَة» .

(٥) في الأصل: «أباع» ، والفعل متعدٍّ بلا همزة.. وهذه العبارات من كلام أبي محمد نفسه رحمه الله في بعض كتبه.

أصابه منها لم يكن ليخطئه .. قد رضي على ما عند الله تعالى بعاجل زخرف هذا المتاع الفاني .. باع[١] لذلك آخرته بدنيا قد ضمنت له ما أصابه منها لم يكن ليخطئه، وما أخطأه منها لم يكن ليصيبه .. قد اعتاض عما عند الله تعالى بأن يقال عنه : إنه ناصر لمذهب كذا، مُصمِّم عليه.. وهو يدري أن ما ناله من أبي محمد رحمة الله عليه لا يجوز عقلاً ولا شرعاً إن كان مصدِّقاً بالشرع و﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[٢]»[٣].

وموجز القول : أن كلام الخصوم في الأغلب غير محايد ، ولا سيما مع وجود روح التعصب .. ومظنَّة العداوة مراعاةٌ في عدم قبول الشهادة .

(١) في الأصل «أباع» .

(٢) من مقدمة **المورد الأحلى** .

(٣) وانظر أيضاً مقدمتي لرسالة التلخيص ص٦٧-٧٤ في مناقشتي لنص الشيخ عليش رحمه الله تعالى.

(٤ - ١٠) التاريخ والمسؤولية الفكرية:

أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري*

* محمد بن عمر ابن عبدالرحمن العقيل.
- ماجستير من المعهد العالي للقضاء في التفسير، وله مشاركات كثيرة في التأليف والمقالة والإذاعة.
- عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- رئيس الشؤون الثقافية بجمعية الثقافة والفنون، ورئيس تحرير مجلة التوباد، وأول رئيس للنادي الأدبي بالرياض.
- رئيس تحرير مجلة الدرعية وصاحب امتيازها.

قال أبو عبدالرحمن: من نماذج المسؤولية التاريخية من أجل الخِبْرة الصادقة بمن تَقْرأُ تاريخه هذا المسلك للإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى في تقريره مصدر العلم عند علي رضي الله عنه، وموضع السر من العلم الزائد لدى آل البيت - رضي الله على من تمسك بمنهج نبيهم منهم، ولم يخرج عنه ببدعة أو ردة .. قال الإمام ابن تيمية: «في الصحيحين عن إبراهيم التيمي: عن أبيه - وهذا أصح إسناد على وجه الأرض -: عن علي [رضي الله عنهم] قال: ما عندنا شيئ إلا كتاب الله، وهذه الصحيفة عن النبي ﷺ: المدينة حرام ما بين عير إلى ثور .. وفي رواية لمسلم: خطبنا علي بن أبي طالب [رضي الله عنه] .. ثم قال علي رضي الله عنه: من زعم أن عندنا كتاباً نقرؤه إلا كتاب الله، وما في هذه الصحيفة - قال: وصحيفته معلقة في قراب سيفه -: فقد كذب .. فيها أسنان الإبل وأشياء من الجراحات، وفيها قال النبي ﷺ: المدينة حرام.. الحديث.. وأما الكذب والأسرار التي يدَّعونها عن جعفر الصادق [رحمه الله] فمن أكبر الأشياء كذباً؛ حتى يقال: ما كُذب على أحد ما كذب على جعفر رضي الله عنه، ومن هذه الأمور المضافة كتاب

الجفر الذي يدَّعون أنه كتب فيه الحوادث .. والجفر ولد الماعز يزعمون أنه كتب ذلك في جلده»[١] .. قال الشيخ محمد أبوزهرة : «ولكن الذين يريدون أن يُعْلُوه عن مرتبة الإنسان [يعني جعفر الصادق رضي الله عنه ورحمه] العادي الموهوب الذي يجدُّ ويجتهد ، ويطلب ويبحث، ويصل بمقدمات علمية مسلَّم بها : لم يكتفوا بذلك ، بل أضافوا إلى علومه الكثيرة علماً آخر لم يُؤْتَهُ بكسب ودراسة ، ولكنه أوتيه بوصية أودعها النبي ﷺ.. أودع النبي ﷺ هذه الوصية عليّاً [رضي الله عنه] ، وأودعها علي من جاء بعده من الأوصياء الاثني عشر إماماً بعد إمام .. ويُعدُّ الإمام الصادق سادسهم بعد علي والسبطين ، وزين العابدين ، والباقر [رحمهم الله] .. وسمَّوا ذلك النوع من العلم الجفر ، والجفر في الأصل ولد الشاة إذا عظُم واستكرش ، ثم أُطلق على إهاب الشاة .. وقد قالوا : إن الجفر صار يطلق على نوع من العلم لا يكون بالتلقِّي والدراسة ، ولكن يكون من عند الله تعالى بوصية من النبي [ﷺ] أو نحو ذلك .. ولقد قال بعض كُتَّاب الإمامية المحدثين : (وعلم الجفر هو علم الحروف الذي تُعرف به الحوادث إلى انقراض العالم) .. وجاء عن الصادق : أن عندهم الجفر ، وفسَّره بأنه وعاء من أَدَم فيه علم النبيين وعلم العلماء الذين مضوا من بني إسرائيل ، وجاء عنهم الشيء الكثير[٢] عن الجفر ، وإن لم نعرف هذا العلم والتصرف فيه [فإننا] نعرف من هاتيك الأحاديث التي ذكرت عن الجفر أنه من مصادرهم، وأن هذا العلم الشريف منحه الله إياه»[٣] ، وقد جاء في الكافي للكليني (وهو أحد المصادر الأربعة للآثار عند الاثني عشرية): (إن الجفر فيه توراة موسى

(١) **مجموع فتاوى ابن تيمية** ٤/٧٨-٧٩ .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : لا معهود لـ (ال) ؛ فالصواب : شيئ كثير .. وفحول العلماء يستعملون هذا الخطأ بكثرة.

(٣) **عن الصادق** للسيد حسين المظفري ١/١٠٩[أبوزهرة] .

وإنجيل عيسى وعلوم الأنبياء والأوصياء ومن مضى من علماء بني إسرائيل ، وعلم الحلال والحرام ، وعلم ما كان وما يكون) ، ثم يذكر أن الجفر قسمان: أحدهما كتب على إهاب ماعز ، والآخر كتب على إهاب كبش .. ثم يقول الكليني ما نصه: (قال الصادق : نظرت في صبيحة هذا اليوم في كتاب الجفر الذي خص الله به محمداً [ﷺ] والأئمة من بعده، وتأملت فيه مولد غائبنا وغيبته - أي الإمام الثاني عشر المغيَّب بسر من رأى - وإبطاءه، وطول عمره ، وبلوى المؤمنين في ذلك الزمان ، وتولُّدَ الشكوك في قلوبهم، وارتدادَ أكثرهم عن دينهم ، وخَلْعَهم ربقةَ الإسلام من أعناقهم التي قال تقدس ذكره: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ [سورة الإسراء/١٣] يعني الولاية[1] .. قلنا: يا ابن رسول الله: كَرِّمنا وشرِّفنا ببعض ما أنت تعرفه من علم ذلك.. قال : إن الله جعل في القائم سنناً من سنن أنبيائه: سنة من نوح طول العمر ، وسنة من إبراهيم خفاء الأولاد واعتزال الناس، وسنة من موسى الخوف والغيبة ، وسنة من عيسى اختلاف الناس فيه ، وسنة من أيوب الفرج بعد الشدة ، وسنة من محمد الخروج بالسيف يهتدي بهداه ويسير بسيرته» على أنبياء الله ورسله أفضل الصلاة والسلام.. وننتهي من هذا إلى أن الجفر كتاب أُودعه جعفر الصادق يرجع إليه ؛ فيعلم الغيب مما كان وما يكون .. سواء أكان بالحروف أم كان بالأخبار.. ويظهر أنه هو الكتاب الذي يُعطاه كل إمام من الأئمة .. أعطاه علي من جاء بعده من الأوصياء عندهم وهو الحسن، ثم أعطاه هذا الحسين .. وهكذا حتى جاء إلى جعفر الصادق ، ثم سرى على من بعده) .. وجاء في الكافي للكليني ما نصه: (إن الله أنزل على نبيه كتاباً فقال جبريل: يا محمد: هذه وصيتك إلى النجباء.. فقال : ومن

(١) قال أبو عبدالرحمن : إنما هو ما قدمه من خير أو شرٍّ يتيامَن به أو يتشاءم ، وهذا في يوم القيامة ؛ بدلالة السياق العربي المبين .. وتأويلهم هذا في يوم لا تقبله لغة العرب ، ولا المعقول؛ لأن الخطاب عن كل إنسان .

النجباء يا جبريل ؟.. فقال: علي وولده .. وكان على الكتاب خواتم من ذهب ؛ فدفعه رسول الله ﷺ إلى علي وأمره أن يفك خاتماً منه ؛ فيعمل بما فيه ، ثم دفعه إلى الحسن ففك منه خاتماً وعمل بما فيه، ثم دفعه إلى الحسين ففك خاتماً منه؛ فوجد فيه: (أَنْ أَخرج بقومك إلى الشهادة؛ فلا شهادة لهم إلا معك، واشتر نفسك لله) .. ثم دفعه إلى علي بن الحسين ففك خاتماً ؛ فوجد فيه : (أن أطرق واصمت والزم منزلك ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) ؛ ففعل ، ثم دفعه إلى ابنه محمد بن علي ؛ ففك خاتماً فوجد فيه: (حدِّث الناس وأفتهم ، وانشر علوم أهل بيتك ، وصدق آباءك الصالحين ولا تخافن إلا الله ، ولا سبيل لأحد عليك) ، ثم دفعه إلى جعفر الصادق فوجد فيه: (حدِّث الناس، وأفتهم ، وانشر علوم أهل بيتك ، وصدق آباءك ؛ فإنك في حرزٍ وأمان)[1] .. الوشيعة في عقائد الشيعة لموسى جاب الله الخانجي .. هذا بعض ما قيل في الجفر ، ومن الحق علينا في هذا المقام أن نذكر ثلاث ملاحظات :

الأولى: أننا ننفي نسبة الكلام في الجفر إلى الإمام الصادق [رحمه الله]؛ لأنه يتعلق بعلم الغيب، والله سبحانه قد انفرد وحده بعلم الغيب، ولا يُعْطَى [منه] إلا بعض الأنبياء؛ ليثبتوا به رسالتهم.. وقد حكى الأفضل: قصَّ الله تعالى عن نبيه ﷺ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [سورة الأعراف /١٨٨]، وما أعطاه الله تعالى من بعض المعلومات الغيبية إلا ليكون معجزة يتحدى بها كما قال تعالى : ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة

(١) قال أبو عبدالرحمن : بأي حق تُقبل هذه الدعوى على عبدالله ورسوله محمد ﷺ ، وعلى الروح الأمين جبريل عليه السلام بدون توثيق تاريخي تقوم به الحجة ؟.

الروم/١-٥] .. وإنَّ نَفْيَ الجفر عن الإمام جعفر لا ينقص من قدره العلمي . ولا من شرفه النَّسبِيّ؛ فهو الإمام الحجة في علم الدين الذي تلقى عنه كبار الفقهاء كأبي حنيفة ومالك؛ وكبار المحدِّثين كسفيان الثوري، وغيره من أئمة الحديث[1] .. وإن المنهاج الذي نسير عليه وأشرنا إليه من قبل أننا نردُّ كل أمر يخالف المعقول، ويخرج بالإمام عن معنى البشر وإن لم يبلغ مرتبة الرسالة.

الثانية : أن هذه الروايات الخاصة بالجفر أكثر طرقها عن الكليني، وسنبين أننا لا نستطيع قبول روايات الكليني؛ لأنه هو الذي ادَّعى أن الإمام جعفر الصادق قد قال: (إن في القرآن نقصاً وزيادة)، وقد كذَّبه في هذا كبار العلماء من الاثني عشرية كالمرتضى والطوسي وغيرهما ، ورووا عن أبي عبدالله الصادق نقيض ما ادَّعاه الكليني .

الثالثة : أن كبار علماء الجعفرية (الذين يكتبون الآن عن الإمام الصادق، ويتكلمون في الجفر) يذكرونه، ولا يتعرضون لتأييده، بل إنهم يذكرونه بعبارات تفيد عن بعضهم إنكاره؛ فقد جاء في كتاب جعفر الصادق للأستاذ أحمد مغنية ص٢٠٨ ما نصه: (أما الجفر وحقيقته على كثرة الأخبار التي وردت به، والأحاديث التي حدثت عنه: لا يزال أمره غامضاً، وإن العلماء الأقدمين لم يقفوا فيه على حقيقة يطمئنون إليها) ، وإن ذلك الكلام حق؛ إذ أنه لم يُبيَّن بياناً كاملاً معناه، وهذا سبب رابع من أسباب إنكاره، والله سبحانه وتعالى هو علام الغيوب.

(١) قال أبو عبدالرحمن : هو رضي الله عنه سَلَفِيٌّ قُحٌّ من أهل السنة والجماعة ، متبرِّئٌ من الأكاذيب عليه.

وعندي أن الذين أدخلوا فكرة الجفر على الإمامية الاثني عشرية هم الخطابية أتباع أبي الخطاب .. قال المقريزي : (زعمت الخطابية بأجمعها أن جعفر بن محمد الصادق قد أودعهم جلداً يقال له جفر فيه كل ما يحتاجونه من علم الغيب وتفسير القرآن)[١]، وإن لأبي الخطاب هذا أكاذيب عن الإمام ، وقد ظهرت في حياته رضي الله عنه فأنكرها وكذبه ، رحمه الله وطيب ذكراه العطرة»[٢] .

وقال عبدالحليم الجندي - وكل كتاب الجندي سردٌ عارٍ من التحقيق - : «أما كتاب الجفر المنسوب إلى الإمام الصادق ؛ فيقول عنه ابن خلدون : (واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هارون بن سعيد البجلي - وهو رأس الزيدية - كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق، وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص .. وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لمثلهم ، وكان مكتوباً عند جعفر في جلد ثور صغير؛ فرواه عنه هارون البجلي وكتبه ، وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتب عليه ؛ لأن الجفر في اللغة هو الصغير ، وصار هذا الاسم عَلَماً على الكتاب عندهم ، وكان فيه تفسير القرآن وما في باطنه من غرائب المعاني مرويَّة عن جعفر الصادق .. وهذا الكتاب لم تتصل روايته ، ولا عُرف عينه ، وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل .. ولو صح السند إلى جعفر الصادق لكان نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه ؛ فهم أهل الكرامات[٣] ، وقد صح عنه أنه كان يحذِّر بعض قرابته

(١) **الخطط المقريزية** ٤٥٢/٢ [أبوزهرة] .

(٢) **الإمام الصادق** لمحمد أبوزهرة ، ص٢٧-٣٠ .

(٣) قال أبو عبدالرحمن: هذا دعوى على دين الله، ولا علاقة لها بالكرامة المعروفةِ حدودها، والمعروفِ حال مَن نُسبتْ إليه إذا صح الخبر عن وقوعها، وأنه سلفي عابد تصح في حقه الكرامة.

بوقائع تكون لهم فتصبح كما يقول[1] .. والروايات متضافرة على أن الجفر غير (الجامعة) ، والبعض يقول : إن الجفر من مؤلفات عليٍّ [رضي الله عنه] أملاه عليه النبي [ﷺ] ، وهو جفران : الأبيض وهو وعاء من أَدَمٍ فيه علوم الأنبياء والصالحين والذين مضوا من علماء بني إسرائيل، والأحمر فيه علم الحوادث والحروب .. ويقول ابن قتيبة عن الجفر في أدب الكاتب : «إن الإمام الصادق كتبه ، وإن فيه كل ما يحتاجونه إلى يوم القيامة[2] .. وإلى هذا الجفر واحتوائه على [الأفصح بدون (على)] كل شيئ يشير أبوالعلاء المعري في شعره :

لقد عجبوا لآل البيت لمَّا أتاهم علمهم في جلد جفر

فمرآة المنجم وهي صغرى تريه كل عامرة وقفر[3]

وربما نسبوا من أجل ذلك إلى الإمام علوم كشف الغيب أو النِّجامة [يعني التنجيم]»[4].

(١) قال أبو عبدالرحمن : هذه دعوى عارية ، وعليه البرهان ؛ فأي غيب أُعلم به جعفر رحمه الله فوقع ؟

(٢) قال أبو عبدالرحمن : لم أجد ابن قتيبة رحمه الله ذكر الجبر فيما لدي من نسخ كتابه أدب الكاتب ، ولا فيما لدي من كتبه .

(٣) قال أبو عبدالرحمن : الشعر في لزوميات أبي العلاء المعري ٥٥٣/١ هكذا :

«رأيتُ الحَتفَ طوَّف كلَّ أُفقٍ وجابَ الأرضَ من مصرٍ وكَفرِ

وكيفَ يُثمِّرُ الإنسانُ وَفراً ولم يخرُجْ من الدّنيا بوَفرِ

ولم أرَ مثلَ أيّامي سِراعاً خيولَ فوارسٍ وركابَ سَفْرِ

لقد عَجِبوا لأهل البَيتِ لَمَّا أتاهُمْ علمُهُم في مَسْكِ جَفرِ

ومرآةُ المنجِّم وهي صُغرَى أرَتْهُ كلّ عامرَةٍ وقَفرِ»

(٤) **الإمام جعفر الصادق** للجندي ص٨٥ .. قال أبوعبدالرحمن: هو الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وانظر ترجمته ومصادرها في تهذيب الكمال ٧٤/٥-٧٩، وسير أعلام النبلاء ٢٥٥/٦-٢٧٠، وتهذيب التهذيب ٩٢/٢-٩٤ .. وانظر أيضاً عن الجفر كتاب (كتب حذر منها العلماء) للشيخ مشهور بن حسن ١٠٨/١-١٢٤.

ومن ميزة علماء المسلمين في التوثيق أن كتب المؤلفين متوارثة عندهم بالسند في فنٍّ لا أظنه عند غيرهم من الأمم ، وهو الفهارس والبرامج والأثبات ، وعلامات النسخ عندهم آية في التوثيق بما تثبته من النَّسْخ والناسخ وتاريخه ، والتملِّك والسماع والمقابلة، وقد كشفوا عن كثير من الكتب نُسبت إلى غير أهلها ترويجاً وهي لا تليق بعلمهم المنشور وواقع حالهم المشهور كالإمامة والسياسة المنسوب كذباً إلى ابن قتيبة رحمه الله.. ثم قال الإمام ابن تيمية: «وكذلك كتاب البطاقة[١] الذي يدعيه ابن الحِلِّي ونحوه من المغاربة، ومثل كتاب الجدول في الهلال[٢] والهفت[٣] عن جعفر وكثير من تفسير القرآن وغيره .. ومثل كتاب رسائل إخوان الصفا[٤] الذي صنفه جماعة في دولة بني بويه ببغداد، وكانوا من الصابئة المتفلسفة المتحنِّفة.. جمعوا بزعمهم بين دين الصابئة المبدِّلين وبين الحنيفية ، وأتوا بكلام المتفلسفة وبأشياء من الشريعة ، وفيه من الكفر والجهل شيئ كثير .. ومع هذا فإن طائفة من الناس من بعض أكابر قضاة النواحي يزعم أنه من كلام جعفر الصادق ، وهذا قول زنديق وتشنيع جاهل .. ومثل ما يذكره بعض العامة من ملاحم ابن غنضب، ويزعمون أنه كان معلِّماً للحسن والحسين [رضي الله عنهما][٥].. وهذا شيئ لم يكن في الوجود باتفاق أهل العلم .. وملاحم ابن غنضب إنما صنفها بعض الجهال في دولة نورالدين ونحوها ، وهو شعر فاسد يدل على أن ناظمه جاهل..

(١) انظر إحالات الشيخ مشهور في كتابه (**كتب حذَّر منها العلماء**) ٢٦٩/٢ .

(٢) افتعله عبدالله بن معاوية ، وانظر المصدر السابق ٢٦٩/٢ .

(٣) انظر المصدر السابق ٢٧٠/٢-٢٧١ .

(٤) انظر المصدر السابق ٦٧/٢-٧٦ .

(٥) قال أبو عبدالرحمن : لم أجده عند غير الإمام ابن تيمية ، وقد نقل الخبر عنه الشيخ مشهور ١٦٨/٢-١٧١ .

وكذلك عامة هذه الملاحم المروية بالنظم ونحوها عامتها من الأكاذيب ، وقد أُحدث في زماننا من القضاة والمشايخ غير واحدة منها ، وقد قرَّرتُ بعض هؤلاء على ذلك بعد أن ادَّعى قدمها ، وقلت له : (بل أنت صنَّفتها ، ولبَّستها على بعض ملوك المسلمين لما كان المسلمون محاصري عكة) ، وكذلك غيره من القضاة وغيرهم لبَّسوا على غير هذا المسلك ، وباب الكذب في الحوادث الكونية أكثر منه في الأمور الدينية ؛ لأن تشوُّف الذين يُغلِّبون الدنيا على الدين إلى ذلك أكثر[1] ، وإن كان لأهل الدين إلى ذلك تشوُّف ، لكن تشوُّفهم إلى الدين أقوى ، وأولئك ليس لهم من الفرقان بين الحق والباطل من النور ما لأهل الدين ؛ فلهذا كثر الكذَّابون في ذلك ، ونفق منه شيئ كثير ، وأُكلت به أموال عظيمة بالباطل ، وقُتلت به نفوس كثيرة من المتشوِّفة إلى الملك ونحوها[2] ؛ ولهذا يُنوِّعون طرق الكذب في ذلك ، ويعتمدون الكذب فيه : تارة بالإحالة على الحركات والأشكال الجسمانية الإلهية من حركات الأفلاك والكواكب والشهب والرعود والبروق والرياح وغير ذلك ، وتارة بما يُحْدثونه هم من الحركات والأشكال كالضرب بالرمل والحصا والشعير والقرعة باليد ونحو ذلك مما هو من جنس الاستقسام بالأزلام ؛ فإنهم يطلبون علم الحوادث بما يفعلونه من هذا الاستقسام بها سواء كانت قداحاً أو حصى أو غير ذلك مما ذكره أهل العلم بالتفسير ؛ فكل ما يحدثه الإنسان بحركة من تغيير شيئ من الأجسام ليستخرج به علم ما يستقبله فهو من هذا الجنس بخلاف الفأل الشرعي»[3].

قال أبو عبدالرحمن: وإذا كان التاريخُ سَرْدَ أحداثٍ فإن توثيق الأحداث بالتوسُّع

(١) قال أبو عبدالرحمن : يالها من ملاحظة نفيسة !؟.

(٢) قال أبو عبدالرحمن : إن كانت العبارة محرَّرة فمرجع ضمير (ونحوها) إلى (المتشوِّفة) .

(٣) **مجموع فتاوى الإمام ابن تيمية** ٤/٨٩-٨٠ .

في المصادر ، والمقارنة ، والتوثيق للناقل ، وعدم العلم بالمخالف .. وإن كان ترجمة فما نعلم شخصية لا يعرف عنها إلا الثناء أو الذم بإطلاق إلا من كان منهم فوق مستوى النقد كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، بل كل عَلَمٍ من مَلِك أو غيره ذكرت محاسنه وعيوبه .. قال الإمام أبومحمد ابن حزم رحمه الله تعالى : «ومن الملوك من يشتدُّ عليهم وصف أسلافهم بالجور والظلم والقبائح، و يحمي هذا الباب بالسيف فما دونه ؛ فما انتفعوا بذلك في كتمان الحق .. قد نُقل ذلك كله وعُرف كما نُقلت فضائل من تغضب ملوك الزمان من مدحه كفضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه .. ما قَدِر قط ملوك بني مروان على سترها وطيِّها»[1].

وفي الشعر يستبين البصير الكذب من مقارنة النص بحال مَن نُسب إليه الشعر من جهة الأسلوب والثقافة كهذه الأبيات المنسوبة لعنترة بن شداد.

يا طائر البان قد هيجت أشجاني ... وزدتني طرباً يا طائر البان
إن كنت تندُب إلفاً قد فُجِعتَ به ... فقد شجاك الذي بالبين أشجاني
زدني من النوح وأسعدني على حَزَني ... حتى ترى عجباً من فيض أجفاني
وَقِّف لتنظر مابي لا تَكن عجلاً ... واحذر لنفسك من أنفاس نيراني
وطرْ لعلّك في أرض الحجاز ترى ... رَكباً على عالج أو دون نَعْمان
يسري بجارية تنهلُّ أدمعها ... شوقاً إلى وطن ناء وجيران
ناشدتك الله يا طير الحمام إذا ... رأيت يوماً حمول القوم فانعاني
وقل: طريحاً تركناه وقد فَنِيَتْ ... دُمُوعُه وهو يبكي بالدم القاني»[2]

قال أبو عبدالرحمن : هذا نَفَس شاعر متأخر لا تقبله روح الشعر الجاهلي،

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٩٢/١ .
(٢) المنتقى في شعر الغزل ، ص٥٠.

وهذا بيِّن بالمقارنة بشعر شعراء الجاهلية وبشعر عنترة نفسه الموثّق ، ثم كيف يقول عنترة في عهد السليقة : (فانعاني) ؟ .. وقد أبديتُ لشيخي حمد الجاسر رحمه الله شكي في قصيدة الأخنس بن شهاب التغلبي عن تفرق القبائل، بل جزمت بأنها منحولة ؛ فلم يستبعد ذلك ، وهذا نصها :

١ - لابْنَةِ حِطَّانَ بن عوفٍ مَنَازِلٌ ... كما رَقَّشَ العُنْوَان في الرَّقِ كَاتِبُ

٢ - ظللتُ بها أُعْرَى وأشعر سُخْنَةً ... كما اعتاد محموماً بخيبر صالِبُ

٣ - تظلُّ بها رُبْدُ النَّعَامِ كأنَّها ... إمَاءٌ تُزَجَّى بالعشيّ حواطِبُ

٤ - خليلاي هوجاءُ النَّجَاء شِمِلَّةٌ ... وذو شُطَب لا يجتَويهِ المُصَاحِبُ

٥ - وقد عِشْتُ دهراً والغُوَاةُ صحابتي ... أُولئك خُلصاني الذين أُصاحِبُ

٦ - رفيقاً لمن أعيا وقُلِّدَ حَبْلَهُ ... وحاذَرَ جَرَّاهُ الصَّديقُ الأقاربُ

٧ - فَأَدَّيتُ عَنِّي ما استعرْتُ من الصِّبَى ... وللمالِ عندي اليومَ رَاعٍ وكاسِبُ

٨ - لكل أناس من مَعَدٍّ عِمَارَةٌ ... عَرُوضٌ إليها يَلْجَؤُون وجانِبُ

٩ - لُكَيْزٌ لها البحران والسَّيفُ كله ... وإن يأتها بأسٌ من الهند كاربُ

١٠- تطايرُ عن أعجاز حُوشٍ كأنها ... جهامٌ أراقَ ماءَهُ فهو آئِبُ

١١- وبكرٌ لها ظهرُ العراقِ وإن تشأ ... يَحُلْ دُونها من اليمامة حاجِبُ

١٢- وصارت تميم بين قُفٍّ ورَمْلَةٍ ... لها من حِبَالٍ مُنتأى ومذاهِبُ

١٣- وكلبٌ لها خبتٌ فرملة عالجٍ ... إلى الحَرَّةِ الرَّجلاء حيث تُحَارِبُ

١٤- وغسّانُ حيٌّ عِزُّهُم في سِوَاهُمُ ... يُجالِدُ عنهم مِقْنَبٌ وكتائِبُ

١٥- وبهراءُ حيٌّ قد عَلِمْنا مكانَهُمْ ... لهم شَرَكٌ حول الرُّصافَةِ لاحِبُ

١٦- وغارت إيادٌ في السَّوَادِ وَدُونَها ... بَرَازِيقُ عُجمٌ تبتغي من تُضارِبُ

١٧- وَلخْمٌ ملوكُ الناس يُجْبَى إليهمُ ... إذا قال منهم قائلٌ فهو واجِبُ

١٨- ونحنُ أناسٌ لا حِجَازَ بأرضنا ... مع الغيث ما نُلْقَى ومن هو غالِبُ

١٩- تَرَى رائدات الخيل حول بيوتنا ... كمعزى الحِجَاز أعجزتْهَا الزَّرَائِبُ

٢٠- فيُغْبَقْنَ أحلاباً ويُصبحن مثلها ... فهن من التَّعْدَاء قُبٌّ شَوَازِبُ

٢١- فَوَارِسُها من تَغْلِبَ ابنة وائلٍ ... حُمَاةٌ كُمَاةٌ ليس فيها أشائِبُ

٢٢- هُمُ يضربون الْكَبْشَ يبرُق بَيْضُهُ ... على وجهِهِ من الدِّماء سَبَائِبُ

٢٣- بجَأْوَاءَ ينفي وِردُهَا سرعانها ... كأن وضيحَ البيض فيها الكواكِبُ

٢٤- وإن قَصُرَت أسيافُنا كان وصلُهَا ... خُطانا إلى القوم الذين نُضَارِب

٢٥- فَلِلَّهِ قَوْمٌ مثل قومي سُوَقة ... إذا اجتمعت عند الملوك العصائِبُ

٢٦- أرى كل قومٍ ينظرون إليهم ... وتقصُرُ عَمَّا يفعلُونَ الذوائِبُ

٢٧- أرى كل قومٍ قارَبُوا قيد فحلِهِمْ ... ونحن خلعنا قيدهُ فهو سارِبُ[1]

وحجتي في ذلك أن العرب تعرف منازلها وتجاورها في جاهليتها ، ولا تحيط بما قبل ذلك من تفرق القبائل الذي يدَّعيه ابن الكلبي في كتابه المفقود ، ولو كان هذا معروفاً لما كانت هذه القصيدة يتيمة في موضوعها ، وهي عن التفرق من النظم العادي .. وراويها المفضل الضبي ثقة بلا ريب ، ولكنه لم يروها بالسند.

وكما ظهر هذا الوعي الذي أسلفته من كلام الإمام ابن تيمية رحمه تعالى عن الكتب المكذوبة - وهو قليل من كثير - ؛ فهم لميزتهم في التوثيق والإسناد والخبرية أدرى من مُدِّعي إعادة تدوين التاريخ بأحوال المصادر ؛ فهم يأخذون سيرة هارون الرشيد بما لها وما عليها بالتوثيق التاريخي لا من محاضرات الأدباء، ولا من

(١) انظر: **المفضليات** بشرح الأنباري ص٤١٠-٤٢١ / مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة عام ١٤٢٩هـ، ودار صادر ببيروت عام ١٤٢٤هـ بتحقيق الدكتور محمد نبيل طريفي ٥٠٧/١ -٥٢١.

كتب الشعوبيين الحاقدين كأسطورة ألف ليلة وليلة التي جعلها بعض المعاصرين لا تخلو من الدلالة على شيئ: لأن الأسطورة غير مجردة للكذب والخيال .. وهذا صحيح في كثير من الأساطير التي لم تصدر عن أحقاد كأحقاد الشعوبية ، وهارون ملك من الملوك يتسلى بأمثال أبي نواس، ولكن جوانب الديانة والسياسة والجدّ محفوظة له في الكتب الموثّقة.. وقد يشهد تاريخنا البعيد على بطلان شيئ من التاريخ الحديث كدعوى أول مكتشف لأمريكا من الغرب ، وما هو إلا عربي مسلم من المورسكيين الذين أخفوا إسلامهم بعد محنة محاكم التفتيش، ولعلّي أُعرِّج على هذا إن شاء الله.

ومما هو معدود جزئياً من إعادة تدوين التاريخ ما هو مكابرة للواقع والإجماع والمآثر كدعوى بعض البدعيين أن صلاح الدين الأيوبي رحمه الله شرٌّ على البلاد والعباد ، وأنه متحالف مع النصارى !!؟ .. وكتاب آخر يزعم أن الأندلس فتحت سِلْماً لا حرباً !؟ .. وكل هذا سأُعرِّجُ عليه إن شاء الله .

قال أبو عبدالرحمن : وما دامت إعادة كتابة التاريخ تعني تمحيصه من أصول أمتنا الفكرية ، والاستعانة بعد الله بكل ما صح أنه موصل للحقيقة من مستحدثات العلم الحديث : فمن الضروري حينئذٍ الإلمام بتصوُّر عام عن مفهوم التاريخ من خلال عناصره ، وهي : صحة الحدث ثبوتاً ، وصحة مدلوله تفسيراً وتعليلاً ، وصحة الحُكْم فيه تقويماً ، وبناء الرؤية التاريخية لما يستقبل .. وستكون مباحثي في التأصيل التأريخي إن شاء الله في ظل هذه العناصر بمنطق تحليلي ، ومن ظواهر المنطق التحليلي الكشْفُ عن الحق وإن قل في جهة يكثر فيها الباطل ؛ لأنه لا شيئ يتمحض للشر أو نقيضه مهما استقرأت ما في البحر من درة وما في البر من بعرة إلا دين الله المعصوم ؛ فإنه محض الحق والخير والجمال ، وهذه الظاهرة مقتضى

قول الله تعالى : ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [سورة المائدة /٨] ، ومن العدل أن تعترف بما عندهم من حق وإن كان قليلاً ؛ ولهذا فقد يأخذ المسلم السلفي من الجاحظ المعتزلي في كتابه العثمانية كلاماً صحيحاً نفيساً في الرد على القادحين في خيار الصحابة وبيان واقع عثمان رضي الله عنهم ، وقد يأخذ من كتب الغزَّالي أو الرازي كلاماً نفيساً صحيحاً في العقائد أو التفسير أو حجج العقول؛ ومن هذا المنطلق يدفع المسلم كلام أهل الباطل بالصحيح من كلامهم؛ فمثلاً صاحب المنهج الإسلامي لا يؤمن بالمنهج المثالي والمنهج الحضاري ، ولكنه يدفع أحدهما بالآخر ؛ لأن كل واحد منهما لا يتمحض للبطلان والخطإ ، بل فيه جانب أو جوانب من الحق ؛ ولهذا مثلاً يؤمن بحجة صاحب المنهج الحضاري توينبي في رده على المنهج المثالي عندما زعم أن حركات التاريخ ذات سُلَّمٍ تصاعدي .. قال توينبي: «لقد ارتقى علمنا فبلغ درجة لم يسبق أن بلغها ، ومع ذلك فقد انتكسنا في نفس الوقت في الحروب الطبقية والقومية والعنصرية إلى أعماق قد لا يكون سمع بها أحد قبلنا ، وهذه المشاعر السيئة نجد لها متنفَّساً في أعماق القسوة الغليظة المصمَّمة علمياً ، وإنك لتجد في هذه الأيام الحالتين الفكريتين المتباينتين ومقياسي السلوك المختلفين يعيشان جنباً إلى جنب .. لا في العالم نفسه وحسب ، ولكن في بعض الأحيان في البلاد نفسها ، و[1] حتى في النفس الواحدة .. إن لدينا قوة في الإنتاج لم نصل إليها من قبل ، وهي توجد إلى جانب نقصٍ وعدم كفاية لم نُعانِ منهما من قبل»[2] وهكذا فالسلف لا يؤمنون بمذاهب المخالفين لمنهجهم من أهل

(١) قال أبوعبدالرحمن : الواو هنا فضول .

(٢) **التفسير الإسلامي للتاريخ** للدكتور عماد الدين خليل، ص٣٤ .. قال أبو عبدالرحمن : سأستعرض إن شاء الله شيئاً من فلسفة توينبي في التاريخ من كتابه .

القبلة، ولكنهم يستحمدون ما برز من جانب خير في أي مذهب باطل .. وهذا منهج توسع فيه الإمام ابن حزم والإمام ابن تيمية رحمهما الله في الموازنة بين أقوال الناس في كثير من كتبهما ؛ فابن تيمية مثلاً عندما يذكر ضلالات المعتزلة يذكر ما يُستحمد من أقوالهم في الرد على شانئي الصحابة رضوان الله على الصحابة .. وموازنتهما بين أقوال الناس موازنة، تحتفي بدرجة دُنُوِّها من الحق أو بُعْدها عنه .. وشرط المقارنة صحة الموازنة ومعادلة الأحداث ؛ ذلك أن المسلم ميزان عدل يعي طبيعة النقص في البشر ، ويعادل بين أحوال تاريخ العَلَم - بفتح العين واللام - من بُناة التاريخ ، وهذا ما سلكه الإمامان أبو محمد ابن حزم وابن تيمية في التمييز والمعادلة بين هفوات الأعلام التاريخيين وإن كانت كثيرة وبين المحاسن العامة للعَلَم ، والمحاسن العامة للدولة التي يكون العَلَم أحد بناتها ؛ فقد أثنى ابن حزم رحمهما الله تعالى على الدولة الأُموية بالأندلس، وأنها من أنبل دول الإسلام، وأجمعها لخلال الخير، وأكثرها نصراً على أهل الشرك .. ثم بعد ذلك يفلي عيوب بعض ملوك بني أمية على هذا النحو : قال عن الحكم الربضي : «وهو الذي أوقع بأهل الربض، وقتل الفقهاء والخيار، وخصى عدداً من ذوي الجمال من أهل قرطبة، وهدم الديار والمساجد ، وولَّى ذلك رجلاً نصرانياً كان أثيراً عنده اسمه ربيع» ، ثم ذكر الأمير عبدالله بن محمد ؛ فقال : «كان قتَّالاً تهون عليه الدماء مع ما كان يُظهره من عفته ؛ فإنه احتال على أخيه المنذر لما قصده بالعسكر ، وواطأ عليه حجَّاماً سمَّ المَبْضع الذي فصده به ، ثم قتل ولديه معاً بالسيف واحداً بعد واحد ، وقتل أخاه القاسم ثالثهم .. إلى من قتل من غيره» ، وقال في سليمان بن الحكم المتلقِّب بالمستعين : «وهو الذي كان شؤم الأندلس وشؤم قومه ، وهو الذي سلَّط جنده من البرابرة فأخلوا مدينة الزهراء وجمهور قرطبة حاشا المدينة وطرفاً من الجانب

الشرقي ، وأخلوا ما حوالي قرطبة من القرى والمنازل والمدن ، وأفنوا أهلها بالقتل والسبي وهو لا يُنكر ولا يغيِّر عليهم شيئاً»[١].

ومن يستخدم كلمة التناقض استخداماً شعبياً دون وعي بمفهومها الفكري يظن أن هذا تناقض ؛ ولهذا لاحظ أستاذنا الدكتور إحسان عباس وضع كل نص موضعه من سياق الإمام ابن حزم .. قال عن منهج ابن حزم : «وذلك أنه لا ينظر إلى منجزات الدولة الواحدة نظرته إلى بعض الأفراد من ذوي المسؤولية فيها ، وإنما يرى هذه المنجزات من منظار المميزات الكبرى .. وتلك تتجلى فيما أصاب الجماعة من خير ؛ فقد يعيب هو الوليد بن عبدالملك ويصفه بالطغيان ، أو يعيب مروان بن الحكم ويتهمه بأنه شق عصا الجماعة ، ويقول فيه : «مروان ما نعلم له جرحة قبل خروجه على أمير المؤمنين عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما» ..ولكنه يبرز الخصائص الإيجابية التي تتميز بها الدولة الأموية بكلمات دقيقة دالة ، ولا يضع سيئات الأفراد على كاهل الدولة كلها»[٢] .

ومما يتنازعه مبدأ الحياد إلا عن الدين المعصوم وضرورات الفكر ، ومبدأُ الموازنة: التبصُّر تاريخياً في مدلول المصطلحات قبل استعارتها؛ فلا نُستفزُّ في قراءة تاريخنا بألقاب المستكبرين في الأرض من أعداء ملَّتِنا عندما يصفون مجدنا التاريخي بالرجعية ثم يدَّعون إنصافنا إذا تعرضوا لركام الثقافات الذي أصاب فكر أمتنا بأكثر من لوثة .. بل لابد أن نعرف محل التأخُّر والتقدُّم ؛ فتوجد معاييرنا حينئذ ؛ وذلك بأن لا نجعل لألقاب المستكبرين المعادِية المضلِّلة مفهوماً فكرياً لذاته ، بل ما يوصف بالرجعية قد يكون خيراً ؛ لأنه رجوع إلى الشرع المعصوم ، وقد يكون

(١) **رسائل ابن حزم** ٢١/٢ (مقدمة المحقق الأستاذ الدكتور إحسان عباس عن **الجمهرة** لابن حزم، **وأعمال الأعمال**) .. ولعل ما في أعمال الأعلام عن كتاب ابن حزم المفقود عن أوقات الخلفاء.

(٢) **رسائل ابن حزم** ٢٢/٢ (مقدمة المحقق عن نقط العروس والمحلى) .

شراً لأنه رجوع عن الحق .. وقد جلَّى هذا المعلم الشيخ محمد قطب بقوله : «فلو عثرنا اليوم على إنسان ما زال يعيش في الكهف : يصطاد الحيوان لطعامه بالرمح أو السهم ، ويطهوه في موقد بدائي ، أو لا يعرف كيف يطهوه ، ويلبس قطعة من الجلد حول منطقته: فسنقول على الفور : إنه متأخِّر .. ذلك أنه قد تخلف في جانب من الإنجاز المطلوب منه في مجال الخلافة وعمارة الأرض ؛ واستطاع أقرانه من البشر أن يقوموا به ، فأصبح هو متخلفاً عنهم لوجود نقص في جانب من كيانه جعلهُ يُقصِّر في اللحاق بأولئك الأقران .. ولكننا لو اكتشفنا من معايشنا لذلك الإنسان : أنه يعرف إلهه الحق ، ويعبده عبادة صادقة ، ويلتزم بالفضائل الإنسانية ؛ فلا يظلم ولا يعتدي ، ويعامل الناس باللطف والمودة ، وإذا عرض موجب للتعاون قام يتعاون معهم، ويبذل جهده لا يريد من الناس جزاءً ولا شكوراً ، ورأيناه لا يستأثر وحده بالطعام، بل يبحث عن إنسان محتاج فيشركه في طعامه ، ثم يقوم يشكر الله على أن مكَّنه من أداء خدمة لإنسان آخر : هل تظل نظرتنا إليه كما كانت عندما رأيناه للوهلة الأولى قبل أن نعرف أفكاره ومشاعره وطريقة سلوكه ، أم يتغيَّر الميزان ؟ .. وحين يتغير الميزان فهل نغضُّ الطرف تماماً عن النقص الذي لمسناه أول مرة ، أم نقول : إنه رجل فاضل كريم عاقل متزن نبيل المشاعر ، ولكنه يلزمه أن يغير ما هو فيه من التخلف ؛ ليصبح على مستوى العصر الذي يعيش فيه ؟! .. وهذا مثال جدلي مُتَخيَّل بطبيعة الحال ، مبالغ فيه من طرفيه للتوضيح ، ولكن القضية التي يعرضها قضية حقيقية تحتاج إلى حسم من كاتب التاريخ : أيهما الأثقل في الميزان : جانب القيم الثابتة ، أم جانب المظاهر المتغيرة مع التسليم بأن كلا منهما مطلوب ، وكلا منهما له وزنه في التقويم الأخير»[1].

(١) **حول التفسير الإسلامي للتاريخ**، ص٢٥٦-٢٥٧ ، وانظر أيضاً، ص٢٥٧-٢٦١ في ضرب مثال آخر من العصر الحاضر .

قال أبو عبدالرحمن : وأما ضلال المصطلحات فنجد التعبير عن الدولة العثمانية أيام الخلافة الإسلامية بالاستعمار التركي ، وهو تعبير يناسب القوميين والعلمانيين والغربيين الذين يعدُّون تقسيم العالم العربي بين الحلفاء قوامة أممٍ متمدينة بعد استعمار راكد بليد، والتعبير عن مجد تاريخنا الإسلامي الذهبي بتخلُّف العصور الوسطى يناسب الأوربي حيث كان تاريخه في العصور الوسطى تاريخاً بليداً .. وهكذا نغربل كل ما يأتي به من ليس من أهل قبلتنا إذا تحدَّث عن أمتنا مؤرخاً ؛ لأن المفكِّر المسلم قارئ لتاريخه بين أهواء المعادين من أهل الملل والنحل ؛ فمن أهل النِّحَل الموجَّهين من أهل ملَّتِهم المستشرقون ذوو العلم والمنهجية غير النزيهين في تصوير الواقع والحكم عليه .. ومواجهة المعادين لنا في النحلة إيانا بحقائق التاريخ مَظِنَّة لبراعة حيلهم في المغالطة : يُجسِّدون ما يتخذونه مطعناً تاريخياً ، ويُخفون أو يُلطِّفون المسوغات المشروعة لكل إجراء عادل اتُّخِذ مطعناً ؛ فمثلاً بروكلمان يقرر مهاجمة المسلمين لبني قريظة وهي واقعة صحيحة .. ثم يلطِّف واقع بني قريظة بقوله : «كان سلوكهم غامضاً»[1].

قال أبو عبدالرحمن : إن الغموض تصوير مائع ليس له من التأثير ما للإقرار بالحقيقة الناصعة ، وهي وضوح موقفهم من رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم من تأليب الأحزاب في حصار المدينة ، ونقضهم للعهود .. ومن أشرس ما رأيته من حيل المعادين في الملَّة والنحلة كتاب (الثابت والمتحول) للباطني أدونيس ؛ فعنده قدرة في إسقاط الحقائق التاريخية الكثيرة ، وتضخيم أكاذيب التاريخ القليلة ، والتكثُّرِ بالفروض والافتراءات ؛ حتى ينكشف تاريخٌ بغيض مُخْتَلَق ، ومثله كتاب (العرب ظاهرة صوتية) للقصيمي .. إلا أن فيه جوانب مضيئة في النقد الذاتي،

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ٦٢/١ .

ولكن روحه شعوبية لا دينية. والثابت والمتحول تزوير للأحداث، وتضليل للأفكار، وهو هجاء لتاريخ المسلمين ، وتعتيم على عزائمهم ، وبعث لتاريخ الطائفيين من الشقوق ، وتستُّرٌ على جرائمهم .. وعندما وصف هيجل المجتمع البرجوازي بأنه المملكة الحيوانية للعقل: قابل الخاسئ أدونيس هذه العبارة بقوله: (إن الدولة الأُموية ومجتمع المسلمين في عهدها المملكة الحيوانية للدين) ؛ ومعنى ذلك أن دين الأمة شَرعَهُ بنو أمية والمروِّجون لهم.. وقد اتخذوا هجاء بني أمية ذريعة لهدم الدين ودولته: تمهيداً للدفاع عن أهل البدع والأهواء - من جماعته الباطنيين وغيرهم - الذين كان صوتهم مبحوحاً بين مجتمع أهل القرآن في القرون الأولى الممدوحة[1].

قال أبو عبدالرحمن: لتمحيص التاريخ معالم كثيرة منها مَعْلَمان أقدِّمهما الآن:

أحدهما: تمس الحاجة إليه في الكلام عن السذاجة[2] - أو تعمُّد التضليل - من دعاة نسف تاريخنا باسم استئناف تدوينه مضخِّمين التزوير فيه ، جاحدين المعايير الدقيقة لدى علمائنا تأصيلاً وتطبيقاً ، محمِّلين المسلمين وزر ذلك ، والمعلم لهؤلاء ما انتبه إليه علماؤنا وسبروه من كيدٍ للمسلمين في معارفهم .

وثانيهما : تمس حاجتنا نحن إليه ، وهو العلم بخصوصيتنا في التوثيق - وقد أسلفتُ شيئاً من ذلك - وخصوصيتنا في الخيرية ، و من باب أولى خصوصية الصحابي ولا سيما من أخبر الله برضاه عنهم بخبر لا يدخله النسخ .

أما المَعْلَم الأول: فهو أن أمتنا (التي لا تعرف المجمَّعات السرية للكيد لأحد،

(١) انظر: **الثابت والمتحول** ، ص٨٢-٨٣ .. والآن تتبنى مجلة الناقد وفلول حوار وشعر هجاء بني أمية ممثلين لتاريخ المسلمين بمقياس غير مقياس أهل السنة والجماعة الذي يريد العزائم ويحكم بالقسط.

(٢) قال أبو عبدالرحمن : السذاجة في معناها العربي القديم تعني الفطرة ، وعدم التكلف ، ثم اكتسبت على مدى الأيام معنى رديئاً هو الغباء والسطحية .

وإنما أقوالها وأفعالها علنية) بُلِيَتْ بجمعيات تعمل في الخفاء للكيد لنا ، ومن ذلك تضليل معارفنا ، واليقين بوجود هذه الجمعيَّات السِّرِّيَّة لا يُشترط فيه العلم الكامل بكيفية عملها - وإن حصل فذلك خيرٌ كثير - ؛ وإنما المهم مواجهة النتائج، وأول تجمُّع سري مزَّق أمتنا جمعية ابن سبإ اليهودي ، ولا يقدر على إنكارها أو التشكيك فيها مَن كان سويّ العقل منصفاً ؛ لأنها ثابتة بأمتن طرق التواتر التي لا ينكرها إلا رقيع صفيق الوجه ، وعناصر التواتر بدأت بالنقل الصحيح إسناداً كما في تاريخ ابن عساكر مثلاً ؛ فبطل زعم المهرِّجين أن مدار الخبر على سيف بن عمر ، ثم استفاضةِ عناصر التواتر مؤيدة للنقل الصحيح ؛ وذلك من إجماع المؤرخين ، وإجماع أهل كتب العقائد ، ثم وُجدت أرضية العمل السري واقعاً ملموساً لا يُحدِّد رموزها إلا الرجوع إلى التواتر عن ابن سبإ ورفاقه من يهود نجران وما حوله لعنهم الله .. وإنما شكك بالادعاء الكاذب في وجود ابن سبإ ورفاقه أعداؤنا في الملة والنحلة ، ومَن تعاطف معهم من علمانيِّيْ العصر الحديث على منهج رفاقه من الكائدين لأمتنا ودينها ، أو من محبِّي التلميع ، أو من المأجورين ؛ لأنه لا سبيل لمكابرة الواقع إلا بتلك الطرق .. وأصل الإنكار والمكابرة جاء من أهل نحلة ضالة أرادوا حفظ ماء الوجه لما وجدوا مصادر نحلتهم بدأت بتخطيط ابن سبإ اليهودي ورفاقه، وممن كتب في هذه المكابرة السيد مرتضى العسكري[1] فألَّف مجلَّدين ضخمين بعنوان (عبدالله بن سبإ في أساطير أخرى) ؛ فبدأ بالإسقاط والكذب عندما ادَّعى أن المدار على سيف بن عمر، وتجاهل الأسانيد الصحيحة عن غير طريق سيف ، وأنكر استفاضة التواتر في كتب التاريخ والتراجم والعقائد .. ثم هذا الرجل من فئة تفردت بظاهرة غير حميدة ،

(١) ولد عام ١٣٣٢هـ وتوفي عام ١٤١٨هـ وهو أول إثنا عشري أنكر حقيقة ابن سبأ اليهودي مخالفاً بذلك علماء الشيعة الذين أوردوا ذكره في كتبهم كالكشي والقمي والنوبختي وغيرهم كثير [د. البقاعي].

وهي شح مصادرهم في التراجم ، وشح مصادرهم في الجرح والتعديل ، بل يكاد علم مصطلح الحديث غير موجود عندهم ، وليس في شرعتهم (الإسناد من الدين ، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء)، وليس من نحلتهم تفسير الشرع بلغة العرب التي نزل بها الشرع ؛ لتصفوَ لهم مصادره .. كما أن دأبهم مكابرة الواقع الحسي الذي هو كالشمس ؛ فهم غير قادرين - وبرهاني التحدِّي - أن يحضروا لنا جيلاً معروفاً حفظ للأمة دينها ، ومنحها الرقعة العربية والإسلامية ، ولا يستطيعون أن يحضروا أجيالاً أخرى غير التي تأست بالصحابةِ رضوان الله عليهم في المطالب المذكورة آنفاً، ولا يستطيعون أن يذكروا خلافات إسلامية وسلاطين إسلاميين حكموا بلاد العرب والمسلمين غير من يوصفون بأنهم سنِّيون ، وإنما وجدت دويلات تمضحلت ، وكان وجودها خِزْياً تاريخيّاً .

ومنهج هذا الكاتب استعراض أخبار ابن سبإ ورفاقه - وهذا حق - ثم نسفها بدعوى أنها أسطورة ، ولم يأت بشبهة واحدة - ودعك من البرهان - ترد هذا الحق الثابت بصحة الإسناد وبالتواتر .. ومن منهجه الخلط بين ثلاثة أصناف :

الصنف الأول فضلاء غُرِّر بهم في أحداث معيَّنة وليسوا سبئيِّين ، وصنف تمذهبوا للسبئية من جماهير الرعاع ومن أهل النحل الباطلة ؛ فحَمَلوا التبعيَّة وأنكروا المتبوع .. وصنف من اليهود هم مؤسسوا العمل الظلامي الذي مزَّق كثيراً من أهل القبلة فرقاً وأحزاباً .. وقد حكم بأن السبئية تواترت وشاعت[1] ، ثم ردَّ التواتر بلسانه لا بفكره ولا بنقله؛ إذْ لم يُحضِر شبهة ولا برهاناً.. ومن منهجه الكذب الصراح والإسقاط الذي أسلفته، إذ ادعى أن مصدر الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله كامل ابن الأثير (وأنعم به من مرجع) ؛ وإنما هذا مصدره في الكيد السِّري في واقعة الجمل الذي أحبط الصلح بين الطرفين ، وليس هو مرجعه الوحيد عن ابن

(١) ١/٤٦ .

سبإ، وذلك الكيد السري لا حظه حذاق المؤرخين، ولا يزال ماثلاً الآن لكل قارئ للتاريخ، وخير من شخص ذلك من المعاصرين الدكتور العش في كتابه عن بني أمية .. وهذا ديدنه في سرده لوقائع ابن سبإ من كتب المؤرِّخين وكتب العلماء المعاصرين، ثم يقابل ذلك بإنكار اللسان فقط دون شبهة أو برهان ، وهكذا فعل مع النقل الصحيحة والآثار الملموسة عن تتلمذ بعض أهل النحل الباطلة لمدرسة ابن سبإ التضليلية .. ولست أدري كيف يجرؤ على ردِّ تاريخ ابن جرير وهو متعاطف مع أهل تلك النحلة في التاريخ لا في النحلة .. ولم يستح من الكذب والإسقاط عندما تعرَّض لتاريخ دمشق لابن عساكر ؛ فزعم كذباً أن مصدره سيف بن عمر فقط ، فأسقط الطرق الصحيحة عند ابن عساكر عن غير سيف ؛ وإحقاقاً للحق ، وإنصافاً للتاريخ أُقرِّر أن أقوال أهل الجرح والتعديل في سيف لشناعتها تقتضي إبطال روايته التي ينفرد بها ، ولا أرى حجة لمن ردَّ روايته للحديث وجعله في التاريخ عمدة - لأن صفة الكذب تلازم الكذوب في كل ما روى بلا فرق - إلا من جهة واحدة هي تلقي المؤرخين لنقله التاريخي بالقبول ؛ فتاريخه عند التلقِّي بالقبول حجة ، ودليل ذلك برهانان :

أولهما : أنه يتكلم عن تاريخ محدود يبدأ بمدة تأريخه إلى وفاته ، فإذا سكت عن تكذيبه معاصروه ومنهم قريبو عهد بعصره فقوله مؤيد بسكوتهم ، ذلك أن هذا التاريخ المحدود مدته تاريخ مشترك بين معاصريه الذين تربطهم علاقات بالأحداث؛ فلو كان عندهم إنكار لبيَّنوه ، ومن المحال أن تكون أذهانهم خاوية من تاريخ بعضهم عايَشَهُ مشاهدة ، وبعضهم عايشه استفاضة .

وثانيهما : أن الكذوب لا يستطيع إثبات تاريخ معاصر مُعايش أو مستفيض ويكون كذباً ؛ لأن المعاصرين وقريبي العهد بالأحداث سيرمون وجهه بكذبه ، وربما تعرَّض للمحاكمة ؛ لهذا يحتاط لنفسه في هذا الجانب ؛ ليتصف بأنه عمدة ، ولأنه

لا حيلة له في التجاوز .. وهذا آمر اصطنعه آخرون كابن الكلبي في سرد الأنساب . وإنما وجد فرصته في الكذب فيما بَعُد عهده عن أبناء عصر كأخبار آباء القبائل ، ومصاهراتهم ، وتعليل أنساب بعض البلدان ؛ فهذا قديم قبل مئتي سنة التي قُدِّر بها عصر الجاهلية ، ومنها ما هو قبل الميلاد ؛ فهذا إغراب على أبناء عصره يجعله جمهورهم محتملاً ، ويجعله قليل منهم أقرب إلى الصحة ؛ لأنه خدعهم بصدقه في أمر لا يستطيع التجاوز فيه .. ومع هذا فلا يحل لذي عقل أن يقطع بأنه لا مصدر للخبر غير سيف دون أن يبحث في المصادر الأخرى كما فعل هذا العسكري عندما أسقط الأخبار الصحيحة والتواتر عن غير سيف .

ولقد حاول هذا العسكري التملص من صحة خبر لسيف عن بعث جيش أسامة رضي الله عنه ، فادعى أنه معارض بروايات غيره[1]؛ فلم يصنع شيئاً ؛ لأن روايات غير سيف كملته وأيدته، وما فيه من اختلاف فهو هامشي ليس من صلب الموضوع، والمنهج رَدُّ التاريخ الضعيف إلى التاريخ الأوثق في الجزئيات لا الإسقاط الكلي، والإسقاط الكلِّي تعسُّفاً وفراراً من الحقيقة المؤلمة هو منهج العسكري في كل مقارناته ، ومع هذا لا يخجل من الله ثم من خلقه في احتضان آراء نِحْلية هالكة السند ، غير موثوقة المصدر ، وفيها من بينه وبين الحدث تسعمئة عام ؟![2] ، ومن أوردها من غير أهل تلك النحلة ذكرها على أنها قول ، ومنهم من فنَّدها ، والخوض في هذه المسألة يخرج بي عن غرضي، ولعلي أعرج عليه في غير هذه المسألة كموقف سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه وهو القائد الذي عينه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، والمُشارك في الشورى بعده بأمر منه !!.. ثم هؤلاء الصحابة رضوان

(١) ١/٨٣ - ٨٧ .

(٢) ٢/١٢٨ - ١٦٣ و ص١٦٩ .

الله عليهم كيف يكونون متهمين في دينهم وقد أخبر الله برضاه عنهم وأن لهم الجنة كما في سورة التوبة، والخبر لا يدخله النسخ ثم تأيد ذلك بالواقع العملي؛ إذ لا يُعرف على الساحة غيرهم في الجهاد في الداخل والخارج وجَمْع شمل الأمة ؟.. والمقياس الثابت في ذلك أن مَن في عهد رسول الله ﷺ ليس كله مجتمعاً صالحاً ؛ ففيهم أعراب أشد كفراً ونفاقاً ، ومنافقون حوله من الأعراب ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ، وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ورجَّاهم سبحانه عفْوَه ، وآخرون مُرْجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم؛ فكل ما يصدر عن هؤلاء من خير أو شر أو تقصير مردود إلى الميزان الشرعي في قوله سبحانه : ﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [سورة التوبة /١٠٠] ؛ فمن رضي الله عنه وأعدَّله الجنة خالداً فيها كيف لا تكون سيرته العملية ميزاناً ؟.. والأخبار والأخلاق لا نسخ فيها ، والسابقون - وهذا معنى السلفية معروفون بأعيانهم ، والاختلاف بينهم يدور على إصابة المراد وفيه أجران ، وصواب المسلك وفيه أجر ومعذرة ، ومتبعوهم معروفون بالمقارنة ، وفيهم ذوو شاهد الحال الذين شهد لهم الجمهور من عدول الأمة بالخير .. ومصادر العسكري شركاؤه في النحلة وقلب الحقائق كاليعقوبي وابن أبي الحديد !!.. ومكابرات هذا الرجل برهان على أنه لا يتق الله ؛ فقد أراد تعميق الردة في عهد الرسول ﷺ ، فلم يجد غير رجلين ورجل ثالث لم يسلم أصلاً هو ابن خطل[1] ، والذين شهروا

(١) ١٦٨/٢ ، ومن جرأته على الكذب ما ورد في ١٧٥/٢ من إنكار الردة ، وأن ما حصل معارضة لخلافة أبي بكر رضي الله عنه ؛ فكيف يثق قومُ هذا الكاتب بهذه الأكاذيب الصلعاء لولا اتباع الهوى ؟!.. ويا ليت شعري من أيِّ الناس كان جيش أبي بكر رضي الله عنه: أهم السبئية، ===

أمرهما هم أهل السنة والجماعة، وهم يعلمون أن بينهم منافقين لم يسلموا . وحذيفة بن اليمان رضي الله عنه يعلم أعيانهم ، والقرآن في أكثر من موضع يحذر عبده ورسوله محمداً ﷺ ويحذر المؤمنين منهم .. وعلى أي حال فالمجلد الأول استطراد في أشياء ليس لها علاقة بدعوى أن ابن سبإ وأتباعه أسطورة ؟!

قال أبو عبدالرحمن : وَوُجدَ للسبئية كيد سياسي ولكن في أوقات محدودة .. إنك مثلاً تعلم من قراءة الفكر الباطني ، ومن الكاشفين لبعض خططهم كأبي بكر الباقلاني وأبي حامد الغزّالي وغيرهما : أن هناك أعمالاً تُدار سِرّاً لتضليل المسلمين، ويكفي أن يُعلم بأن هذا الكتاب أو ذلك العَلَمَ ذو أصول باطنية، ويكفي أن يُعلم من هم أعداء الملة من النصارى باسم التبشير ، ومن اليهود باسم الماسونية .. فكل هذه الأمم تدبِّر مخطَّطات سِرِّيَّة لتزوير وتزييف تاريخ أمتنا ، وتزييف مدلولاته إن عجزت عن تحريف نصوصه .. وهذا المَعْلَم يُنبِّه القارئ لتاريخ أمته أن يحتاط لنفسه من خفاء بصمات الدسّ فيسبرها، ويجب الاحتياط إذا كان المخبر عن تاريخنا من غير أهل ملتنا، ومن غير أهل قبلتنا أو المخالف في النِّحْلة .. وعن كيد عدوِّ الملة والنحلة من ناحية الأحداث التاريخية المباشرة قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : «فقد عرف أهل الخبرة أن أهل الذمة من اليهود

== أو الأعراب الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم، أو أفراد على أصابع اليد من الصحابة رضي الله عنهم اعترف أهل النحلة الباطلة بعدالتهم ، أو المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم الذين أخبر عنهم ربهم بخبر لا يقبل النسخ أن الله رضي عنهم ورضوا عنه ، وأنهم أهل الجنة ؟!.. وبعد هذا كله إذا كان دين الله لم يظهر ولم ينتشر على أيدي السلف الصالح في عصر الفتوحات الإسلامية فمتى سيظهر وينتشر وقد وعد الله بظهوره ، وأخبر نبيه محمد ﷺ أنه قبل لقائه ربه سيرى الناس يدخلون في دين الله أفواجاً أين هذه الأفواج إن لم يكونوا أتباع رسوله ﷺ وخلفائه الراشدين والسلف الصالح ؟.

والنصارى والمنافقين يكاتبون أهل دينهم بأخبار المسلمين، وبما يُطلعون على ذلك من أسرارهم؛ حتى أُخِذ جماعة من المسلمين في بلاد التتر وسبي .. وغير ذلك بمطالعة[١] أهل الذمة لأهل دينهم، ومن الأبيات المشهورة قول بعضهم [هو الإمام عبدالله بن المبارك]:

كل العداوات ترجى مودَّتها إلا عداوة من عاداك في الدين

ولهذا وغيره منعوا، أن يكونوا على ولاية المسلمين، أو على مصلحة من يقوِّيهم، أو يُفضَّلوا عليهم في الخبرة والأمانة من المسلمين .. بل استعمال من هو دونهم في الكفاية أنفع للمسلمين في دينهم ودنياهم .. والقليل من الحلال يبارك فيه ، والحرام الكثير يذهب ، ويمحقه الله تعالى»[٢] .. وذكر شيخ الإسلام من يوجد في بلاد الإسلام من فروع الباطنية ، ثم قال : «وهم الذين أعانوا التتر على قتال المسلمين ، وكان وزير هولاكو النصير الطوسي من أئمتهم ، وهو أعظم الناس عداوة للمسلمين وملوكهم» .. ثم ذكر آخرين مِن المدَّعين أنهم من أهل قبلتنا ؛ فقال : «وقد كان بالساحل بينهم وبين الفرنجة مهادنة ، حتى صاروا يحملون إلى قبرص خيل المسلمين وسلاحهم ، وغلمان السلطان ، وغيرهم من الجند والصبيان ، وإذا انتصر المسلمون على التتار أقاموا المآتم والحزن ، وإذا انتصر التتار على المسلمين أقاموا الفرح والسرور ، وهم الذين أشاروا على التتار بقتل الخليفة ، وقتل أهل بغداد .. ووزير بغداد ابن العلقمي هو الذي خامر[٣] على المسلمين ، وكاتب التتار حتى أدخلهم أرض العراق بالمكر والخديعة ، ونهى الناس عن قتالهم .. وقد عرف

(١) أي اطلاعهم .

(٢) **فتاوى شيخ الإسلام** ٦٤٦/٢٨ .

(٣) المخامرة بمعنى التغطية .

العارفون بالإسلام أنهم يميلون مع أعداء الدين ، ولما كانوا ملوك القاهرة كان وزيرهم مرة يهودياً ، ومرة نصرانياً أرمينياً .. وقويت النصارى بسبب ذلك النصراني الأرميني ، وبنوا كنائس كثيرة بأرض مصر في دولة أولئك المنافقين ، وكانوا ينادون بين القصرين : من لعن وسبَّ ، فله دينار وإردب .. وفي أيامهم أخذت النصارى ساحل الشام من المسلمين حتى فتحه نور الدين ، وصلاح الدين .. وفي أيامهم جاءت الفرنج إلى بلبيس ، وغُلبوا من الفرنج ؛ فإنهم منافقون ، وأعانهم النصارى .. والله لا ينصر المنافقين الذين هم يوالون النصارى ؛ فبعثوا إلى نور الدين يطلبون النجدة ، فأمدَّهم بأسد الدين وابن أخيه صلاح الدين ؛ فلما جاءت الغزاة المجاهدون إلى ديار مصر قام أولئك مع النصارى ؛ فطلبوا قتال الغزاة المجاهدين المسلمين ، وجرت فصول يعرفها الناس حتى قَتل صلاحُ الدين مقدمهم شاور»[1].

قال أبو عبدالرحمن : ابن تيمية رحمه الله تعالى رجلُ علمٍ وتأثير سياسي أيام محاربة المسلمين للتتار، وهي همُّه في بلاده، وقد اهتم بتتبُّع تاريخ تلك الفتنة .. ونحن نشهد من يقيم العيد في مناسبة ذكرى قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويحتفل بقاتله عليه بلايين اللعنات ، ويُلْحِق بخالد بن الوليد [رضي الله عنه] أخسَّ التُّهم ؛ لأنهما ركنان في إسقاط المجوسية ، والبدعيّون يتبَنَوْنَ الكيدَ المجوسي .. وإذا عُلمت العداوة من خلال الحوادث التاريخية ، ثم علم بالجملة أن لهم تضليلاً فكرياً في الخفاء وتَقِيَّة : فأقلُّ ما نحتاط به لأنفسنا إذا قرأنا كلامهم عن تاريخنا أن نتوقع التضليل ، ونسبر بصماته ، وقد أوضح الإمام أبومحمد ابن حزم رحمه الله تعالى - وهو ذو أصل فارسي كسروي - بدايات الكيد الفكري عقب المواجهة الحربية بما يماثل في العصر الحديث الغزو الفكري للاستعمار بعد المواجهة

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٨/٦٣٦-٦٣٧ .

العسكرية؛ فإذا قارنَّا ذلك بالحاضر علمنا معنى قولهم : (التاريخ يعيد نفسه) .. قال رحمه الله تعالى : «الأصل في خروج هذه الطوائف عن ديانة الإسلام : أن الفرس كانوا من سعة الملك، وعلو اليد على جميع الأمم ، وجلالة الخطر في أنفسهم ؛ حتى أنهم كانوا يُسمَّوْن الأحرار والأبناء .. وكانوا يعدُّون سائر الناس عبيداً لهم ؛ فلما امتُحِنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب ، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً: تعاظمهم الأمر، وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى ؛ ففي كل ذلك يُظهر الله تعالى الحق ، وكان من قائمتهم [يعني القائمين بالكيد] : منقاذ، والمقنع، واستابين، وبابك، وغيرهم.. وقبل هؤلاء رام ذلك عمار الملقب خذاشا، وأبومسلم السراج[1]؛ فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع؛ فأظهر قوم منهم الإسلام ، واستمالوا أهل التشيُّع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله ﷺ، واستشناع ظلم [أي الظلم الذي وقع عليه] علي رضي الله عنه.. ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن الإسلام ؛ فقومٌ منهم أدخلوهم إلى القول بأن رجلاً يُنتظر يُدعى المهدي عنده حقيقة الدين؛ إذ لا يجوز أن يُؤخذ الدين من هؤلاء الكفار؛ إذ نسبوا أصحاب رسول الله ﷺ إلى الكفر .. وقومٌ خرجوا إلى ما ذكرنا من نبوة من ادَّعوا له النبوة ، وقومٌ سلكوا لهم المسلك الذي ذكرنا من القول بالحلول وسقوط الشرائع ، وآخرون تلاعبوا بهم فأوجبوا خمسين صلاة في كل يوم وليلة، وآخرون قالوا: بل هي سبع عشرة صلاة في كل صلاة سبع عشرة ركعة .. وهذا قول عمرو بن عبدالله بن الحارث الكندي قبل أن يصير خارجياً صُفْرياً .. وقد سلك هذا المسلك أيضاً عبدالله بن سبإ الحميري اليهودي؛ فإنه لعنه الله أظهر الإسلام ليكيد أهله ؛ فهو كان أصل إثارة الناس على

(١) قال أبو عبدالرحمن: كل هؤلاء يعوقني الآن التنقيب عنهم، وهم على البال مستقبلاً إن شاء الله.

عثمان رضي الله عنه .. وأحرق علي بن أبي طالب رضي الله عنه طوائف أعلنوا إلهيته» .. ثم ذكر أبو محمد رحمه الله طائفتين من الباطنية فقال : «ومن هذه الأصول الملعونة حدثت طائفتان مجاهرتان بترك الإسلام جملة ، قائلتان بالمجوسية المحضة ، ثم مذهب مزدك الموبذ الذي كان على عهد أنوشروان بن قباذ ملك الفرس، وكان يقول بوجوب تواسي الناس في النساء والأموال .

قال أبومحمد : فإذا بلغ الناس إلى هذين الشعبين أُخرجوا عن الإسلام كيف شاءوا ؛ إذ هذا هو غرضهم فقط .. فالله الله عباد الله في أنفسكم ، ولا يغرنَّكم أهل الكفر والإلحاد ، ومن موَّه كلامه بغير برهان .. لكن بتمويهات ووعظ على خلاف ما أتاكم به كتاب ربكم ، وكلام نبيكم ﷺ ؛ فلا خير فيما سواهما .. واعلموا أن دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه ، وجهر لا سر تحته .. كله برهان لا مسامحة فيه ، واتهموا كل من يدعو أن يُتْبَع بلا برهان .. وكل من ادَّعى أن لله ديانة سراً وباطناً فهي دعاوى ومخاريق ، واعلموا أن رسول الله ﷺ لم يكتم من الشريعة كلمة فما فوقها ، ولا أطلع أخص الناس به من ابنة أو ابن عم أو زوجة أو صاحب على شيئ من الشريعة كتمه عن الأحمر والأسود ورعاة الغنم ، ولا كان عنده عليه السلام سر ولا رمز ولا باطن غير ما دعا الناس كلهم إليه ؛ فلو كتمهم شيئاً لما بلَّغ كما أُمر ، ومن قال هذا فهو كافر ؛ فإياكم وكل قول لم يَبِنْ سبيله ولا وضح دليله ، ولا تعوجوا عما مضى عليه نبيكم وأصحابه رضي الله عنهم»[1].

قال أبو عبدالرحمن : وهذه الفئة ناشطة اليوم في السفسطة حول وجود بعض الصحابة، أو حول سير بعضهم رضي الله عنهم جميعاً .. وناشطون في

(١) الفصل ٢/٢٧٣-٢٧٥ .. قال أبو عبدالرحمن : يُستثنى من ذلك من جعل عنده رسول ﷺ علم وقائع لا علم أحكام شرعية كحذيفة بن اليمان رضي الله عنه أمين سر رسول الله ﷺ في معرفة المنافقين بأعيانهم .

الكتابة عن الفتوح الإسلامية ، وملوك الإسلام ، وتشويه حكم بني أمية وبني العباس؛ انطلاقاً من تلك الظاهرة التي ذكرها الإمام ابن حزم .

وأما المَعْلم الثاني : فنجد إهانته عند أمثال محمد فتحي عثمان وهو يردُّ على مادية التاريخ ؛ فزلق زلقة شنيعة في نقد مجتمع عثمان رضي الله عنه ، وزكَّى مجتمع الثائرين من الأجناد المُغرَّر بهم من جمعيات الكوفة - وكانت المعاناة منهم منذ عهد عمر رضي الله عنه[1] .. قال محمد فتحي : «والمجتمع العربي زمن عثمان [رضي الله عنه] كان ينمو .. كان يتحول من مجتمع بسيط ساذج إلى مجتمع مركَّب من مجتمع عربي إلى مجتمع عالمي مختلط فيه عرب وفرس وروم ومصريون، وزاد بعد ذلك فضم الترك والهنود.. والدولة كانت تتطور من أسلوب القبيلة في الإدارة والحكم [بل من تعليم الدين، ومن حنكتهم] إلى أسلوب الدولة الضخمة الواسعة التي تحتاج إلى كومنولث[2] أو نظام فيدرالي[3] أو

(١) قال أبو عبدالرحمن : مما ينبغي التفرغ لدراسته مخامرة الفتنة في الكوفة بُعيد تأسيسها، ومعاناة عمر رضي الله عنه مكايدهم ، وتغييره عماله كثيراً ؛ لكثرة شكاواهم .. ونحن نجد كتاباً ضخماً عن الكوفة لهشام جعيبط فلا نجد سوى التفلسف والأسلوب الأعجمي ، وإهمال الروح التاريخية في الكوفة ، وهي مَنْشأُ بذور الفتنة بها مبكراً ، وهؤلاء المعاصرون يتحاشون ذلك مداهنة لبعض أهل النحل الباطلة.

(٢) الكومنولث تعني رابطة الشعوب البريطانية، وانظر عنها معجم الدبلماسية والشؤون الدولية، ص٨٠.

(٣) النظام الفيدرالي اتحاد مركزي لعدد من الدول تُسَمَّى به جميعها الدولة الاتحادية ؛ فالدول الأعضاء تحتفظ لنفسها ببعض الاختصاصات المحلية ، ولها رئيس يمثلها في المجال الدولي ، وجهاز مركزي يتولى السياسة الخارجية والدفاع الوطني والاقتصاد والتجارة والصناعة .. انظر معجم الدبلوماسية، ص١٦٩ .

قال أبوعبدالرحمن : الخلافة الإسلامية واتحاد الحكومات للأمم المسلمة أمثل الأنظمة .. ومختلف المحليات لكل جنس من الأمم المسلمة يُدار بدين واحد فيه الخير والعدالة ؛ إذ ==

كونفدرالي[1].. ولم تكن هناك دراسات دستورية ، وتجارب دولية تُعِيْنُ أسلافنا مثل التي عندنا اليوم .. والذين اعتزلوا: لأن التطور الوثّاب قد شدَّهم - فلم[2] تسعفهم خبراتهم كي يتبينوا أسبابه، ويصفوا علاجه ؛ فلجأوا إلى هذه الخطة السلبية: لينقذوا أنفسهم من دوّامة الأحداث ، وحسبهم أن يلقوا الله بقلب سليم .. وعثمان المظلوم عليه رضوان الله يُحَمِّله الناس وحده نتائج هذا كله .. كأن عليه وحده أن يواجه مشكلات المجتمع المركب والدولة المتضخمة بأية خبرات .. بخبرات شخصية عادية مستمدة من ظروف تُحدِّد لصاحبها مصادر الثقافة ومصادر الخبرة»[3].

قال أبو عبدالرحمن: فهذا يتباكى على خبرات عثمان الشخصية، وكأن عثمان رضي الله عنه عريٌّ من دين مهيمِن ، وكأنه لم يكن من العشرة المبشرين بالجنة ، وكأنه لم يكن من الخلفاء الأربعة الراشدين ، وكأنه غير داخل فيمن رضي الله عنهم في سورة التوبة .. وهؤلاء لم يدَّعوا باسم التاريخ قضيةً تطورية واحدة بزعمهم

== من مبادئه مراعاة العرف ، وتحكيم الخبرة والعقل في الأمور الدنيوية التي وكلها الله لاجتهاد البشر، وفي شرع الله التشريع لغير المسلمين في بلاد المسلمين.. وأما بعد انحلال الدولة الواحدة للأمم المسلمة ، واستقلال كل حكومة إسلامية برقعتها : فإن الاتحاد الفيدرالي أقل المطالب وأوجبها .. إن مقتضى الدين أن يكون المسلمون جيشاً واحداً أمام العدو ، وأن تكون خبراتهم ومنافعهم متبادلة بينهم ؛ وعلى هذا فمن شرط الاتحاد الفدرالي أن تكون الدول الأعضاء مسلمة لا رابطة بينها غير الإسلام ألبتة .. وللدكتور محمد فتحي محمد عثمان كتابٌ ضخم عن رئيس الدولة في النظام الفدرالي صدر عام ١٩٧٧م عن الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(١) قال الدكتور محمد حافظ غانم في كتابه (محاضرات في المجتمعات الدولية الإقليمية)، ص٨٣-٨٤ : «يتكون الاتحاد الكونفدرالي من مجموعة من الدول تعقد فيما بينها معاهدة يُنَصُّ فيها على التزام الأعضاء بالعمل على تحقيق أهداف معينة ، وباحترام بعض المبادئ» .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : الفاء فضول .

(٣) **التاريخ الإسلامي والمذهب المادي** ، ص٣٣ .

واجه بها الثائرون عثمان رضي الله عنه فعجز أن يجد لها حلًّا من دين ربه ، أو خطأ في اجتهاده يعذره ربه .. ومن العيب الفاضح اعتداد هذا الكاتب بالتجارِب الجديدة في عصره وهو يكتب سفر الخروج من الأرض الشاسعة التي بصم عليها أولئك الأخيار هُويَّة العروبة والإسلام، أو هُويَّة الإسلام والولاء للعرب .. ولم يدرِ المسكين أن الكومونولث والفيدرالية والكونفدرالية هي المطالب الدنيا التي لم يحتج إليها المسلمون قبل عثمان رضي الله عنه وبعده بقرون ؛ لأنهم يديرون أمة واحدة لا يفرِّقها الجنس والرقعة ، ويَفُونَ لأهل الذمة بحقوقهم كاملةً .. وكيف تنقص عثمان رضي الله عنه الخبرة ، وقد أبدع قبله الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تمصير الأمصار، وتنظيم الإدارة محلياً وخارجياً ؟! .. كيف تنقصه الخبرة وهو ثالث الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم الذين أمرنا المصطفى المعصوم ﷺ باتباع سننهم ؟!.. ثم قال: «ولست متحمساً عقيدةً وعلماً إلى أن أنزِّه عثمان [رضي الله عنه] عن أن يكون بشراً يجتهد فيخطئ أو يصيب، ولكنني أقول فقط : إن التطور كان أكبر من عثمان - مهما يكن عثمان !!» .. ثم قال عن علي رضي الله عنه: «فلم يستطع أن يوقف مدَّ التطور الزاحف ، وظلت حكومته تتأرجح على البراكين التي انفتحت تحتها: في الحرب والسياسة، والعقول والنفوس أيضاً» !![1].

قال أبو عبدالرحمن : هذا منطق لا يليق بكاتب مسلم، وهو ينطوي على قدر من الخطإ ومَداخِل الخطإ؛ فمن ذلك إعلانه عدم التحمس لتنزيه عثمان [رضي الله عنه] عن الخطإ.. وليس هذا بمنهج مسلم ذي برهان، بل أول مبادئ الفكر المسلم أن يلتمس صواب ونزاهة الاجتهاد في سلوك الصحابي بكل تحمُّس ، فإذا عجز التمس جانب العذر ؛ لأن للصحابة رضوان الله عليهم خصوصية في شرع ربهم الأعلم

(١) **التاريخ الإسلامي والمذهب المادي** ، ص٣٥ .

بنياتهم لا نملك إسقاطها .. ومن ذلك حكمه للفتنة بأنها تطوُّر أكبر من عثمان ، والتطور جرى عرف العصر على أنه قيمة فكرية يعني الرقي .. والواقع أنه تطوُّرُ شرٍّ وضعف دين ، وعثمان رضي الله عنه بإيمانه وصحبته أكبر من كل الثائرين ، وهم جمعية ابن سبإ، والمغرَّر بهم من الجند والصِّبْية .. وهكذا ما واجه علياً رضي الله عنه ليس تطوُّرَ خير؛ وإنما هو تخلُّف في الدين، وتراكُمٍ في الفتن مصدرها ما أسلفته من بؤرة الفساد في الكوفة ؛ فأين هذا التزلُّف العصري من أجل الشعبية لدى الدهماء والغوغائية في عصر من الوعي الدقيق لدى الدكتور يوسف العش ذكره الله بكل خير؛ فقد سبر كل خيوط المؤامرة السرية في كتابه عن بني أمية .

ومن عناصر المسؤولية الفكرية النظر في فلسفة التاريخ ، وهي عند هيجل مبنية على ثلاثة مناهج للمؤرخ هي : التاريخ الأصلي ، والتاريخ النظري ، والتاريخ الفلسفي ؛ فالتاريخ الأصلي هو الاهتمام بوصف الأعمال والأحداث وأحوال المجتمع التي وجدوها ماثلة أمام أعينهم؛ فنقلوا ما حدث إلى عالم التمثُّل العقلي .. وبعد أن ذكر إيجابيات وسلبيات هذا المنهج انتقل إلى منهج التاريخ النظري ، وهو لا يختلف عن منهج التاريخ الأصلي إلا من جهة ابتغاء التاريخ الكلي لبلد ما أو أُمَّة ما ؛ ليأخذ منها علاقات ومفارقات يستبطنها في نظره التاريخي .. قال : «ويقدم لنا ليفي[1] أوصافاً للمعارك كما لو كان قد شاهدها بالفعل ، لكن الملامح والخصائص التي يصفها تصلح تماماً لوصف أي معركة في أي عصر من العصور .. فضلاً عما تتصف به هذه الأوصاف من وضوح يتعارض مع التفكك وعدم الاتساق»[2] .. وأدرج

(١) هوتيتوس ليفيوس الصقلي [٥٩ ق م - ٧١ب م] مؤرِّخ روماني .. انظر عنه محاضرات في التاريخ لهيجل ٦٤/١-٦٥ [حاشية المترجم لكتاب هيجل محاضرات في فلسفة التاريخ] .

(٢) **محاضرات في فلسفة التاريخ** لهيجل ٦٦/١ ترجمة الدكتور فؤاد زكريا .

في المنهج النظري التاريخ البرجماتي (العملي) أو التهذيبي ، وهو تجريد للأفكار الرئيسية[١] من تاريخ العصر الغرض منها تهذيب الحكومات والشعوب .. أي تحقيق العبرة من التاريخ ، كما أدرج التاريخ النقدي الذي وصفه بقوله : «هذه الطريقة لا تعرض علينا التاريخ نفسه ؛ ولذا فربما كان من الأوفق أن نسميها تاريخ التاريخ ؛ لأنها نقد للروايات التاريخية ، ودراسة لحقيقتها ، ومعقوليتها .. والصفة المميزة له[٢] من حيث ما هو كائن وما ينبغي أن يكون تكمن في حدة الذهن التي يتمتع بها الكاتب والتي[٣] تمكِّنه من أن ينتزع من الوثائق أشياء ليست موجودة في المادة المدوَّنة[٤] .. ولقد قدَّم لنا الفرنسيون من هذا اللون من التأليف أعمالاً كثيرة تجمع بين النظرة الصائبة والعمق ، لكنهم لم يحاولوا أن يعرضوا مجرد عملية نقدية على أنها تاريخ حقيقي ، وإنما عرضوا أحكامهم في صورة بحوث نقدية .. أما نحن فلدينا ما يسمى بالنقد العالي الذي سيطر تماماً على مجال فقه اللغة ، كما استحوذ كذلك على كتاباتنا التاريخية .. وهذا النقد العالي كان ذريعة لتقديم كافة التشويهات المضادة للتاريخ والتي[٥] يمكن أن يوحي بها خيال عابث ؛ وهنا نجد لدينا منهجاً آخر لجعل الماضي واقعاً حياً ؛ بأن نضع خيالات ذاتية محل المعطيات

(١) قال أبوعبدالرحمن : الرئيسية صحيحة ما دام المراد عناصر تُكوِّن ما هو رئيس، ويقال : (الرئيسة) بالنظر إلى دلالة العناصر بمجموعها ؛ فالتعبيران صحيحان بهذين الاعتبارين ، وإنما يتعين «رئيس» حينما ينفرد الموصوف بأنه الرئيس بغير عناصر مساعدة .

(٢) قال أبوعبدالرحمن : السياق يقتضي أن تكون العبارة (لها) ، ولكنه التفت إلى قوله السابق : (تاريخ التاريخ).

(٣) قال أبوعبدالرحمن : الأفصح : (وهي التي) .

(٤) قال أبوعبدالرحمن : يريد ما يُؤخذ بالاستنباط والاستلماح من اللوازم والمقتضيات .

(٥) قال أبوعبدالرحمن : الأفصح : (وهي التي) ؛ حتى لا يوحي الكلام بموصوفين والمراد صفتان لموصوف واحد .

التاريخية ، وهي خيالات تُقاس قيمتها بمقدار جرأتها .. أعني قلة الوقائع الجزئية التي تقوم عليها ، والحسم القاطع الذي تُعارَض به أكثر وقائع التاريخ يقيناً»[1].

قال أبو عبدالرحمن : فهمنا من هذا أن التاريخ الأصلي في فلسفة هيجل قَصْرُه على وصف المأثور التاريخي ، والتاريخ النظري عنده تجزيئيٌّ في آن واحد ؛ فهو تجزيئي؛ لأنه يختزل من التاريخ العام موضوعاً جزئياً عن بلد معين ، أو أمة معيَّنة .. وهذا الأخير لا يتحقَّق إلا في سياق المكان والزمان والنسب والأحداث والمذاهب .. إلخ ؛ وإنما يوصف في خصوصه بأنه جزء من التاريخ الإنساني .. وهو كلِّيٌّ ؛ لأنه يستوعب من عموم سياق التاريخ كلَّ ما يخدم هذه الجزئية .. وفي هذا الذي سمَّاه منهجاً نظريُّاً ذَكَرَ تجريد الأفكار من تاريخ العصر ، ولم يحدِّد هل المراد بالعصر عصر معين ، أو يريد التجريد من كل عصر ؛ وبما أن المنهج النظري عنده جزئية تتصف بالاستيعاب جعل التجريد ضمنه؛ لأن التجريدَ أَخْذُ الخلاصات ؛ فهذا معنى التجزئة، ويراد به الإفادة مستقبلاً ؛ فهذا معنى استيعاب كلية التجريد من ناحية فائدته .. وأدخل في هذا المنهج أيضاً النقد التاريخي، والوصف التاريخي، والتفسير التاريخي وهو أعم من التجريد .. وصفة الكُلِّية في هذه الجزئيَّة أنها شاملة لنقد الماضي ، وتمييزه، ودقة الاستنباط ، والبناء عليه برؤية مُسْتقبلة ؛ ولهذا سماها تاريخ التاريخ ، وأما المنهج الفلسفي فيأتي حديث هيجل عنه إن شاء الله .

قال أبو عبدالرحمن : هذا الإيضاح والتفسير ضروري من أجل فهم كلام هيجل؛ لأنه لا يحل لأحد تأييد كلام أو ردُّه إلا بعد تصوُّره وفهمه على وجهٍ صحيح ؛ فصحة التصور هي أرضيةُ صدور الحكم ، وهي الضمان لصواب السلوك إذا وجد الورع وصدق النية في طلب الحق.. وأما من الناحية العلمية فلا أرى أن هذا

(١) **محاضرات في فلسفة التاريخ** ١/٦٩-٧٠ .

التقسيم جدير بالاهتمام لولا أنه صادر عن فيلسوف كبير؛ لهذا نحكم عليه بأنه تفلسف أصغرُ من موهبة هيجل ، وأنه تَنطُّع ليس وراءه مغزى ؛ لأنه لا يربط بين تقسيماته جهة قِسْمة جامعة .. والذي أحققه بلا تفلسف ومعاياة وإلغاز أن أول عمل في التاريخ وأهمه هو تحصيل مادته ، ومادة التاريخ تساوي قولنا: (متن اللغة ، ومتن الفقه .. إلخ)، وهذا التحصيل ضروري وإن كان جهد المؤرخ محصوراً في النقل للمادة كما هي، وتعيين مصدر أو مصادر ذلك التحصيل ، وهذا قمة الأمانة .. ومادة التاريخ هي إيراد المنقول سماعاً، وإيراده قراءة من الكتب والصحف والنقوش.. وهي أيضاً الموجود الحسي من الآثار كبقايا آثار أمم هلكت، وكالمتحجِّرات.. وتكون مقروءة بالوصف وتحديد الموقع، وبالتصوير المرسوم على الورق، ولا مانع من تسميته بالتاريخ الأصلي؛ وإنما المُمْتنع قصر هيجل التاريخ الأصلي على الوصف ، بل هو سَرْد للمادة كما هي ؛ وإنما جاء الوصف والتصوير بالرسم ضرورة لمشاهَدٍ محسوسٍ يُراد نقله على الورق ؛ ليكون مقروءاً ، فوصفك لمارأيته كالتأدية لمارويته ، والراوي مادة التاريخ بالنقل السَّردي مُؤدٍّ لروايته أو قراءته كما هي بما فيها من وصف أو سرد بلا وصف .. والممتنع أيضاً تجزئة مادة التاريخ الأصلي باستخراج الجزء الذي سماه نظرياً؛ فلا معنى لهذا؛ لأن مادة التاريخ هي المأثور سواء أكان كليُّاً أم جزئياً .. والممتنع ثالثاً الخلط بين مادة التاريخ وبين ما بُني عليه مما هو من عمل وتعقيب ناقل التاريخ مادة وليس موجوداً في المادة التي نقلها كنقد مادة التاريخ ؛ فهذا عمل مستقلٌّ صفته أنه مِعْياري يُرجع فيه إلى أحكام القيم الثلاث (الحق ، والخير ، والجمال) ، ولا يمتنع تسمية هذا القسم بالتاريخ النظري أو المنهج النظري ؛ لأن مادة التاريخ هي موضوع النظر العقلي في نقده وتقويمه .. وأما التجريد من التاريخ (من العلاقات ، والفروق) لتكوين رؤية مستقبلة ، أو استصلاح واقع مُعايَشٍ اعتباراً

بالتاريخ فذلك حقل ثالث مستقل اسمه تفسير التاريخ ، .. ثم يُعَلِّل سبب التفسير بأنه لتمام تصوُّرِ الماضي ، ولاستصلاح الحاضر ، ولاستشراف المستقبل : فإدراج هذا الحقل في قسمي المنهج الأصلي والنظري خلط شنيع .

وما نقله هيجل عن ليفيوس من وصفه للمعارك كما شاهدها فضولٌ: لأنه أورده في مجال التقسيم لمناهج التاريخ، والسرُّ في وصفي لذلك بالفضول: أن ليفيوس وصف معارك لم يشاهدها كأنه مشاهد لها؛ فوصفه إن اعتمد على عناصر من المادة التاريخية التي ذكرها نموذج لجزئية من جزئيات الحقل الثالث - وهو تفسير التاريخ - ، ولا يُستفاد من ذكره ليفيوس إلا بأن ينص على نموذج أو نماذج من وصفه إذا كان هيجل يعدُّها المنهج الصحيح لتفسير التاريخ .. ولكن هيجل قال عن الوصف التاريخي عند ليفيوس (وهو وصف المعارك) : إنه وصفه لكل معركة يصلح لوصف أي معركة في أي عصر.. ثم مدح هذا الوصف بأنه وضوح يتعارض مع التفكُّك وعدم الاتِّساق ؟!.

قال أبو عبدالرحمن : محال أن يتحد الوصف لكل المعارك في العالم ؛ وحينئذ تكون أوصاف ليفيوس مخالفة للواقع ؛ فما وجه إيراد وصفه والثناء عليه وهو مخالف للواقع .. إن مُفَسِّر التاريخ - والوصف من عناصر عمله - ليس من حقه أن يخترع الاتساق ، وليس من حقه أن يخترع التفكُّك ؛ وإنما مهمته الأمانة بوصف مادة التاريخ كما هي عليه من اتساق أو تفكُّك .. أما تنظيم عمل المفسِّر في نفسه فلا بد فيه من منهجية الاتساق بأن ينظم وصفه للأحداث حسب تاريخ وقوعها ، أو حسب هدفه من الوصف في الابتداء من الأخف أو الأشد في وصف بعض سنن الله الكونية في التاريخ ؛ فلا يُطلب منه الترتيب الزمني ، بل يطلب منه الانسجام مع غرضه إن كان يريد الابتداء بالأشد أو الأخف .

وأما تفريق هيجل بين العمل النقدي لدى بعض الفرنسيين بأنه عمل نقدي لا

تاريخي فلا يُتصوَّر فهمه إلا بتقسيم العمل النقدي إلى نقد منطبق على وقائع تاريخية ، ونقد لا ينطبق على وقائع تاريخية، بل على وقائع متخيَّلة ؛ فالأول نقدي لتاريخ حقيقي ، والثاني عملية نقدية لوقائع متخيَّلة .. وهذا جائز في الفكر ؛ لأن المثال يجوز أن يكون واقعياً ويجوز أن يكون افتراضياً .. ولست أجيد لغة هيجل ولا أيَّ لغة ثانية فأحكم على الغموض أنه من قبل هيجل ، أو من قبل المترجِم .. على أن هيجل - وبعده أمانوئيل كانت - من أشدِّ الناس غموضاً بإجماع الدارسين .. وموجز القول عن المذهب النقدي الذي ذكره هيجل : أن ما يتعلَّق بتعريف عمل بعض الفرنسيين تعريف مشوَّش مختلط ، وأنه ذو شِقَّين : الشق الأول منه أن يكون النقد وفق أمثلة حية في التاريخ ، وهذا هو المطلب الأعلى .. والشق الثاني أن يكون النقد على أمثلة افتراضية فهذا وإن كان جائزاً في الفكر عديم الجدوى إلا إذا كان الشاهد الحي من التاريخ غائباً عن ذهنه وهو يعلم مظان وجوده ؛ فيعد بالتمثيل بوقائع حية ؛ وإنما جاز المثال الافتراضي لدى المفكِّر من أجل تحقيق التصوُّر لا من أجل تحقيق الحكم .. وأما منهج التاريخ الفلسفي فقد ميزه هيجل عن الفلسفة العامة بقوله : «إذ يبدو أن الفكر في علم التاريخ لابد أن يكون تابعاً لما هو معطى - أعني تابعاً للحقائق التي هي أساسه ومرشده - على حين أن الفلسفة تنتمي إلى منطقة الأفكار التي تُنتج نفسها دون إشارة إلى الواقع الفعلي ؛ وهكذا فإن الفكر النظري حين يقترب من التاريخ (وهو متحيِّز على هذا النحو) فربما توقعنا منه أن يعالجه بوصفه مادة سلبية ، وبدلاً من أن يترك هذه المادة في حقيقتها الأصلية فإنه قد يجبرها على أن تتطابق مع فكرة طاغية متسلِّطة ، ويفسِّرها بطريقة قبلية كما يقال .. على أنه لما كانت مهمة التاريخ تقتصر على أن يضم بين وثائقه ما هو موجود الآن وما كان موجوداً من قبل من أحداث وأعمال فعلية ، ولمَّا كان يظل

ملتزماً للطابع المميز له بمقدار ما يظل ملتصقاً بالمعطيات : فإن مسار الفلسفة فيما يبدو يتعارض على خط مستقيم مع مسار المؤرخ»[1] .

قال أبو عبدالرحمن : هذه حسبانية مُتَعَمَّدة لا أستطيع إنقاذ القارئ منها إلا بتحليل دقيق وَفْق العناصر التالية :

العنصر الأول : أن العمل لملكة العقل محصور في ثلاث زوايا هي التفكر لتحصيل حقيقة واقعية ، والتذكُّر لاستحضار حقيقة قد حصلت ، والتخيُّل لتحصيل صورة مأخوذة من أجزاء الواقع غير مشترط أن تكون واقعية بذلك التركيب ؛ فالتذكر ضروري لخدمة التفكير الواقعي ، ولخدمة التفكير الخيالي .. والتفكير الخيالي هو أداة إبداع بعض الأعمال الفنية ، ولا يستطيع العقل في المجال الواقعي وفي المجال الخيالي أن يَخْطُوَ خُطوةً إلا وفق الملكة الغريزية الفطرية التي فطر الله العقل عليها ، ولست أعني بذلك ما يقوله أصحاب المدرسة العقلية عن الأفكار الفطرية الغريزية الأولية القبلية (العقل الخالص) ؛ فلستُ أقول بذلك ، بل كل معارف العقلية وبديهياتها مستمدَّة من الخبرة الحسية الظاهرة أو الباطنة ؛ وإنما أعني ملكات العقل في مصاحبته للحس ؛ ليأخذ منه معارفه ، وفي تخزين صور ما عرفه في الذاكرة من صور الهويات التي أدركها ، وضبط العلاقات والفوارق بينها حتى لا تختلط عليه الهوُيات ؛ وفي تجريده الأفكار العامة كالمعنى العام للإنسان والبيت .. مع أن الأناسي والبيوت أفراد لا يُحصيها العدّ وبينها فروق كثيرة ، ولكن تبقى عناصر عامة يجتمع فيها الشتات ؛ فهذا هو الأفكار العامة المجرَّدة .. ومن كل ذلك يكوِّن أحكامه فيما تصوَّره من هُوِيّات وفوارق وعلاقات ، وكل حكم بديهة مأخوذة من الخبرة حتى تستجد خبرة جديدة لا يُعقل أبداً أن تنفيها ولكن تضيف

(١) المصدر السابق ١/٧١-٧٢.

إليها فائدة ؛ لأن الحقائق لا تتعارض .. والفائدة إما بتخصيص أو تعميم أو زيادة حكم تجريبي .. وهذه الغرائز كلها وكل حصائلها هي أداته في التخيُّل .

والعنصر الثاني من العناصر التي أسلفتها : أنه لا وجود لأي عمل فكري مُجَرَّد عن معطيات الخبرة الحسية .. غاية ما هنالك أن التفكير لحصيلة واقعية يجمع بين معطياته السابقة وما يأخذه من مادة الموضوع الواقعي الذي يفكِّر فيه ، وأما التفكير الخيالي فهو أوسع حُرِّية ؛ لأن مادته التأمل والتذكر في كل ما كان من خبرته الحسية من كون الله الفسيح غير محصور في مادة واقعية معيَّنة مثل مادةٍ تاريخية ، وما يريد إبداعه بالتركيب من أجزاء واقع مُبْدَعٍ قبله قد يكون متصوَّراً كله أو بعضه ، وقد يكون مستشرفاً له حتى يتحقق ؛ فهذه حرية أخرى .

والعنصر الثالث : أن هيجل جعل ثنائية بين التاريخ والفلسفة توحي بأن العقل ذو ثنائية بين التاريخ والفلسفة ، وتوحي بأن التاريخ والفلسفة غريزتان تكوِّنان عقلاً ثنائياً في مجالهما، وأنهما غريزتان في الإنسان من ملكاته .. وهذا تضليل؛ لأن الفلسفة والتاريخ معاً ليسا ملكة، ولكنهما مادة وموضوع النظر العقلي الذي هو الملكة والغريزة، والفلسفة قسمان : الفلسفة العامة التي تحتاج إليها كل الحقول العلمية؛ وذلك هو (نظرية المعرفة وآدابها وشروطها في البحث والمناظرة) .. والفلسفة الخاصة، وهي فلسفة كل حقل علمي فالغيبيَّات لها فلسفتها، والسياسة لها فلسفتها، واللغة لها فلسفتها ، وأما الشريعة الربانية ففلسفتها (المعرفة الشرعية) بالتلقي عن مصادر الشرع، والتصديق بالشرع جاء من معطيات المعرفة البشرية ذات البراهين في الأنفس والآفاق، وهي التي اقتضتْ استقلال (المعرفة الشرعية) بدورها الذي هو التلقّى بعد التصديق الناتج عن المعرفة البشرية، وهو تلقٍّ يعني أَخْذَ الشرع كما هو عليه بلا اقتراح أو إضافة أو حذف أو تحريف أو استبدال؛ فصح بهذا أن

جَعْل العقل والفلسفة والتاريخ في ثنائية كِذْبة صلعاء من قبل هيجل .. والحاصل من فلسفة هيجل أن الثنائية بين الفلسفة والتاريخ من جهة علاقة العقل بهما : فالفلسفة تنتمي إلى أفكار وَصَفَها بأنها تُنتج نفسها غير ملتفتة إلى الواقع الفعلي ، والعقل تابع لما هو من مُعْطَيات الخبرة ؛ فهو تابع للحقائق التي هي أساسه ومرشده .

قال أبو عبدالرحمن : إذن يقال : (من الذي جعل الفلسفة والتاريخ على التَّصَوُّرَين اللذين ذَكَرَهما آنفاً ؟) ؛ فإن قال : (الذي أوجد هذين التصورين سلوك البشر أي خاصة المفكرين فلا يسلَّم له هذا الإطلاق على جميع المفكِّرين من البشر، وعلى التسليم بذلك جدلاً (وهو ما يُسمَّى التنزُّل في الاستدلال) فسلوك البشر ليس قيمة ، بل هو مردود للضياء الفطري الذي هو العقل ، وهو الحظُّ المُشاع الذي قَسَمَه ربنا سبحانه بين البشر ، والعقل لا يحكم بهذه الثنائية بين التاريخ والفلسفة ، بل هما مادتان وموضوعان لنظر العقل حكماً وتصوُّراً ؛ فلزم أن هذه الثنائية سلوكٌ بشريٌّ حُرٌّ ، وليس ضرورة عقلية .. وإن قال : (الذي أوْجَدَ هذه الثنائية هو طبيعة واقع التاريخ والفلسفة ؛ فلا واقع لهما إلا التصورين المذكورين آنفاً)؛ فالجواب : أن الفلسفة الخاصة، والفلسفة العامة، والتاريخ حقول مَعْرفية.. أي هنَّ موادٌّ للمعرفة البشرية ، وهي حقول ماثلة أمامنا وليست من الأمور المغيَّبة ؛ فإذا جرَّبنا عليها نظر العقل لم نجد هذه الثنائية ؛ وإنما أعان هيجلَ على هذا التضليل أن الفلسفة التي أقحمت الإلهيات والغيبيات والطبيعيات في الفلسفة الخاصة نحت منحى التأمل الحر في ابتغاء تكييف المغيَّب وتقديره ، وذلك محال ؛ إذ لا يُعرف من الواقع المغيب إلا المقدار الذي تَظهر آثارُ وجوده ، أو بوصف يقيني من تواتر أو خبر دل البرهان على أنه معصوم ؛ إذن الحكمُ على الواقع المغيب كيفية ومقداراً عملٌ غيبيٌّ ، وهكذا تصويرهم ما يُدَّعَى أنه غيبي وهو خرافة ؛ فهذا هو نفسه السلوك البشري الحرُّ

الذي أسلفته ، وليس هو قيمة معيارية ، بل الفلسفة العامة هي المعرفة البشرية بآدابها وشروطها في البحث والمناظرة ، وهي تقنين من نظر العقل في واقع الذات العارفة وأدواتها ، وواقع المعروف في الخارج وواقع صورته في الذهن .. إلى آخر عناصر نظرية المعرفة [1] ، والمعرفة الخاصة كأصول اللغة مثلاً مادة للنظر العقلي يؤصلها بالاستقراء من اللغة ، وهكذا بقية المعارف الخاصة .

والتاريخ إنما هو مادة تاريخية وفلسفة تاريخية ، فمادة التاريخ موضوع النظر العقلي كمادة الفلسفة العامة والخاصة بلا فرق ، وفلسفة التاريخ هي أصوله التي استقرأها العقل من مادة التاريخ كأصول اللغة ولا فرق .

والعنصر الرابع : أن الفكري النظري الذي أشار إليه هيجل في هذا السياق هو الفكر الفلسفي، وقد حكم عليه بأنه متحيِّز؛ لأنه ينتج نفسه ؟!.. ونتيجة ذلك أنه لا ينظر إلى الواقع الفعلي في التاريخ، بل يتسلط عليه بأفكار مُسْبَقة (طريقة قبلية)؛ فهذا التسلط هو الفكرة الطاغية ؛ ولهذا جعل مسار الفلسفة مخالفاً لمسار التاريخ .

قال أبو عبدالرحمن : ليست هذه حقيقة الفكر الفلسفي ، وإنما هذا حقيقة سلوك بعض البشر كما أسلفت في الجانب الغيبي ، ثم سرت العدوى في شتات الفلسفة المعاصرة ؛ فافترضوا الدعاوَى الغيبية في أصول اللغة وفي التاريخ كتاريخ الإنسان على الأرض منذ افتراء الفلسفة القِرْدية .. والمُهِمُّ عند المفكِّر الجادِّ فحص قدرات العقل ومعطياته من خلال نظرية المعرفة القائمة على قيم الوجود الثلاث الجامعة (الحق ، والخير ، والجمال .. ونقائضهن) ، ولا يهمّه السلوك الخاطئ لبعض البشر ، ولا السلوك التضليلي لبعضهم .

(١) قال أبو عبدالرحمن : جعلت كل أقسام السفر الأول من كتابي (الإيمان العلمي) خاصاً بنظرية المعرفة .

والعنصر الخامس : أن إطلاق الفكر النظري على الفكر الفلسفي خطأ ، فالفكر النظري هو نظر العقل عموماً ، وقد أسلفت الواقعيَّ منه والتخييلي .. وأما الفكر الفلسفي فله معنيان : السلوك البشري الذي مر آنفاً وقد بيَّنْتُ الحكم فيه ، وهو ضلال إن دخل أي حقل معرفي من تاريخ وغيره .. وفكر فلسفي صحيح ، وهو التأصيل للتاريخ من استقراء مادته ، وذلك التأصيل هو فلسفة التاريخ ؛ فالفلسفة والتاريخ أَخَوان حميمان من هذا الوجه.

والعنصر السادس: ليس بصحيح حجر التاريخ في الزاوية الضَّيِّقة التي ذكرها هيجل «مهمة التاريخ تقتصر على أن يضم بين وثائقه .. إلخ»؛ فأين حقول تفسير التاريخ ومن عناصره التقويم والاستشراف، وأين عناصر نقد التاريخ الذي هو مسؤولية الفكر الكبرى ؟!! .. وبإيجاز فإن صنيع هيجل هذا تفلسف طويل لمسؤولية تاريخية واضحة ، وهي ضرورة الحضور العقلي الكامل في تلقِّي المعرفة التاريخية، ولا تحتاج ضرورة الحضور العقلي الكامل إلى بحبحة في الاستدلال؛ لأن توضيح الواضحات من المشكلات، وهذا ما فعله هيجل في الاستدلال للمنهج الفلسفي[1] .. ويستمر سياق هيجل على أن كتابه في فلسفة الأخلاق لا فلسفة التاريخ !!.. ولكنه لا يخلو من استبطانات تاريخية كقوله : «إن الأحداث التي يضعها الفاعل نصب عينيه جزئية خاصة ومحددة[2] .. لكن لابد أن نلاحظ أن الفاعل نفسه موجود عاقل مفكر، وأن مضمون رغباته مغزول من اعتبارات مهمة وجوهرية[3] تتعلق بالعدل ، والخير ، والواجب .. إلخ ؛ لأن مجرد الرغبة (الإرادة في صورتها الفجَّة

(١) انظر: **محاضرات في فلسفة التاريخ** ١/٥٨-٨٣.

(٢) قال أبو عبدالرحمن : الوصف بلا واو عطف أفصح .

(٣) انظر: التعليقة السابقة .

والهمجية) لا تدخل ضمن إطار التاريخ الكلي ونطاقه .. وهذه الاعتبارات العامة التي تشكل في نفس الوقت معياراً لتوجيه الأهداف والأفعال لها مضمون محدَّد؛ لأن تعبيرات مجردة مثل : (الخير لذاته) لا مكان لها في نطاق الواقع الحسي[١] ؛ فإذا كان على الناس أن يقوموا بأفعال ما فلا ينبغي عليهم[٢] أن يستهدفوا الخير فحسب، بل ينبغي أن يكونوا قد قرَّروا لأنفسهم إن كان هذا الشيء الجزئي أو ذلك خيراً[٣] .. أما كون الفعل الخاص خيراً أم[٤] شراً فهذا أمر تحدِّده (في حالة الحوادث المألوفة في الحياة الخاصة) قوانينُ الدولة والعرف السائد فيها؛ وههنا لا نجد صعوبة كبيرة ؛ فكل فرد له مكانه، ويعرف بصفة عامة السلوك الشريف العادل أو المشروع؛ فإذا ما حدث في العلاقات الخاصة المألوفة (أن وُجِد صعوبةٌ في اختيار الحق والخير، واعتُبِر أن من علامات الأخلاقية السامية أن يجد صعوبات ، وأن يثير الوساوس بهذا الصدد)؛ فيمكن أن يُنسب ذلك إلى إرادة فاسدة أو شرِّيرة تسعى إلى أن تتهرب من واجبات ليست في ذاتها ذات طبيعة غامضة[٥] .. أو يمكن رده على أية حال إلى عادة ذهنية كَسُولة لا تقدم فيها الإرادة الضعيفة إلى الملكات فرصة

(١) قال أبوعبدالرحمن : بل توجد في الواقع الحسي لقادة التاريخ الذين ينشرون دين الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما في تاريخنا الإسلامي ؛ لأن واقعهم هو الخير لذاته .

(٢) الصواب (منهم) ؛ فلعل المترجم ضمَّن الفعل (ينبغي) معنى (يجب) .

(٣) قال أبوعبدالرحمن : يعني أنهم افترضوا ذلك افتراضاً .

(٤) قال أبوعبدالرحمن : لا معنى للإضراب ههنا ، والصواب : أو .

(٥) قال أبو عبدالرحمن : هذا الأسلوب الملتوي الغامض - ولعله من قبل هيجل لا المترجم - يُفضي إليك بمدلوله بعد عُسْرٍ هكذا : (نقدنا للبطل النبيل بأحداث جزئية ليس عيباً في البطل ، بل هو عيب في الناقد ذي الإرادة الفاسدة الذي يتمسك بجزئياتٍ هروباً من الإقرار بالأهداف والمنجزات التي لم تكن غامضة) .

كافية لكي تمارس فاعليتها[١]؛ لذلك تُترك هذه الملكات لكي تهتم بذاتها ، وتشغل نفسها بالتزلُّف الأخلاقي لذاتها[٢] .. لكن الأمر يختلف عن ذلك أتم الاختلاف في حالة العلاقات الشاملة التي يدرسها التاريخ؛ ففي هذا المجال توجد تلك المصادمات الكبرى بين الواجبات والحقوق والقوانين الموجودة والمعترف[٣] بها ، وبين الممكنات التي تُعارِض هذا النظام المحدود والتي[٤] تهاجمه بعنف، بل وتقوِّض أسسه ووجوده على الرغم[٥] أن مضمونها قد يبدو مع ذلك طيِّباً وذا فائدة في مجموعه، بل حتى[٦] لازماً وضرورياً .. تلك الممكنات تتحقق في التاريخ، وهي تتضمن مبدأً عاماً لنظام

(١) قال أبو عبدالرحمن : هذا احتمال آخر حول صدِّ ذوي الكسل الذهني المتلقِّين لأخبار البطل وأحداثه من ذوي الملكات الذين يُقارنون بين الجزئي والكلي (الأهداف ، والمُنْجَزات) ؛ وإذ لم يُمارسوا فاعليتهم فَسَيُحْكَمُ على ملكات البطل ودوافعه بأنها أنانية ، وهذا هو سوء فهم التاريخ .

(٢) قال أبوعبدالرحمن : لا تنهض المبادئ السامية ، ويسود الحق والخير والجمال إلا بكفاح العظماء الذي يصل إلى الحروب ، والحرب عمياء تكون فيها الوسيلة مجحفة عن غير قصد ؛ وإنما العبرة أخلاقياً بما ينفِّذه القادة بعد انتصارهم - وإن كان في البداية مجداً ذاتياً لهم - ، والقاعدة : أن السِّيرة تُبيِّن السَّريرة .

(٣) قال أبوعبدالرحمن : حذف الواو ههنا قبل (المعترف) أجود على الوصف لا على العطف ؛ لأن العطف يوحي بتعدد الموصوف لا الصفة .

(٤) قال أبوعبدالرحمن : الأفصح (وهي التي) ؛ حتى لا يوحي الكلام بموصوفين والمراد وصفان لموصوف واحد .

(٥) قال أبوعبدالرحمن : الصواب : (على الرغم من أن) .

(٦) قال أبوعبدالرحمن : بل حرف إضراب من شيئ إلى ما هو أولى منه مثل (أبو محمد عالم جليل ، بل إمام من أئمة المسلمين) ، وفي الإضراب من غلط أو نسيان إلى ما هو مُحَقَّق مثل (ذقته فوجدت حلاوته كحلاوة التمر، بل كالعسل) .. وهي حرف، وما بعدها جملة تحقِّق الخبر عن انتقالك عما أضربتَ عنه إلى ما عزمتَ عليه .. وتكون حرفاً عاطفاً بعد نفي أو نهي فيفيد ما بعدها نفي النفي أو النهي الثابت لما قبلها مثل: (ما ضرَّني بل نَفْسَهُ) .. ولا وجود ==

مختلف عن ذلك النظام الذي يعتمد عليه دوام وبقاء شعب ما أو دولة ما ، وهذا المبدأ هو مرحلة أساسية في تطور الفكرة الخلاقة[١] وتطور الحقيقة التي تكافح وتناضل لكي تصل إلى الوعي بذاتها .. ورجالات التاريخ (أو أفراد تاريخ العالم) هم أولئك الأشخاص الذين يكمن في أهدافهم ذلك المبدأ العام[٢] .. ويمكن أن نقول إن قيصرَ[٣] ينتمي أساساً إلى هذه الفئة من الرجال عندما كان مهدداً بفقدان مركزه

== لها بمعنى حرف ابتداء مثل (أكرم سعداً بل زيداً) ؛ فيزعمون أن زيداً مسكوت عنه لا يثبت له إكرام ولا يُنفى ، فمثل هذا تأباه عبقرية اللغة ؛ بل معناها ههنا الإضراب كما مر ، ولا يمتنع معنى الابتداء مع معنى الإضراب ، وإنما الممتنع السكوت عن حكم ما بعدها .
و(حتى) على كثرة وجوهها حرف، ولا يدخل حرف على حرف؛ فاجتماع حرفي (لا) و(حتى) عُجْمة.
ومعنى هذا الكلام ما سيأتي بعده: أن هيجل انتقل من حالة الحكم للبطل وأحداثه بأهدافه النبيلة ومنجزاته بغض النظر عن الحالات الجزئية .. انتقل إلى حالة أخرى هي انطلاق البطل من أهداف وقوانين محدودة معارضة بقوانين وأهداف أوعبُ وأكثر شمولاً ؛ فالاعتداد حينئذ بالأشمل .

(١) قال أبو عبدالرحمن : لا ينبغي استعمال الخلق على أنه فعل للمخلوق بدعوى المجاز ؛ لأن حقيقة الخلق لله وحده سبحانه ؛ فلا يُزاحَم هذا المعنى بمعانٍ تُخِلُّ به .. وللورع تتحاشى ما ورد به النص عن الخالق سبحانه كالإبداع ، وتستعمل ما لم يرد به نص كالابتكار ، وتستعمل غير هذا المعنى كالصنع والتركيب والتأليف .. أو تربط بالكلام ما يشعر بإرادة الخالق سبحانه مثل : فيبدع بإذن الله من أجزاء الطبيعة عالماً مبتكراً ؛ فإن حدث مني في كتبي أو مقالاتي غير ذلك فهو غفلة مني.

(٢) قال أبوعبدالرحمن : من الزعماء من يحقق مجداً وانتصاراً بتضليل أخلاقي ثم تكون النتائج غير شريفة .. ومنهم من يحافظ على مجده ووجوده التاريخي ، وربما خاض حروباً عمياء ، ولكنَّ غايته تحقيقُ روح عصره فيما يُقدِّر خيراً وحقّاً وجمالاً ، وأكثر ما يقوم نصرهم على مناضلين من شرائح المجتمع يعرفون بالخبرة أهداف قادتهم النبيلة .

(٣) قال أبو عبدالرحمن : قيصر في الأصل اسم أسرة قديمة من أشراف روما ، ثم صار لقباً لكل إمبراطور روماني (الموسوعة العربية الميسرة ١٤١١/٢) .. وهيجل لا يريد امبراطوراً مُعَيَّناً ، وإنما يريد كل إمبراطور روماني .

الذي ربما لم يكن من ذلك الوقت على هذا القدر من السمو والتفوق .. لكنه مع ذلك كان يتساوى على الأقل مع غيره ممن كانوا على رأس الدولة ، وكان مهدداً بأن يستسلم أولئك[١] الذين كانوا على وشك أن يصبحوا أعداءه.. هؤلاء الأعداء الذين كانوا في نفس الوقت يسعون وراء أهدافهم الشخصية كان في صفهم شكل الدستور والقوة التي يُضفيها عليهم مظهر العدالة[٢] .. أما قيصر فكان يناضل من أجل المحافظة على مركزه ، ومن أجل دوام منصبه وشرفه وسلامته؛ ولما كانت قوة خصومه تشمل السيطرة على أقاليم الإمبراطورية الرومانية فإن انتصاره عليهم كان يكفل له السيطرة على هذه الإمبراطورية بأسرها؛ وهكذا أصبح - دون أن يعبأ بشكل الدستور - الحاكمَ بأمره للدولة .. غير أنَّ ما ضمن له تنفيذ مقصده (الذي كان في المقام الأول ذا مضمون سلبي .. أعني به أن يصبح الحاكم المطلق في روما)[٣] كان في الوقت نفسه سمةً ضرورية قائمة بذاتها في تاريخ روما وتاريخ العالم؛ فلم يكن مغنمه الذاتي فحسب، بل إن دافعاً لا شعورياً هو الذي دفعه إلى إنجاز ما كان العصر ذاته قد أصبح ناضجاً له[٤] .. هكذا الحال في جميع رجالات التاريخ العظماء (أولئك الذين تتضمن غاياتهم الجزئية الخاصة تلك المسائل الكبرى هي[٥] إرادة روح العالم) .. هؤلاء الرجال يمكن أن نسميهم أبطالاً بمقدار ما يستمدون أغراضهم ودورهم لا من مجرى الأحداث الهادئ والمنظَّم[٦] الذي يباركه

(١) قال أبوعبدالرحمن : الصواب : لأولئك .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : هؤلاء يُمثِّلون ما عبَّر عنه بالقوانين والأهداف الأشمل .

(٣) قال أبو عبدالرحمن : يعني أن هدفه في الأصل أناني .

(٤) أسلفت في إحدى العلاقات حصول الهدف النبيل الشامل وإن كانت البداية أنانية ، وأشرت إلى المثل المشهور (السيرة تُبيِّن السريرة) .

(٥) قال أبوعبدالرحمن : الصواب : (وهي) .. أي بواو العطف قبل (هي) .

(٦) قال أبو عبدالرحمن : الأفصح (المنظِّم) بدون واو عطف .

النظام القائم[١] ؛ وإنما من منبع خفي[٢] لم يبلغ بعد مرحلة الظهور أو الوجود الحاضر.. من تلك الروح الداخلية التي لا تزال مختفية تحت السطح تضغط على العالم الخارجي وكأنها تضغط على قشرة خارجية، وتمزِّقه إرباً؛ لأنها نواة أخرى غير تلك النواة الموجودة في هذه القشرة[٣] ؛ ولذلك فهم رجال يبدو أنهم يستمدون دافع حياتهم من أنفسهم ، وتؤدي أعمالهم إلى ظهور وضع للأشياء ومركَّب[٤] للعلاقات التاريخية يبدو وكأنه[٥] ليس سوى مصلحتهم هم وعملهم هم فحسب .. أمثال هؤلاء الأفراد لم يكن لديهم وعي بالفكرة العامة التي يكشفون عنها وهم يحققون غاياتهم الخاصة ، بل على العكس كانوا رجالاً عمليين ورجال سياسة ،

(١) قال أبوعبدالرحمن : إذا كانت ثورة القائد على واقع عادل فبطولته مقدَّرة بعبقريته في تحقيق مجده الذاتي اللاأخلاقي ابتداء ؛ فإن حقَّق بعد ذلك نفس الواقع أصبح محمودَ التاريخ بدافع أناني ، وإن حقَّق واقعاً أفضل فههنا يلزم التمحيص التاريخي التفسيري : هل دافع البطل أناني ابتداء ، أو أن باعثَه تحقيقُ واقع أفضل ؟ .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : (إنما) التي مرت كافة ومكفوفة من جهة الإعراب ، وهي باقية على معنى الحصر ، والواو للاستئناف المفيد ضِمْناً الإضرابَ عما سبق وهو (من مجرى الأحداث)؛ فالمعنى حينئذ : يُسمَّون أبطالاً من منبع .. إلخ .

(٣) قال أبو عبدالرحمن : ما سلف من تقرير عن أهداف أصحاب الحدث لا يحتمل هذه التشبيهات والتجوزات الفضوليَّة التي تبعدك عن المراد خطوات كثيرة ، ولا سيما في سياق فكري يقتضي التعبير المباشر .

(٤) قال أبوعبدالرحمن : إن كانت الترجمة موصِّلة فالأفصح حذف الواو قبل (مركب) .

(٥) الأرجح (كأنه) بدون واو قبلها ؛ لأن واو العطف والاستئناف وبقية معاني الواو لا تصلح ههنا، وواو الحال جائزة في صورة الكلام ، وهي مقدرة بـ(إذا) أو (في الحال) .. انظر على سبيل المثال الجنى الداني ص١٦٤، وجواهر الأدب ص٢٠١، ورصف المباني ص٤١٧-٤٢٠، فالتقدير: يبدو والحال كأنه .. ولكن السياق لا يرجِّح واو الحال ؛ إذ المراد التشبيه ؛ فالتقدير : «يبدو الوضع كأنه» ، ولا عطف بين المشبَّه والمشبه به ، والحال فَضْلَة بالنسبة للتشبيه ؛ إذن «كأنه» تشبيه للوضع ، والجملة حالية بدون حاجة للواو .

لكنهم في الوقت نفسه كانوا رجال فكر لديهم بصيرة بمتطلبات العصر[1] .. أي بما آن أوانه ، وتلك هي حقيقة عصرهم ذاتها ، كما أنها حقيقة عالمهم ، وهي - إن صح التعبير - النوعُ الحي التالي في الترتيب، والذي[2] كان قد تشكَّل بالفعل في رحم الزمان ، ولقد كانت مهمتهم هي أن يعرفوا ذلك المبدأ الوليد الناشئ، والخطوة الضرورية التالية مباشرة في طريق التقدم التي كان ينبغي أن يخطوها عالمهم، وأن يجعلوا هذه الخطوة هدفهم المنشود ، ويكرِّسوا لها جهدهم وطاقتهم؛ ولذلك فإن رجال التاريخ أو أبطال عصرٍ ما لابد أن يُعدُّوا حكماء عصرهم، ولابد من النظر إلى أعمالهم وإلى كلماتهم على أنها خير ما عُمل وأفضل ما قيل في العصر.. إن هؤلاء العظماء قد استهدفوا أغراضاً لكي يُرضوا أنفسهم لا غير، وبالغاً ما بلغتْ فطنة الخطط والنصائح التي تعلَّمُوها من الآخرين فلابد أن تكون تلك سمات محدودة للغاية وغير متسقة مع طريق حياتهم؛ إذ لابد أن يكونوا هم الذين فهموا الأمور على نحو أفضل، ولابد أن يكونوا هم الذين يتعلم منهم الآخرون، ويستحسنون سياستهم أو على الأقل يُذعنون لها ؛ لأن تلك الروح التي اتخذت هذه الخطوة الجديدة في التاريخ هي النفس الداخلية للأفراد جميعاً ؛ لكنها في حالة اللاوعي التي يوقظها عظماء الرجال ؛ لذلك فإن أقرانهم يتبعون قواد النفس هؤلاء[3]؛ لأنهم يشعرون بقوة لا تُقاوَم لروحهم الداخلية المتجسِّدة فيهم .. ولو أننا واصلنا السير لنلقي نظرة

(١) قال أبوعبدالرحمن: مضى قبل بضع كلمات قوله: (أمثال هؤلاء الأفراد لم يكن لديهم وعي.. إلخ)، وههنا (لديهم بصيرة .. إلخ) فلا أدري من أين جاء هذا التناقض: أهو من هيجل، أو من المترجم.

(٢) قال أبوعبدالرحمن : انظر التعليقة رقم (٣) ، ص٣٦ من البحث .

(٣) قال أبوعبدالرحمن : يعني أنهم يقودون أنفس الأفراد جميعاً ؛ لأن الواحد من أولئك الأبطال هو الروح الداخلية للمجتمع .

على مصير هؤلاء الأشخاص التاريخيين الذين كان دورهم أن يكونوا وِطَاءً لروح العالم فسوف نجد أنه ليس مصيراً سعيداً ؛ فلم يصل هؤلاء إلى المتعة الهادئة ، بل إن حياتهم كلها كانت عملاً وعناء ؛ ولم تكن طبيعتهم بأسرها سوى ذلك الانفعال السائد[١] .. أوعندما يبلغون مقصدهم يسقطون كما تسقط القشرة الفارغة الخالية من النواة ؛ فيموت أحدهم في سنٍّ مبكرة مثل الإسكندر الأكبر[٢] ، أو يُقتل مثل يوليوس قيصر[٣] ، أو يُنفى إلى سانت هيلانة مثل نابليون[٤] .. هذا العزاء المخيف (وأعني به أن رجالات التاريخ لم يستمتعوا بما نسمِّيه بالسعادة التي لا يصل إليها سوى الحياة الخاصة)[٥] وحدها ، وهذه الحياة الخاصة قد تحدث تحت

(١) قال أبو عبدالرحمن : يعني بالانفعال السائد ما مضى من العمل والعناء ، وهذا رداءة أسلوب أحدث الغموض ، وعلى فرض الغموض في الأصل الأجنبي فمهمة المترجم أن يحوِّله إلى اللغة الثانية بأسلوب بليغ مبين بلا فضول ولا تلعثم فيه .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : توفي وعمره ثلاثة وثلاثون عاماً على الرغم من أنه من أعظم قواد العالم ، وأوسعهم شهرة ، ويُظن أنه ينوي فتح العالم كله ، وانظر عنه الموسوعة العربية الميسرة ١٥١/١ - ١٥٢ .

(٣) هو القيصر كايوس يوليوس (١٢٠ ق م - ٤٤ ق م) قالوا عنه في الموسوعة العربية الميسرة ١٤١٢/٢ : «ولكن انتصاراته الباهرة ، وسلطته المطلقة أزعجت نبلاء الرومان الذين لم يروا فيه سوى طاغية من الطراز الإغريقي يتطلَّع إلى تنصيب نفسه ملكاً ، وفي منتصف مارس ٤٤ ق م اُغْتيل في مجلس الشيوخ ؛ فترك الدولة الرومانية فريسةً لحرب أهلية جديدة .. وأعماله ما زالت مثال الجدل بين الباحثين ؛ فمنهم من يرى أنه كان نهَّازاً للفرص ، متعطشاً للسلطة.. بينما يرى آخرون أنه كان نصير الضعفاء ، وهدفه إعادةُ مجدِ روما وسيطرتها» .

(٤) هو نابليون الأول إمبراطور فرنسا [١٧٦٩ - ١٨٢١] .. انظر عنه الموسوعة العربية الميسرة (١٨١٢/٢) .

(٥) قال أبوعبدالرحمن: العبارة متلعثمة، والترجمة غير موصِّلة ولعل المراد: (يعني ذوي هذه الحياة الخاصة) .. مع أن القادة هم الخاصة! ؛ فيكون المعنى: (ذوي هذه الحياة الخاصة من خاصة الناس).

ظروف خارجية مختلفة تماماً .. هذا العزاء ، يمكن أن يستمده من التاريخ منْ يحتاجون إليه ، وهو عزاء يتوق إليه الحسد[1] الذي يغيظه ما هو عظيم وسام ؛ فيناضل للتقليل منه»[2] .

قال أبو عبدالرحمن: أجمل هيجل الإطراء لكل فاعل للحدث التاريخي ، وهذا الإطراء مُضَلِّل ، بل عليه أن يحدِّد صفةَ الفاعل الذي يستحقُّ هذا الإطراء .. إلا أنه على أي حال يعني الفعل البشري .. أي الحدث التاريخي الذي منح الله فاعليه الحرية والقدرة على فعله ، ثم هو يعني على وجه الخصوص ما يحدث عن البطل القائد ذي الأهداف النبيلة ، والقانون المعمول به ؛ ولهذا فميزان هيجل في تقويم ما يصدر عن البطل من أحداث : أن ما نستنكره من أحداث جزئية لا ننظر إليها بمفردها، بل ننظر إلى الأهداف العامَّة التي تحكم تصرَّفه، وننظر إلى منجزاته .. وهذا حق إذا تعلق التقويم ببطل (ذي أهداف نبيلة، وقانون ، ومنجزات خيِّرة) .. وههنا كلام لهيجل عن الحرب والسلام وقد أصبحت الدعوة إلى أحدهما فلسفتين يتشيَّع لهما فريقان.. والمحقَّق أنَّ السلام، هو القاعدة والمطلب، وأن الحرب هي الاستثناء والضرورة؛ وإنما الجوهر في تحديد هُويَّة السلام الذي هو المطلب؛ فالهوية الحقيقية للسلام ما كان تحقيقاً لدعوة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، وهي ضمانة لسيادة قضاء الله الشرعي على الخلق ، وحرية ذوي الأديان بالشرط الديني على نحو الشرط في ديننا الإسلامي الناسخ للأديان، الذي

(١) قال أبوعبدالرحمن : في الأصل (الجسد) بالجيم .

(٢) قال أبوعبدالرحمن : محاضرات في فلسفة التاريخ ١/٩٩-١٠٣ ، واربط هذا بفصل (الحرب ومحكمة التاريخ) من كتاب دراسات هيجلية للدكتور إمام عبدالفتاح إمام ص١٣١-١٧٨ ، وأضف إلى فلسفته التاريخية ما كتبه هربرت ماركيوز بكتابه (نظرية الوجود عند هيجل / أساس الفلسفة التاريخية) ، ص٤٢٦-٤٥٠ .

أبقى الناس على حرية أديانهم وفق أحكام فقهية .. وهي ضمانة للعدالة ، والتعاون بين البشرية ، وعقد المعاهدات الدولية لتحقيق المصالح المشتركة .. والهوية الزائفة للسلام ما يعيشه تاريخنا الراهن من فلسفة الحرب العسكرية والاقتصادية والثقافية والإعلامية من قبل العالم الأقوى ؛ لفرض سلام لا يتم إلا بالتحكُّم في مصير الشعوب المستضعفة، ونهب مواردهم ، وإجبارهم على أن يكونوا مصدر تسويق بأبهظ الأثمان ، وإيذاء حرية جماهيرهم الدينية الأخلاقية الإصلاحية بفرض حرية ما لا يرضونه من باطلٍ وشرٍّ وقبح الإباحية والإلحاد وتحطيم الجسد بالمخدرات ، وتحطيم الروح بفلسفات الجنون والغثيان، وفرض الحصار عليهم في تحقيق التنمية عسكرياً واقتصادياً، وسلبهم قرارهم السياسي والثقافي والديني .. وهو سلام بالمفهوم السياسي يفرضه حق الفيتو .. أي أهواء وأطماع الدولة الغالبة.. قال هيجل : «الحرب هي حالة تُعالِج على نحوٍ جاد تفاهةَ الخبرات الزمانية والأشياء العابرة ، وهي تفاهة كانت في أوقات أخرى موضوعاً شائعاً للمواعظ المنمَّقة ، وهذا ما يجعلها تمثل اللحظة التي تبلغ فيها مثالية الجزئي[١] حقها وتوجَد[٢] بالفعل ؛ فللحرب ذلك المغزى الرفيع[٣]؛ إذْ بفضل فاعليتها (كما قلت في مكان آخر) تحافظ الشعوب على صحتها الأخلاقية حين تقف موقف اللامبالاة من المؤسسات المتناهية تماماً[٤] مثلما أن هبوب الريح يحفظ ماء البحر من التلوث الذي يأتي نتيجة فترة طويلة من السكون والركود .. كذلك فإن فساد

(١) قال أبو عبدالرحمن : يريد مصلحة شعب معيَّن .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : لو جاء بفاء التفريع فقال : «فتوجَدُ» لكان أبلغ .

(٣) الإشارة إلى (مثالية الجزئي) التي مرَّ ذِكْرها .

(٤) قال أبو عبدالرحمن : يعني التي جمدت على نمطها كشعب ركد فيه السلام أمداً طويلاً .

الأمم قد يوجد نتيجة لفترة[1] طويلة من السلام.. دَعْ عنك السلام الدائم»[2].

قال أبوعبدالرحمن : لا يُقبل هذا التسويغ للحرب بإطلاق ، وإنما شرط قبوله أن يكون الباعث والنتيجة «حفظ ماء البحر من التلوُّث» ..أي حينما ينخرط الفرد مع إخوانه المقاتلين المواطنين لإبقاء الدولة بمقوِّماتها الدينية بأسمى معيار ، أو لإبقاء الدولة بمقوِّماتها بمنطق نظرية العقد الاجتماعي ، وهو معيار بشري وضعي ليس حقّاً في ذاته ، ولكنه أسمى من الفوضوية ، وبعض الشر أهون من بعض .. والخدمة العسكرية قاعدة في التاريخ البشري ؛ لأنها ظاهرة غير متخلِّفة في كل تاريخ .. وتسويغ الخدمة العسكرية بمصالح فردية ظاهرة شاذة في المجتمع المدني ، وتسويغها بالنَّهب ظاهرة أغلبية في المجتمع الهمجي ، والتسويغ الأغلبي والمنطقي في المجتمعات المدنية التضحية بالمصلحة الفردية لغايةٍ جماعيةٍ أسمى .. إلا أن هذا السمو تحكمه معايير؛ فالمعيار الخالص للحق والخير والجمال ما حقق غايات الأديان الربانية من إصلاح البلاد والعباد، ثم يلي ذلك معايير وضعية ؛ فحينما تكون الديموقراطية (بكل سلبياتها واعتداءاتها على حق الله ومطالب العقل السامية) مطلباً جماهيرياً : تكون الخدمة العسكرية لتحقيق هذا المطلب ، وتضحية الفرد بنفسه ومصالحه الذاتية تكون مطلباً خلقياً سامياً بالاعتبار البشري الوضعي .

وفي فلسفة هيجل التصريح بقوله: «لا يمكن إنكار دور الحرب في تطوُّر الإنسان؛ لأن مجموعة كبيرة مما تم إنجازه طوال التاريخ إنما جا نتيجة للحرب

(١) قال أبو عبدالرحمن : بينت كثيراً أن الفترة ليست حيناً من الأحيان (أي جزءاً من الزمن في الدلالة اللغوية) ؛ وإنما هي وصف لزمن ما ساده سكون شيءٍ ما لمجتمع ما ، أو فردٍ ما كفترة انقطاع الوحي عن الرسل عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام .

(٢) دراسات هيجلية ، ص١٤٩.

والنزاع أكثر مما جاء عن طريق الانسجام والتعاون بين البشر»[١] .. والقاعدة عند هيجل أن كل أمة ترغب في الظهور إلى الوجود عليها أن تؤكد فرديتها وروحها بالظهور على مسرح التاريخ بأن تقاتل الأمم الأخرى[٢] .. ومثل هذه الآراء لا تجعل هيجلَ الفاشستيَّ الأول كما قال كارل بوبر، وإنما هذه الآراء تعبير عما هو كائن وليست دعوة لما ينبغي أن يكون.. أي هي كشف لمجرى العادة الغالب في كل الحرب، وأن الحروب ليست مصادفة عفوية لا باعث لها، بل لها بواعث حميدة وشرِّيرة.. وسيادة السلام وامَّحاء الحروب شيئ مؤقت في حياة البشرية يحيل العقل (وفق التجارب التاريخية، ووفق الخبرة بالنوازع في البشر) أن يكون مؤبَّداً ولو في آخر مراحل البشرية؛ لهذا فهيجل لا يدعو إلى محال السلام الدائم بفلسفة خيالية، وإنما هو يتحدث عما هو كائن ، ويبرز الظواهر السلبية والإيجابية للحروب .. ومن وجهة نظري فالحرب مُمَجَّدة بقدر ما تُغيِّره من فساد وتفرضه من صلاح بعد الموازنة والمعادلة بين المفاسد والمصالح في التغيير؛ وبهذا المنطق تكون الحرب معادلة (للصحة الأخلاقية للشعوب) كما في تعبير هيجل[٣].. قال الأستاذ عبدالفتاح الديدي: «اقتنع هيجل اقتناعاً أساسياً أصيلاً ثابتاً بأن التاريخ وحده مجال الفكر؛ فالفكر لا يكون هو نفسه إلا إذا تخلص من سكون الماضي، مع إعادة بنائه وتدبُّره؛ من أجل التطلع نحو ما يحمل من صفات الأبد والدوام والاستمرار والحياة .. ومن قال الزمانية قال التاريخ[٤] ، وقال التطور والتقدم الروحي والتحول العظيم الشامل للوجود في

(١) **دراسات هيجلية**، ص١٣٨ .. وانظر سياق هيجل عن فلسفته في الحرب ودراسته في كتاب فلسفة القانون والسياسة عند هيجل للدكتور عبدالرحمن بدوي، ص١٢١ إلى آخر الكتاب .

(٢) انظر: **دراسات هيجلية** ، ص١٣٩ .

(٣) انظر: هذه العبارة في **دراسات هيجلية** ، ص١٤٣ .

(٤) قال أبو عبدالرحمن : معنى هذا الكلام : أن مَن فَهِم معنى التاريخ فهم معنى الزمانية فجعلها شيئاً واحداً .

صيرورته.. ولم يكن هيجل يُقَدِّر أن المستقبل سوف يأتي بنظرية داروين في النشوء والارتقاء، وبنظرية ألكسيس كاريل في الزمانية العضوية أو الزمن العضوي[1] ؛ ولذلك فقد نظر إلى الطبيعة العضوية على أنها بغير تاريخ ؛ لأنها مجرد تكرار رتيب خالص.. والواقع أن التاريخ في نظر هيجل شيئ واحد فقط، وهو ما يهدف إلى استمراره هو نفسه بحيث يلحق بنهايته، ويبلغ غايته من خلال تطوره»[2].

قال أبوعبدالرحمن: سرعة سقوط جسم ثقيل، وتأخُّرُ سقوط الجسم الخفيف مجال للفكر، وليس ذلك تاريخاً .. وتحليل مرضٍ نفسي مجال للفكر وليس تاريخاً ؛ فقول الدكتور الديدي عن فلسفة هيجل : (التاريخ وحده هو مجال الفكر) تعميم بلا

(١) ألكسيس كاريل Alexis Carrel : طبيب جراح وفيلسوف فرنسي. ولد في ضواحي مدينة ليون Lyon في وسط فرنسا عام ١٨٧٣م ، وتوفي في باريس عام ١٩٤٤م . حصل على جائزة نوبل في الطب لعام ١٩١٢م تقديراً لجهوده في جراحة الأوعية الدموية وفي زراعة الأعضاء والأنسجة . سافر إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٠٥م ، وعاد إلى فرنسا عند اندلاع الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩م،، وأشهر مؤلفاته: الإنسان ذلك المجهول، ألفه عام ١٩٣٥م، وترجم إلى العربية غير ترجمة أشهرها ترجمة شفيق فريد التي طبعت في القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣م، ثم في لبنان مؤسسة المعارف ٢٠٠٣م. اتهم بالعنصرية ، ولقيت أفكاره حول فكرة تحسين النسل معارضة كبيرة.

الزمن العضوي : يميز الفلاسفة بين الزمن الخارجي الكوني للأشياء ، والزمن الإنساني الذي هو تغيرات الجسم ووجوه نشاطه إبَّان الحياة. وهذا الزمن يقسم إلى قسمين:

الزمن العضوي (الفيزيولوجي) : يبدأ مع الكائن منذ لحظة تخلقه إلى ولادته ، وصولاً إلى نهايته : أي ما يمكن أن نسميه بالزمن النمائي للإنسان الذي يتحكم بحالات نموه وتطوره البدني ، وهو ثابت ضمن نسق نمائي محدد للكائن الحي.

أما الزمن النفسي (السيكولوجي) : فهو إحساس المتغير باتجاه الأشياء وعلاقة هذا الكائن مع الكائنات الأخرى، تبعاً للحالات التي يمر بها ، وبالتالي لكل إنسان زمنه السيكولوجي الخاص. انظر : كتاب الزمن، رسالة الكائن إلى ذاته - وجهة نظر، بهجة مصري إدلبي ، دار عبدالمنعم ناشرون، ٢٠٠٥م، ص٢٨-٣٠. وكتاب الإنسان ذلك المجهول، موثق أعلاه [د. بقاعي].

(٢) **فلسفة هيجل** ، ص١٩٢-١٩٣ .

رَويَّة ، والصواب أن التاريخ كغيره مجال للفكر ، وليس هوالمجال وحده .. ومن عبارات الديدي: (فالفكر لا يكون هو نفسه إلا إذا تخلَّص من سكون الماضي) !! .

قال أبوعبدالرحمن : لا معنى لسكون الماضي في مجال التاريخ إلا أن توجد مدة في عصر أو أمة لم يثبت فيها حدث تاريخي ؛ فحينئذ لا مجال للفكر في نفي شيئ أو إثباته خلال تلك المدة ، وليس معنى هذا أن الفكر لا يكون هو نفس الفكر إلا إذا تخلص من سكون الماضي ؛ لأن الفكر عمل العقل ، فالفكر هو الفكر ما ظل العقل متأمِّلاً .. وإنما المعنى أن عمل الفكر لم يجد غير سكون تاريخي ، وكثير من الدُعاة يُفَخِّمون قراءاتهم للفلسفة بتعبيرات لا تُحقِّق مدلولاً صحيحاً، ولعل الديدي وجد تعبيراً مجازياً من كتابات هجيل أو مما كُتب عنه فلم يُحسن استخدامه - مع أن الأسلوب الأدبي المجازي لا يصلح للفلسفة - ، ووجه المجاز : أن تلقِّي التاريخ بدون عمل فكري هو (سكون الماضي) ؛ فلابد من تحريكه بالفكر .. وهذا هو نفسه إعادة بناء التاريخ ، وهو نفسه أيضاً كل عناصر المسؤولية التاريخية ، والجامع لكل لذلك أن نعيد بناء التاريخ (أي نحرِّك سكون الماضي) بإعادة قراءته بتأمُّل فكري ، وتكثيف للقراءة من كل مصدر، ومن كل مشاهدة تساعد على معرفة الماضي، والتأمل الفكري هو حضور العقل بكل معارفه ومبادئه .. ومن كلام الديدي (أن إعادة بناء التاريخ ينتج التطلع نحو ما يحمل من صفات الأبد والدوام والاستمرار والحياة) ؛ فإن كان ضمير (يحمل) عائداً إلى الفكر فتلك الصفات وجودٌ فكري قائم سواء أكان الفكر مُحَرَّكاً أم مُعطَّلاً ، وإن كان عائداً إلى الماضي أو التاريخ فالتاريخ وقائع متغيِّرة؛ وإنما توجد سنن ونتائج ثابتة إذا وُجِد المقتضي وتخلَّف المانع، فهذه لها صفة التكرُّر لا الأبدية والحياة !!.. ومن تعبير الديدي : «ومن قال الزمانية قال التاريخ ، وقال التطور والتقدم الروحي، والتحول العظيم الشامل للوجود في صيرورته».

قال أبوعبدالرحمن: هذا تعويم إنشائي آخر من كلام الديدي نفسه لم يُحله إلى مصدر هيجلي، ولست أعرف معنى للقول بالزمانية ؟!!.. وإنما المعروف أن تدفَّق الزمن ظروف لوقائع التاريخ ؛ وإنما يريد فهماً مسطَّحاً فَهِمَهُ - بدليل سياقه عن التطور والصيرورة ، وما عرف عن الديالكتيكية التاريخية المستَنَدِ فيها على فلسفة هيجل - ، وهو أن التاريخ في صعود على مدى الزمن[1] ؛ فهو تحوُّل عظيم إلى صيرورة التطور والتقدم، وهو زعم ماركسي يكابر الواقع؛ لأن التاريخ تأرجُح وتعرُّج، وليس صعوداً دائماً؛ ولهذا يكون التحول من التقدم إلى التخلف ، أو من التخلف إلى التقدم، أو يجتمع الأمران في زمن .. وداروِن [١٨٠٩-١٨٨٢م] أدرك جزءاً من حياة هيجل [١٧٧٠-١٨٣١م]، واعتمد على تعميمه الخاطئ عن صعود التاريخ، وعن الديالكتيك .. ونظرية داروِن التاريخية[2] تأطير لأكذوبته المتعمَّدة عن خرافة تطور الإنسان عن قرد ، وعن البقاء للأصلح .. والنظرية القردية لفَظَها البرهان العلمي من الدين ومن العلم المادي الحديث؛ فأصبحت من مزابل الفلسفة الحديثة[3].

(١) انظر: **الموسوعة الفلسفية العربية** م ٢ ق٢، ص١١٦٥ خلال الكلام عن المادية التاريخية .

(٢) انظر: عنها **معجم علم الاجتماع** ، ص١٩٥-١٩٩ عن الداروِنية الاجتماعية ، والتطور الاجتماعي.. وسرَتْ العدوى إلى الُحواة العرب ؛ فاتخذوها مذهباً ..
انظر الموسوعة الفلسفية العربية م ٢ ق ١، ص٥٥٨-٥٦٦ عن الداروِنية العربية .. وأما الزمانية العضوية - كما في المعجم الفلسفي الصادر عن مجمع اللغة العربية ص١١٩- فتعني في علم الاجتماع أن المجتمع كائن حي تُفسَّر ظواهره تفسيراً عضوياً، وفي كتاب (الإنسان ذلك المجهول) لألكسيس كايل بداية لفلسفة التطور تربط بين تبادل التطور بين الفرد والمجتمع.. انظر على سبيل المثال ، ص١٧٤-١٧٧ ، وص٣١٢-٣١٥ .

(٣) ذكر شمس الدين أق بلوت في كتابه (داروِن ونظرية التطور) ص١٠٠-١٠٢ أن النظرية حرب حاقدة على الأديان، وذكر ، ص١٠٣-١٠٨ بعض الحقائق التي تعجز أكذوبة داروِن عن تفسيرها، وزيَّف هذه النظرية البروفسور العالم الأمريكي دوان ت. كيش في كتابه (في نظرية الطور / هل تعرَّضت لغسيل الدماغ ؟!) ، وهكذا زيَّفها بمنطق علمي الدكتور طالب الجنابي في كتابه (نظرية التطور الداروِنية خرافة باسم العلم) .

قال أبوعبدالرحمن: ومفهوم أرسطو وكل العقلاء : أنه لا شيئ في الذهن إلا ما كان مصدره الحواس[١] ، ويدخل في ذلك الحس الباطني (الشعور) ؛ فكل هذا تجربة الخبرة .. إلا أن هذا يتعلق بالتصورات ، وأما الأحكام فيأخذها العقل من الحس مباشرة، ويأخذها بالتجريد من المحسوسات من الهويات والفوارق والعلاقات؛ ولهذا نرى المبالغة في دعوى أن التاريخ حضور التجربة في كل وقت[٢]؛ وإنما الحضور عند تماثل الوقائع أو تشابهها ؛ فلا معنى لهذا التعميم إلا بتخفيف العبارة؛ لتكون بمعنى أن خبرة التاريخ تتجدَّد .. هذا إن صح أن الديدي أحسن النقل عن هيجل ، كما أنه قرر أن من شأن التاريخ أن يحفظ تجارب العقل والمعرفة[٣] .. والواقع أن هذه وظيفة التاريخ كما ينبغي أن يكون ، ثم قرر الديدي عن هيجل أنه باقتران تتابع التجربة التاريخية كان من شأن المؤرخ أن يتابع تسجيل التنوع والتغيرات[٤] .

قال أبوعبدالرحمن: لا ترتبط الوقائع الصحيحة بالميتافيزيقا الفلسفية عند هيجل عندما جعل السياق الإيقاعي للأحداث في خِضَمِّ دعوى الديالكتيك؛ فيبدأ العنصر الأوَّلي الأصلي الوجودي، ثم عنصر الخصام المنازِع النقدي، ثم الاجتماع[٥]؛ لما أسلفته من فساد دعوى التصاعد المستمر في التاريخ .

ومن المسؤولية التاريخية النصيحة العامة للمسلمين ودينهم بإظهار عيوب الرواة المؤثِّرة في روايتهم ، وكشف البدعة أو الفسق أو الكفر في مذهب عالمٍ جُعِل قدوة ، وأما الثلب للمختلفين من أهل القبلة من سنة وأشعرية ومعتزلة فلا يجوز ،

(١) انظر: **فلسفة هيجل** للديدي، ص١٨٤ .
(٢) المصدر السابق، ص١٨٦ .
(٣) المصدر السابق، ص١٨٥ .
(٤) المصدر السابق، ص١٨٦ .
(٥) المصدر السابق، ص١٨٧ .

وليس من مادة التاريخ، بل له شأن آخر سألمح إليه إن شاء الله مجرد إلماح؛ لأنه ليس من صميم المسؤولية التاريخية ؛ فأما الرواية فقد نسك قوم نسكاً أعجميُّاً ، وزعموا أن بيان العيوب غِيْبَةٌ ، وأن الوقوع في حفرة الأعراض وقوع في النار ؛ ولهذا النسك الأعجمي بالغ العلامة أبو حيان الأندلسي النحوي المفسر الظاهري مذهباً ؛ فقال في حق الإمام يحيى بن مَعين رحمهما الله تعالى ، ويا ليته لم يفعل :

ويحيى وما يحيى وماذو روايـة وما إن ليحيى ذكر علم به يحيا

سوى ثلْب أقوام مضوا لسبيلهم سيُسأل عنها حين يُسأل عن أشيا[1]

وكان التاج السبكي يرى أن المؤرخين على شفا جرف هار؛ لأنهم يتسلطون على أعراض الناس!![2] وعاب ابنُ المرابط شمس الدين الذهبيَّ بثلبه الناس، وذكر مساوئهم.. وعدَّ ذلك غيبة لا تجوز ، وحكم بأن الجرح قد انقطعت فائدته من رأس أربعمئة، ووقع فيما فرَّ منه بإفراطه في ثلب الذهبي، وفي الدر الكامنة ردَّ عليه الإمام ابن حجر ودافع عن الإمام الذهبي، وفي قواعد العز ابن عبدالسلام رحمهم الله تعالى عَدَّ الكلام في الجرح والتعديل من البدع الواجبة .. وبمقابل ذلك تلخيص شيئ مما قيل في فائدة نقل الرواة ؛ فمن ذلك قول سفيان الثوري رحمه الله: (لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ) .. ومن أمثال التاريخ الذي استعانوا به - وهو لبيان كذب الراوي - سؤال إسماعيل بن عياش رجلاً ختياراً[3] أي سنة كتبت عن خالد بن معدان؛ فقال: (سنة ١١٣هـ).. قال: (أنت تزعم أنك سمعت منه بعد موته بسبع سنين).. وادَّعى سهيل بن ذكوان أبو السندي أنه روى عن عائشة رضي الله عنها، وأنه لقيها بواسط.. مع أن عائشة رضي الله عنها توفيت قبل أن يخطَّ الحجاج

(١) **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ** للسخاوي، ص١٠٥/ العلمية ، وص٥٨ / دار الكتاب العربي.

(٢) انظر: **معيد النعم**، ص١٠٥-١٠٦ [يراجع]، ونقله في **الإعلان بالتوبيخ**، ص١٣٠-١٣١/ العلمية.

(٣) قال أبو عبدالرحمن : هو الرجل الكبير

مدينة واسط بدهر .. ومنه ما هو لتبرئة إمام من أئمة المسلمين كُذب عليه كما في قول المعافي بن زكريا النهرواني الجريري: «حدّثنا ابن مخلد قال: حدّثنا محمد بن الحسن قال حدّثنا: وزيرة قال: حدّثنا معمر بن شبيب قال: سمعتُ المأمون يقول: قد امتحنتُ محمد بن إدريس [يعني الشافعي رحمهم الله تعالى جميعاً] في كلِّ شيئ فوجدته كاملاً، وقد بقيتْ خَصْلَةٌ وهو أن أسقيه من النبيذ ما يغلبُ على الرجل الجيِّد الشرب.. قال فحدثني ثابت الخادم وقد دعا به، فأعطاه رطلاً فقال: اشربْ يا محمد.. قال: يا أمير المؤمنين ما شربته قطّ .. قال: (عزمت عليك لتشربنَّ)؛ فشربه، ثم والى عليه بالأرطال حتى سقاه عشرين رطلاً ، فما تغيَّر ولا زال عن حُجّة .

قال القاضي [هو الجريري] : وهذا ممن لم يَعتدْ شُرْبَهُ لم يأنَسْ به مزاجه وطباعه أبلغُ في الأُعجوبة ، وأدلُّ على اعتدال التركيب وقوة الطبع ووثاقة البنية ، والله أعلم بصحَّة هذه الحكاية وثبوتها من جهة الرواية»[1] ، ثم قال : «حدَّثنا محمد ابن أحمد بن الحسن الصوَّاف قال : حدَّثني أحمد بن أبي الصلت الحماني قال: سمعت أبا عبيدٍ يقول: رأيتُ الشافعيَّ [رحمه الله تعالى] عند محمد بن الحسن وقد دفع إليه خمسين ديناراً (وقد كان دفع إليه قبل هذا خمسين درهماً ، وقال : إن اشتهيتَ العلمَ فالزم ، ثم دفع إليه هذه الدنانير ولزمه الشافعي) .. قال أبو عبيد : فسمعت الشافعي يقول : كتبت عن محمد بن الحسن وقرَ بعير .. وسمعته يقول لمحمد بن الحسن وقد دفع إليه الدنانير بعد الخمسين درهماً وقال له: لا تحتشم .. فقال : ما أنت عندي في موضع أحتشمك .. وجرى ذكر الشراب فقال الشافعي : الحمد لله .. لو علمت أن الماءَ البارد يضرُّ مروءتي في ديني لما شربتُ إلا الماءَ الحارَّ حتى ألقى الله تعالى ، ولو كنتَ عندي ممن احتشمك ما قبلتُ برِّك»[2]، وقد

(١) الجليس الصالح الكافي ٣/١٣١ .

(٢) الجليس الصالح الكافي ٣/١٣١ - ١٣٢ .

أبطل ذلك الإمام ابن حجر بأن الإمام الشافعي دخل مصر على رأس ٢٠٠هـ والمأمون إذ ذاك بخراسان ، ثم مات الشافعي بمصر سنة دخل المأمون من خراسان إلى العراق، وهي سنة ٢٠٤هـ : فما التقيا قط والمأمون خليفة.

قال أبو عبدالرحمن : كل ما ذكرته هنا مُفرَّق في كتاب (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) للإمام شمس الدين السخاوي رحمه الله ، ولم أتوسَّع بتقميش أمثال ذلك من الكتب ؛ لأن فيما ذُكر كفاية ، ولم أحرص على تخريج نصوصه من المصادر؛ لأنه إمام مُحقَّق النقل ، وأختم بقوله : «وعقد الخطيب [أي البغدادي] باباً لوجوب بيان أحوال الكذابين ، والنكير عليهم ، وإنهاء أمرهم إلى السلاطين ، وأورد عن الإمام أحمد [رحمه الله تعالى] أنه لشدة اعتنائه به [أي باب بيان أحوال الكذابين] لما ودَّع أبا علي الحسن بن الربيع قعد معه ، وأخرج ألواحه ، وسأله أن يملي عليه وفاة ابن المبارك [رحمه الله تعالى] ، ففعل ، وأنها في سنة ١٨١هـ .. وأنه سئل عن مقصده ، فقال : أريد أتعرَّف به الكذابين»[1] .

قال أبو عبدالرحمن : ههنا أمور :

أولها : أن نشر ما علم من أحوال الرواة من صلاح وفساد ، وضبط وسوء حفظ ، وهوى نصيحةٌ للأمة ، وليس هذا وقفاً على رواة الحديث ، بل هو عام لكل من روى علماً من علوم العرب والمسلمين ، وهو واجبُ المسؤوليةِ التاريخية .

وثانيها : هذا الواجب يعم جملة العلماء الذين يتخذهم السواد قدوة .

(١) **الإعلان بالتوبيخ** ، ص٤٧ / دار الكتاب ، وص٨٦ - ٨٧ / العلمية .

قال أبو عبدالرحمن: حاولت دار الكتب العلمية ببيروت هذه المرة حفظ ماء الوجه بالتصحيح أحياناً ووضع فهرس للأعلام ، ولكن الحواشي لا تساوي شيئاً؛ لأنها إسراف في التعريف بالمعروف، وإهمال لما تنبغي معرفته، وتخريج الأحاديث لا يكفي ولا يشفي، وليس فيه بيان درجة الصحة.

وثالثها : ليس التَّخرُّج من الكلام في الرواة بأوجب من التخرُّج في توثيق علوم المسلمين ولا سيما رواية الحديث ، وتفسير كلام الله ، وقد كثر الكذب ، وكثر أصحاب الأسمار والبدع في التفسير .. وهكذا اللغة لا تؤخذ إلا عن عدول حفاظ أو عن ذوي ضبط لكتبهم .. ولو أخذنا بالنسك الأعجمي في التخرج لجعلنا السكوت عن عرائس الثعلبي ، وتلفيقات مقاتل ، وأساطير وهب باباً واسعاً للاستهزاء بديننا من جهة التفسير لكلام الله ، ولما جعلنا مجالاً للتمييز بين الأحاديث الصحيحة والمكذوبة ، والله سبحانه بقضائه الكوني رفع هذا المحظور بقضائه الكوني ؛ إذ جعل عدول الأمة المعاصرين للرواة متفرغين لمعرفة أحوالهم ، وجعل لذَّتهم بذلك أعظم من ملذات الخلق في أمورهم الدنيوية .. لا يعدل ذلك عندهم إلا لذة الجهاد في سبيل الله .

ورابعها : أن هذه الأمور فوق أنها مسؤولية تاريخية فهي مسؤولية دينية .

وخامسها : رجال العلم يُذكر ما يعرف من أهوائهم وضبطهم وفكرهم وذكائهم سلباً وإيجاباً ، وتذكر أصولهم وعقائدهم ؛ لأنهم مرجع لمعاصريهم ومن بعدهم ، فتكون الاستفادة منهم والدعوة إليهم أو التخلي عنهم عن معرفة حكميَّة .

وسادسها: أن الفسَّاق كالنَّظام من المعتزلة، والمجدِّفون كثمامة بن أشرس، وذوو الفكر الكفري كابن الرواندي وأبي العلاء وإخوان الصفاء، وذوو الفكر الجنوني الذي ينتهي إلى فسق أو بدعة أو كفر: كل هؤلاء يُشهر أمرهم، والفضيحة لهم مما نتقرَّبُ به إلى الله .. ولكن ذلك لا يكون إلا عن علم دقيق بالعَلَم نفسه وبإنتاجه.

وسابعها : أن أهل القبلة كالأشعرية والمعتزلة والماتريدية والمرجئة لا يُشنَّع على أعلامهم ، ولا يُتَعصَّبُ عليهم ؛ لأنهم في الكثير اجتهدوا وأخطأوا، والله سبحانه لن يحاسبهم إلا بعلمه المسبق وعدله؛ فهو سبحانه الأعلم بمدى صدقهم في طلب الحقِّ وتحرِّيه ، ولا يجوز تكفيرهم ؛ وإنما نحكم بكفر

الفكرة كالقول بعدم علم الله بالجزئيات ؛ فمن علم باللازم فالتزمه فقد لزمه حُكْمه، وأما كَفَرة الباطنية فالأصل خروجهم عن دين ربهم .. وكما اجتهد أهل القبلة وأخطأوا في كثير فقد اجتهد أهل السنة والجماعة فيما لم يجمعوا عليه وأخطأوا في قليل .. وبيان الحق من كل فريق، وإظهار حجته ، والجدال بالتي هي أحسن واجب ديني وعلمي وهو أيضاً من المسؤوليات التاريخية ، والذكي الصادق مع ربه ثم مع نفسه يعلم جليَّة الأمر من الجدال بالتي هي أحسن : فإما أن يرجع إلى الحق مُخْبتاً ، وأن يكون هو صاحب الحقِّ فيدحض قول الآخرين بالتي هي أحسن إلا المعاند فيدحضه في بوله ؛ فإن دخل الهوى والحميَّة للنفس ومكانتها العلمية ، أو الحمية للمذهب والجماعة أصبح الحق مرفوضاً مُسْبَقاً ؛ فياويل من لقي الله على العزوف عن الحق اتِّباعاً للهوى .

وثامنها: أنه ليس المحذور فضح الكذاب، وفضح الفاسق الذي للأمة به علاقة، وفضح الفسق والبدعة والكفر، بل هذا هو الواجب، وإنما المحذور القول بغير علم، والظلم بالصدور عن عصبية وحمية وشنآن مُسْبق من أجل أغراض دنيوية .. ومن القول بغير علم منهج ابن حبان رحمه الله تعالى في إدراج مجهولي الحال في الثقات؛ فهذا عدم علم، بل يُجعل لهم باب مستقل هو (باب من لم يُعرف فيهم تعديل أو تجريح)، وأما تمسُّك ابن حبان بقاعدة (أن الأصل في المسلمين العدالة) فلا يفيد فيمن أمر الله بتحقيق عدالته من المسلمين من الشهود، والرواة شهود على دين ربهم، والتعديل إنما هو للمسلم؛ فقد يكون في روايته قادح وهو لم يخرج عن دائرة الإسلام والمسلمين.. والعدالة ليست مقياساً بالسنتيمتر، ولكنها علم بلا هوى بسيرة الراوي، واستقراءٌ لمرويِّه وأحواله في الرواية .. ولا ينجو الراوي بما يظهر من صدقه وضبطه ؛ وإنما ينجو بما لم يظهر أو أُحِيل في حقه من عدم الضبط أو

حصول الكذب؛ فمثل الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تحيل أحواله أن ينسب إلى كذب، ومن جُرِّب عليه الكذب لا ينفعه صدقه؛ لأن الصدق لا يُخالطه كذب، والكذب قد يخالطه صدق يروِّج له ، ومن كذب لا يُصدَّق بعد ذلك إلا بعلم يقيني باستقامته والتزامه الصدق وبراءته وندمه .

قال أبو عبدالرحمن : وأُعمِّق هذا الجانب بإيراد نصوص للسخاوي رحمه الله متعقّباً ما سلف من كلام العز ابن عبدالسلام رحمه الله عن حكم نقد الرواة : «وإدراجه لذلك في البدع ليس بجيد ؛ فقد قال ﷺ : (نعم الرجل عبدالله) ، و(بئس أخو العشيرة) [الحديثان صحيحان] ، وفي أشباه لذلك في الطرفين منها مما أورده الدارقطني في العلل من رواية ابن المسيب عن أبي هريرة [رضي الله عنه] رفعه : (إذا علم أحدكم من أخيه خيراً فليخبره به ؛ فإنه تزداد رغبته في الخير) وقال : إنه لا يصح عن الزهري .. وروى عن ابن المسيب حديثاً مرسلاً، ومنها ما للطبراني بسند ضعيف من حديث أسامة بن زيد رَفَعَه (إذا مدح المؤمن ربا الإيمان في قلبه) .. ومنه ما هو حرام كالمذكور مما وقع لكثير من جهال المؤرخين الذين مُعوَّلهم غالباً على الناقلين عن كتب الأولين ، كمبتدإ وهب بن منبه القائل مصنفه : (قرأت ثلاثين كتاباً نزلت على ثلاثين نبياً ، وأن كُلاً من عبدالله بن سلام [رضي الله عنه] ، ثم كعب الأحبار أعلم أهل زمانه، وأنه جمع علمهما)، وكذا غيره من الأخبار التي تجري مجرى الخرافات ، حيث أورده بالجزم من غير بيان لبطلانه ، ولا أنه مما نقل عن كتب الأوائل ، سيما [الأفصح ولا سيما] المضاف لسير الأنبياء ، والمحكيُّ عما شجر بين الصحابة [رضي الله عنهم] عن الأخباريين ؛ إذ الغالب عليهم الإكثار والتخليط ، وكذا ما يستهجن ذكره عند أرباب العقول ؛ من حوادث لا معنى لها ولا فائدة ، وذكْرِ أناس من الملوك والأكابر يُضاف إليهم شرب الخمر وفعل الفواحش مما تصحيحه

عنهم عزيز ، وهو متردّد بين إشاعة الفاحشة إن صح ، أو القذف[1] إن لم يصح سيما ويتضمن [الفصيح : ولا سيما أنه يتضمن] التهوين على أبناء جنسهم فيما هم فيه من الزلل .. على أن الأخبار لا تسلم من بعض هذا .. ومن أعظم خطإ السلاطين والأمراء نظرُهم في سياسات متقدميهم ، وعملهم بمقتضاها من غير نظر فيما ورد به الشرع ، ثم تسمية أفعالهم الخارجة عن الشرع سياسة ؛ فإن الشرع هو السياسة لا عمل السلطان بهواه ورأيه .. ووجه خطئهم في هذا أن مضمون قولهم يقتضي أن الشرع لم يرد بما يكفي في السياسة ؛ تتمة فيما رأيناه[2] ؟!!.. فهم يقتلون من لا يجوز قتله ، ويفعلون ما لا يحل فعله ، ويسمون ذلك سياسة .. وهذا تعاطٍ على الشريعة يشبه المراغمة ، وهو قريب من : ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ** ﴾ [سورة الزخرف / ٢٣] ومنه[3] ذكر المساوىء على الوجه المشروح مَن يخرج مساوىء الكبير وهيأته في هيئة المدح والمكارم والعظمة غير ملتفت للتحريم ، وكذا من أسباب التحريم الزيادة في الجرح على ما يُحَصِّل الغرض والنقص[4] من المدح.. ومنه ما هو مستحب حيث كان طريقاً للاقتفاء في المحاسن ، وترك ما لا يناسب من المشائن، وإعمال الفكر في تدبر العواقب، وعدم الوثوق بدوام قريب أو صاحب وغيرها مما أشرنا إليه في فوائده.. ومنه ما هو مكروه لكثيرين من تسويد كثير منهم للأوراق حسبما ذكره ابن الأثير بصغائر الأمور التي الإعراض عنها أولى، وترك تسطيرها أحرى وأعلى كقولهم: خلع على فلان الذمي، وزِيد في السعر اليومي، وأُكرم فلان وهو من المجرمين ، وأُهين فلان

(١) قال أبو عبدالرحمن : يظهر أن كل ما مضى مما انتقده على وهب بن منبه .

(٢) قال أبو عبدالرحمن : يعني أن هذه التتمة خلاصة رأيي فيما قرأته عن الأخباريين.

(٣) قال أبو عبدالرحمن : الصواب : (ومن) .

(٤) قال أبو عبدالرحمن : يعني المعادلة بين ما يُمدح به ويُذَمُّ .

وهو من أئمة المسلمين أصحاب الهيئات المعتبرين ؛ لاقتضاء هذا التجرؤ على غيرهم كما سيأتي .. ومنه ما هو مباح حيث لا نَفْعَ فيه لا دنيويَّ ولا أُخرويَّ كما صرَّح به حجة الإسلام الغزَّالي في الإحياء ؛ فإنه قال : (وأما المباح من العلم فالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها، وتواريخ الأخبار، وما يجري مجراه) .. بل قال في موضع آخر وتبعه النووي في قسم الصدقات من الروضة: (الكتاب يُحتاج إليه لثلاثة أغراض : التعليم ، والتفرج بالمطالعة، والاستفادة ؛ فالتفرج لا يُعَدُّ حاجة كاقتناء كتب الشعر والتواريخ ونحوها مما لا ينفع في الآخرة ولا في الدنيا ؛ فهذا يباع في الكفارة وزكاة الفطر، ويَمنع اسم المسكنة)[1] .. ونحوه قوله في الباب الأول من كتابه فضائح الباطنية : إنه طالع الكتب المصنفة في هذا الفن ، فصادفها مشحونة بفنون من الكلام : فن في تواريخ أخبارهم وحكاية أحوالهم من مبدإ أمرهم إلى ظهور ضلالاتهم ، وتسمية كل واحد من دعاتهم في كل قطر من الأقطار ، وبيان وقائعهم فيما انقرض من الأعصار؛ فهذا فن أرى التشاغل به اشتغالاً بالأسمار ؛ وذلك أليق بأصحاب التواريخ والأخبار) .. إلى آخر كلامه ، وذكر الفن الثاني ، وصرح بأنه لا يرى التشاغل به ؛ فاقتضى إباحة الأول مع قبوله للنزاع .. وأما ما استنبط له من الأدلة فيؤخذ مما تقدم في فوائده ومما سيأتي قريباً»[2].

قال أبو عبدالرحمن : كلام الإمام ابن حزم رحمه الله عن مراتب العلوم في كتبه أفضل من هذا ، والمعيار الحكم الشرعي ، وما يترتب على الكتب من مصالح أو مفاسد شرعية أو دنيوية ؛ فليس التاريخ الضروري لعلوم المسلمين ككتب الحلول والاتحاد، وكتب المجون ، وكتب السحر ، ولهذه المسألة تتمة تأتي إن شاء الله ، والله المستعان .

(١) قال أبو عبدالرحمن : يعني يلزم بيعها لأداء الكفارة وزكاة الفطر ، ولا يُحكم على صاحبها بالفقر ، وليس كلامه عن التاريخ والشعر مقبولاً على عمومه .

(٢) **الإعلان بالتوبيخ** ، ص٨٨ - ٩١ / العلمية .